



زهرة كساوي

رواية

مُدُنُ الْمُرْجَانَ

رحلة الى سسى التراث القديم

مكتبة نوميد يا



مدن المرجان - رحلة إلى مرسى الخرز القديم -
زهرة كشاوي / كاتبة من الجزائر
سنة الإصدار: الطبعة الأولى، 2023
حقوق الطبع محفوظة



دار ميم للنشر، الجزائر
E-mail : edition.mim2014@gmail.com

All rights reserved: No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted, in any form or by any means, without prior permission in writing of the publisher.
جميع الحقوق محفوظة: لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطى مسبق من الناشر.

الإيداع القانوني: نوفمبر، 2023
ردمك: 978-9931-790-59-4

مدنُ المُرْجَانِ

-رحلةُ إلَى مرسى الدُّرْز القديم-

طبع هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والفنون



زهرة كشاوي

مدنُ المُجانِ

- رحلة إلى مرسى الذرَّ القديم -

رواية -



الإهداء

إلى مُدن كانت موطنًا لأجود أنواع المرجان.
إلى القالة، عنابة، القُل، حِيجَل، بِجاية.
إلى كُل جمالي خربه الغُزاة.

«هكذا جرّ رجال طروادة الحصان إلى المدينة؛ وأقاموا تلك الليلة احتفالاً للأرباب جميعاً، غير عالمين بأن آخر أيام المدينة قد حان.»

فرجيل، الإنيدا.

الفصل الأول

الحرب

مدينة القالة/ الحامية الفرنسية/ 1798

غمرتُ رأس الريشة في المحبرة، وشرعتُ أكتبُ. فيكتور دي
أوغو، عينٌ من عيون نابليون، في رحلة إلى مرسى الخرز.
توقفتُ أليقُتُ بالورقة ثم كتبْتُ مجدّداً.

- الحرب، الحرب ...

- لقد سجنوا قُنصلنا الفرنسي مولندو، كما حجزوا البريد!

- سيعملُ النفير ...

أصواتٌ أخرى... مع الغروب.

- سيحطّمون مركزنا التجاري ويستولون على سفتنا والميناء!
نفتحت الرياح أمواج البحر وكانتها تلفظ السفن والمراسي.
غادرت الطيور، التوارس والسنونو. تسلل البرد، بينما ركض صيادو
المرجان حفاةً.

لاحت السفن المغادرة بأشرعتها البيضاء وقد خبت أبواقها
كقوارب نجاةٍ تمخّر مياه المحيط منذ ثلاثة أيام. ظهر الجنود في كامل
كسوتهم، فرقاً فرقاً.

أيها العظيم نابليون، أثراني هالكُ اليوم؟ هكذا سألت نفسي
أواخر يوليوا؛ حيث كنتُ أنا وزوجتي جيزيلا وصديقي القديم
ديغوا مع زُهاء ثلاثة فرنسيّ. تجارٌ، جنودٌ، مشاةٌ، خيالٌ، رهبانٌ،
مُترجمون، ملائكون، صيادو مرجان كُورسيكيون ومارسيليون.

هرع الجنود الأشداء لإغلاق بوابات الحامية التي ستتحول إلى سجن كبير. دُفعت المزاليل في الأبواب وأنزلت الأولية. مجدداً ارتفعت صيحات الصيادين العائدين بقواربهم الخاوية:

- الحرب، الحرب...

ارتفع صوت دويّ قذائف بعيدة، تقيناً أحدهم من شدة الهلع، بينما ابتلع البحر قواربهم المنفلته.

- كيف سنخفي قنطاراً وستين رطلاً من المرجان؟

- سيحجزونها كما حجزوا البريد!

تلقى الجندي أمراً بالتوقف عن قرع ناقوس الكنيسة والزحف. أطلق آخر الصغير، انقض سوق الميناء بعدما هرع التجار والربائين في كل اتجاه. تهافت السلع والصناديق على الأرض. سقطت الأثواب والتوابيل والمصوغات والزيوت والتمور. قرعت طبول الحرب، بينما صعد بقية الجنود فوق الحصن ليأخذوا أماكنهم وراء المدافع المنتصبة حول الأسوار المستنة. بين صيحات غضٍ ولطمات أيدٍ، ارتفع صوت صليل الأسلحة. تدافعوا آخرون ملتفطين بنا دقهم وعدداً من عصيّ السنديان الغليظة، رافعين بعضها فوق أكتافهم على سترات يتألقون بها تحمل صفاً من الأزرار الفضية أو النحاسية تتدلّى على بنطال أزرق يغطي الركبة ثم يرتفع قليلاً، بينما يهرع بعضهم حفاة خشية هجوم مباغت.

لم تكفَّ عنّ المحن، هكذا كلّ حربٍ تُشعّل فتيل حربٍ أخرى. جلّ الأهالي هنا مستاؤون من هذه الحامية الفرنسية التي ترتفع عالياً؛ فتبعدو منازلهم وراءها أكوااماً من الطين والتراب والقش. تماماً كما

هم مُستأذون من تُجّارها وصيادي المرجان. ناقمون على قطاعَ
الطرق الذين ننحرهم من حين إلى حين وعلى التصاريف التي يتطلّبها
دخولهم إلى المدينة نهاراً ومنعهم من دخولها ليلاً، على الأسعار
التي نفرضها والسلع التي نختارها دون غيرها. أمّا بعضهم الآخر
فلا يُضايقه سوى مُماطلة الصيادين في تسديد الضرائب والجبایة
التي أقرّها البشا، فيتناقلون من حين إلى حين الأخبار عن حسابات
مغشوّشة تم تقديمها إلى رجال الباي.

كِدَّتْ أُجنّ، أسرج الجنود بعض القناديل. شعرت بالخوف،
قد يسحقون الحياة التي بثّها الرّب بين ضلوعي، قد أقعُ في الأسر،
وقد أهلكُ بسبب الجُوع أو الطّاعون. نظرتُ حولي، لم يعُدْ في
الحاميّة مكانٌ آمنٌ، وقد كانت مدينة فرنسيّة جميلة. صرخُ رحبُّ
شيدهُ أكثر البناءين مهارةً. أتقنوا داخلها كلّ شيء، الوكالة، المخازن،
ورش إصلاح السّفن، الثكنات، منازل الصيادين والجنود، المسرح،
السجن، المستشفى والكنيسة ذات الأبهة. تخلّلها الحدائق والرّدّهات
والنوافير والأشجار ومدافع لصد هجمات الإسبانيين وسائر الأمم.
على مقربيّ منها أربعة مطاحن أقيمت على الرّوايي المحيطة، توفر
الدقيق للتجّار والرعايا.

أغلقتُ عيني ثم فتحتها بسرعة، قد يخترق رمحُ قادم جسدي
وقد أظلّ حيّا فأقع في الأسر. نابليون، يا نابليون، من مِنَا قد يظلّ
حيّا فيخبرك بأنّ الحاميّة صارت أصغر بكثير وقد تکالب علينا البربر
والإنجليز، وأنّنا تحولنا من أسيادٍ إلى سجناء مذعورين يدفن بعضهم
بعضًا في خراب أسوارها؟

قبل أشهر، نجوتُ بعدها شنوا عدداً من الغارات. ككل مرّة كانوا يقتلون ويُقتلون. يأسرون ويقعون في الأسر. احتفظتُ يومها بملابس أحدهم وأنا أحزّ عنقه، أطلق خواره عارياً بينما ارتديتها ولذت بالفرار. قتلنا الكثير أما الذين بقوا أحياء فطالبوالباشا بمراجعة بنود المعاهدة التي لم تكن تُقرّ لنا بإنشاء حامية ونشر الجنود والمدافع على طول الحصن. احتجّ القنصل بحمايتنا من أعدائنا. عظمُ الخلاف ومضت الأيام، تزايدت الضغائن والأحقاد، بعدها علمتُ أنَّ البربرِي الذي حرثُه كان من الوجهاء. رجل يمتلك السلطة وعدداً من اليساتين وبنديةًّا إنجليزية مُتهالكة.

انسحب عشرة حوذين بعربات تُزيّن المدخل. على الأرض سقطت قلنسواث حمراء كان بعضهم يرتدّها احتفاءً بالحرية بعد قيام الجمهورية. كلّ هؤلاء الرجال الذين يساندون نابليون سيعيشون وإن ماتوا وكل الذين يخذلونه سيموتون وإن ظلّوا أحياء!

أخذ الجنود يصفّون صناديق المرجان والقمح والجلود كانت مهياً للشحن، ثم يُقلّبون القوارب وراء المداخل كدروع. ظلت الوجوه مطرقةً بعدما احتمى البعض بالكنيسة. مُتشبّسين بالملابس الكنيسية للكهنة، يرثّلون في صمت صلوات النّجاة.

خارجاً، في المقدمة اصطفَ للحراسة جنود ببِرَّة صنعت من لوني الأزرق والأحمر، تعبُّ نظراتهم الخاطفة محيط الميناء، المدينة، الحقول والغابات متربّين الخطر، متظارين رسول القنصل أو الباشا. لم يكن في الحامية من المتعِّ والزاد والذّيرة والقوارب سوى القليل. الحكومة خاوية الوفاض، ترى ولا تتدخل، خارجةٌ لتوّها من

إعلان الإفلاس، أما الجيش فقد نابليون نحو مصر، ما أثار المزيد من الغضب هنا.

جمعنا الهلع، عظم الظّلام، فقط خيوط ضوء ترسلها القناديل القليلة. لاح الرّعايا المحشدون كجثث ما زال في صدرها ما يتخبّط. وضعتُ معطفاً على الأرض وجلستُ في الزّاوية. بكى صياد مرجان، خارت قواه فسقط على كتفي، ألقيته جانباً على الجدار. تصلّبت أطرافي وعجزت عن التفكير. أخذت قارورة فارغة للعبث، أدرتها، انتظرت أن أرى في أي اتجاه ستشير فوهتها. قبل أيام كنتُ أدير القارورة بين أصدقائي ليعرفوا أو يفشوا أسرار بعضهم أو يسردوا قصصاً قديمةً عن القالة، عن التجار، عن خبايا الوكالة الإفريقية. لكنّها اليوم تدور وتدور ثم تتوقف موجّهةً فوهتها إلى الحائط. هي الأخرى صارت تعلم أنني رجلٌ وحيدٌ قد يفصلون رأسه عن عنقه في آية لحظة. لم يسبق وأن شعرت بذلك فالفرنسيون في كل مكان، يزداد عددنا بعد كل معايدة أو صلح.

كم اختلف حالنا، قبل أشهر فقط نعمنا بالسلم. أرسل العثمانيون فرماناً إلى مصطفى باشا الذي استلم قفطان الباشوية. كان الرجل خزناجيّاً ثم خلف حسان باشا. وتقلّد نابليون الحكم في العام ذاته. قبل أسبوع فقط شرع العثمانيون في إعداد الجيوش لطرد بونبارت من الشرق بتحريضٍ من الإنجليز. أخذت الجماهير القادمة من القبائل والعروش خفيّةً في إنشاء معسكرات قريبة للمتطوعين، انتظاراً الأوامر تحول أولئك الفلاحون إلى جنود بعد تسليحهم وتنظيمهم في فرق مع جند الإنكشارية قبل أن يُساقوا نحو السفن الحربية. يدركون أن

الحامية صارت أشدّ مراساً وأكثر بأساً لذا طالما حاولوا كسر شوكتها.
اليوم صخور الوادي تعج بالرجال والزاحفين.

ضغطت على قبضة يدي حسراً وأنا أتذكر كيف أدارت الوكالة
الحامية لسنوات طويلة. جلبت الصيادين ونظمت الصيد بينهم.
تفرض الضرائب وتجمع الأموال وتنشر الجند للحماية، دون أن
تمنح خزينة الجزائر سوى الشيء اليسير من الربح الكبير الذي تضع
يدها عليه. دقت ساعة منتصف الليل وسط أصوات تهمهم:

- فلنخفِ الأموال في المكان الذي نطرح فيه القمامات عادةً،
هكذا لن يعثروا عليها.

- هل سنجد المؤونة الكافية؟ هل سيعقون علينا أحياً لأسابيع؟
انطفأ السراج، فتحت عيني على وُسعهما، فتحتَهُمَا مرّةً، مرتينٍ،
فتحتَهُمَا جيداً ولا شيء عدا الظلام الدامس وصوت داخليٍّ بغىض
يُنادي: الهلاك، الهلاك. أيعقل أن تكون نهايتي قد أزفت؟

النقيب إيفر

بعدما سكن الليل، ظلّ النقيب إيفر على مرمى بصري صامتاً لا
يبح لنا بشيءٍ ككل الضباط والعسكريين. يحول مثل ديك فرنسي،
يتسلّل بين القاعات والمخازن والأبراج. أمراً الجند، ممنيًّا نفسه بخدمة
العالقين. شدّ لجام حصانه فأبطأ.

- إياكم أن تطلقوا أيّة رصاصة في الهواء.

نزل عن حصانه قائلاً:

- اعلفوا الجياد جيداً.

توقف رنين حذائه وارتفاع صوته. دخل القاعة وقلب نظره في وجوهنا ثم أمر بسحب الذخيرة والبنادق من الجميع ليتمكن حاكم الحامية من فرض القانون والنظام. ربط حاجبيه الكثيفين بعدما قاوم المترفون رغبةً في الاحتفاظ ببنادقهم الثمينة وسيوفهم. هزَّ رأسه الذي غزاه البياض، كرر الأمر، شبك يديه على صدره، معتدلاً بنفسه، ثم غادرنا مطرقاً وخلفه أربعةٌ من الحراس يرفعون أقدامهم ويضعونها في وقت واحد، مثنى مثنى. ابتسם وهو مارُّ بين النساء والأطفال كمن يستيقن صراخهم. كان بعضهم عاريًا بلا سراويل، انبعثت رائحةً عطنة وقد تبرّز بعضهم على نفسه وتبول خوفاً. أمر لهم بالماء الساخن والصابون وببعض الخبز والبيض المسلوق ثم غاب.

وصلتني أحاديثُ خافتة دارت بين عمال شحذ. أطلق صاحب الشعر الكتاني صيحة: سقطت القالة، سقطت القالة! بصوتٍ خفيض يُردد كمن يتحبب. ستسقط القالة التي لم يكن يسمع عنها أحد قبل أن ندخلها نحن الفرنسيون ونبني ميناءها الكبير. لن يستعيدها البرابرة الذين كانوا يقطنون هنا؛ فهم لا يعرفون كيف يستخرجون المرجان، يجهلون فنون الملاحة وصناعة السُفن الجيدة وشؤون التجارة، كما يجهلون الشمال. يرثون بالقليل من المحاصيل والأراضي والمياه والثروة، لا يعرفون سوى طريق واحدة تقودهم إلى قسنطينة أو إلى العج.

رويداً رويداً انغلقت علينا أبواب السجن الكبير؛ فخيم الأسى. تحدّث رجال لا يُعرفون: - إنه التقى إيفر، المشهور بأنفه الروماني.

مرّت ساعات من الانتظار، حصلتُ على بعض النبيذ لأهداه.
اقرب شروق يوم جديد، غادرتُ بخفة نحو غرفة العبيد ثم حجرة
الأسرى المحررين.

شعرتُ برغبة جارفة وقد استيقظت شهوتي. طفت باحثاً عن
اللذة لأطرد الشعور بالموت. على ضوء قنديل خافت لمحت صبيحة
إيطالية أغوتني نظراتها. كانت نصف نائمة بين النساء ثم استوت
جالسة تنظر صوبي. أرسلت شعرها وقامت نحو الحارس تسأله شربة
ماء، اقتربتُ لأدّلها، قدمتها إلى غرب السجن، حيث توجد غرفة سرية
للإعدام، لا يكاد يعرفها أحد.

دفعت باباً حديديّاً ثقيلاً نصف دائري، وضعت يدي على
خصرها، أبعدتها عن سلاسل حديدية مثبتة إلى حجر الجدار،
وهبّتها بالأخرى صرة من النقود تكفيها للإبحار، دستها بين نهديها،
وشكرتُ الرب. أسدّتها إلى دعامة خشبية كبيرة ترتفع عالياً نحو
السقف، متجنباً للجدران الحجرية الباردة، على عجل تخلصت من
نصف ثيابي، مررت يدي على بطئها التاعم، قبلت سُرّتها وأدرّتها،
تمسّحت بظهرها العاري كمن يتظاهر أو يطلب المغفرة، تلمّستُ
جدائلها المنفلته حُصلاً خصلاً، ثم أطفأتُ جذوتي، ارتخى جسدي
وهويتُ. بينما أغادرها سألتها:

- ما اسمك؟

- مونكا.

بحنوّ وأنا أمسّد شعرها مثل قطة نعسي قلتُ:
- أنت امرأة جميلة يا مونكا.

كم أحبّ منح جسدي للنساء الجميلات. لم أنمّه يوماً لنساء
القالة، كنت أزدريهنَّ وما زلت أمقتهنَّ.

غبتُ مبعداً، عرجتُ بخفة على متولي القديم، أحرقت بذلتي
الرسمية وكل أوراقي، أقيت قبة الضباط، ثم ارتديتُ سروالاً
وصدرية للبسنة. نزلت الأدراج، سرت خطوات أخرى، قطعت
الممرّات العجائبية المبلطة. تجنبت عبور الساحات المكشوفة، التفتُّ
إلى الخلف، ثم ولجتُ القاعة الشرفية للحفلات، حيث احتشد جزءٌ
من الرعاعيا كالخراف مذعورين.

كان الوقت قد أعلن عن بداية يوم آخر. سمعتُ رجلين خلد
أحدهما إلى النوم بينما ظلّ الآخر يحادث نفسه: سيطالبون بونبارت
بتسديد ديوننا أيضاً، يبدو أنّ أيام السلم انقضت بذهاب حسن
خزناجي، جاء مصطفى باشا، لا أحد يدرى ما قد يخفى هذا الرجل
البغض!

ثم تکور كجرذ ونام.

كان القنصل وحده يعلم ما لحق بجيشنا بما يرده من أنباء. ماذا
سيحلّ بنا؟ لا أحد يدرى. لكن لا أظن أن الباشا سيعلن الحرب؛ فقد
أصبح السلطان العثماني يترك الجزائر ولا ينجدها. هوجمت مرات
عدة دون أن يصلها المدد. أما ما يزيد من هلع الصيادين الكورسيكين
أنهم من كورسيكا التي جاء منها نابليون، يُدركون أنّ الحرب التي قد
تشتب إن لم تجعلهم في فوهات الموت ستجعلهم يُغادرون إلى غير
رجعة.

مراقب الباي واللورد الإنجليزي

من أعلى الحامية كنتُ أرى الساحل المليء بالمرجان وبحيرات
القالة الأربع، وأفقاً من البساتين وكأنها حدائق إنجليزية. مدرجاتٌ
من الحقول الذهبية الفسيحة العجيبة الخصبة ربيعاً، مرصوصٌ فيها
حُزم القمح والشعير والغلال الوفيرة. رأيتُ المراعي والجداول
الفضية المتعرجة والطيور والمواشي وقمم تلالها البهيجه المبتعدة
مع خط الأفق.

كانت الحامية تتوسط ثلاثة دروب كبرى، دربُ الميناء ودربُ
يقود نحو إبالة تونس ودربُ يصلها بمدن المرجان الأخرى قبل أن
يتنهى إلى دار السلطان. يسمّيها الأهالي بمرسى الخرز، بينما نناديها
(الاكال) وقد كانت أول خليج ترسو فيه بواخرنا. يعتقدون أن المرجان
مفيدة للحسد ويجلب الحظ بينما ندرك أنه يجلب الثروة ويعنّي معامل
مارسيليا وتجارتنا مع الهند والصين، ضحكتُ في سري.

مثل الجنود لم يطرف لي جفنٌ. شرعتُ في رسم الكنيسة بمحاذاة
المبني الكبيرة للشركة، ومنازل التجار التي تفصلها لفائف الشجر
عن منازل الصيادين وبيوت البائين وثكنات الجنود ومخازن السلع.
أضفتُ ورشات إصلاح السفن وبيت الطبيب والمهندس وغرفة
المسرح الجديدة، مفصولةً عن بعضها البعض. لم أكمل اللوحة،
سقطت الريشة وغفوتُ.

حين أشرقت الشمس، عقد حاكم الحامية اجتماعاً مع ضباط
البحرية والمدفعية والجيش. عمر كلّ رجل ريشته في محبرته وشرع
يكتب اقتراحاته. حين فرغ الحاكم من اجتماعه زار المستشفى. دخل

وهو يشعل غليونه، محاولاً إخفاء توته. أدى له الجميع التحية؛ سأله الطبيب بيرتران:

- كم مرضاً لدينا؟
- سبعةٌ وثلاثون يا سيدي؛ أربعةٌ منهم يحتضرون.
- كم زجاجة دواء نملك؟
- ستة زجاجة حديثة.

ارتفع من بعيد صوت جندي يصيح:

- ما لهؤلاء لا ينظرون جيداً قبل إقفال البوابات. المُراقبُ هنا محتجزٌ معنا!

التفتُّ الحاكم مندهشاً وهو يرى الجندي يقتاد المراقب الذي عيشه البالي لمتابعة شحن المرجان والحبوب وسائر السلع.

- ضعوه في جناح النبلاء وأحسنوا ضيافته.

صاح آخر كان أصغر الجنود سنًا:

- أحد فلاحي الأودية هنا أيضاً.

كان الرجل طويلاً القامة قمحياً اللون، بعينين مستديرتين سوداويتين، ذات تقاطيع وجه صارمة؛ يسند إلى صدره وتتدلى من الخشب وكأنه بندقية.

استدعيَّ الحاكم رحاله يدعى بالانتشار يجيد اللغات الشرقية. رجلٌ واسع المعرفة بأراضي إفريقيا. كان مرشدًا لصهر الفنصل ومترجمًا لعدد من الدبلوماسيين. تقدم بلباس يشبه لباس الرهبان. بدا وجهه أكثر امتلاء، بينما حمل ذقنه كتلة من اللحم المتدلّي. لقد تغيّر منذ آخر مرّة رأيته فيها. صار لونه الزاهي أكثر سمرة بدرجتين.

طلب منه الحاكم أن يسأل الفلاح عما يفعله في الميناء وكيف دخل دون تصريح؟ صمت الرجل ثم ردّ بحدّة:

- أتراكم لم تُحكموا إغلاقَ البوابات والمنافذ، بوابات ومنافذ مدّيتنا نحن! (وبنادق الجنود تطوقه أضاف) طردن الإسبان من وهران قبل سبع سنوات، بالأمس فقط فعلنا ذلك وسنطردكم أنتم اليوم.

تحت وطأة الغضب ردّ الحاكم متأنّراً بعدما بلغته ترجمة

الرّحالة:

- تنصبون الكمائن وتقتلون الفرنسيين التجار، تنكثون العهود ولا تُحاريوننا!

- لا أنصب الكمائن إلا للعسّ والعيون كلّما ابتعدوا عن القالة وعنابة. تنهبونا هنا وتحيّتون الفُرص لغزونا هناك.

انتصب أمام ناظريه جندي يصوّب بندقية نحو رأسه العاري.

صاحب الحاكم:

- ضعوهما في مأمن من الخطر، فالمعركة باتت قريبة!

- لكن يا سيدي لا بدّ من أنه قد قتل حارساً من حراسنا!

انتفض الفلاح شاكّاً بعينيه المعصوبتين بشدة:

- بوعي أن أسلّل دون أن أصيب أحداً بالأذى. أعرف أرض القالة جيداً يا هذا، كما أعرف أسواركم المتهدّمة..

- اجعله يغرب عن وجهي، اقطعْ لسانه لنُبقيه حيّاً!

قادهما الجندي بخطى سريعة نحو مكان آخر. سار الفلاح وهو يرطن بالفرنسية؛ يصبح:

- قمت شيئاً فشيئاً بمنعنا من دخول القالة إلا نهاراً. أحصل على

تصريح لأدخل سوق الميناء كل مرّة لأبتاع شيئاً من الأثواب والتوابل والسكر، بينما تجوبون مثلكم سائر البوادي والمدن والقرى. منذ حصولكم على الامتيازات اللعينة وأنتم تعتبرون الموانئ ملكاً لكم، لا يحق لغيركم أن يتاجروا فيها. ما عاد تاجر منّا يدخل الميناء خوفاً من أن يعرض نفسه وما يملك للمصادرة والضياع. أيّ تجارة هذه! انطلق اللّعنة في القاعة. أرسل الجندي سوطه مرّة، مرتين على ظهره العاري رغبة في أن يلقى به راكعاً تحت قدميه. لم يسقط سوى جرابه الذي كان يحمل فيه قطعة من خبز الشعير الأسود. انهالت الشتائم عليه، ضجّ المكان؛ تبادل الجنود الحديث:

- مُنْزَمْتُونْ أَجْلَافْ! قد يكون لصاً أو عيناً من عيون الإنجليز.
- وقد يكون أحد الأسرى الذين حرّرهم نابليون قبل سنة عندما فتح مالطا. ألم يطلق سراح الجزائريين الذين كانوا مستعبدين هناك مقابل أن يطلق العثمانيون سراح الفرنسيين؟ ليته ما فعل، ليته ما فعل! لم يُثر صمود الفلاح تعجب بلانتشار. همس للحاكم بينما أغلق عينيه برهةً قائلًا:

- البربرة عبيدٌ سيتون، يتمرّدون كثيراً، يملكون طبائع فظّة، أكواخهم متّورة على أطراف المدينة، يعيشون في انعزال، لا يأتون إلى المدينة سوى أيام السوق كما لا يقصدون الميناء إلا في مواسم الحصاد ليعرضوا سلعتهم على تجارنا. لكن إحترسن، ألوف من الرجال قدّمتهم هذه القبائل والأعراس النائية لمحاربة الإسبانيين. رغم ذلك عليك أن تحدّthem من حين إلى حين بآلية العذراء والقديسين والكتاب المقدس!

أنصتَ ثم قال للملازم كلوبير:

- بعد استجوابه ضعه مع الأسرى الجدد.

كان الفلاح مثل أولئك الرجال الذين قتلوا جُنديين الشهر الماضي. اعتقلهم النقيب في انتظار الحصول على الديمة. كلهم يتلقّون المساعدات من الضباط الإنجليز، يعدونهم بالأسلحة والمال لمهاجمتنا لكن يتخلّون عنهم فور وقوعهم في الأسر.

- أجعل جميع الأسرى الجزائريين يحصلون على ملابس نظيفة وأحذية جيدة وطعام ساخن، هيا.

تحول الحاكم بنظره إلى الوراء. صاح جندي آخر من بعيد:

- في الميناء لورڈ إنجليزيٌّ و تاجران يهوديّان، في الميناء غرباء كثري يا سيدي !

لفت الجميع رؤوسهم نحوه، سأله النقيب التاجرين:

- من أين جئتما؟

- من قسنطينة.

أمر النقيب بإحضار السجل والممحرة.

كنت أؤمن أنه لزع الفرقة، على نابليون مصادقة اليهود هنا، وإن طار دناهم هناك، خاصةً أولئك الذين تخلى عن دينهم القديم وأثروا عليه الامتثال المسيحيّ، مثل صديقي الشاعر كوهين الذي جعلني أكتشف أن بعض اليهود لا يعدون كونهم يهوداً في نظر الآخرين لمجرد امتناعهم عن الذهاب إلى الكنيسة!

أمر الحاكم بحسن معاملة التاجرين بينما رمق اللورد بنظرة حذرة.

دار حول جسده المكبّل دورتين بيضاء، تأمله وقد خامره الريب، جازماً

آنه جاسوس كان يدبّر للاستيلاء على امتيازاتنا.

- بعدهما أشعل الإنجليز حرباً بين أوروبا وجمهوريتنا يُحاولون إيقاد حرب أخرى بيننا وبين حلفائنا وأصدقائنا في إفريقيا. ما زالوا يدفعون بنا إلى الهلاك منذ ثورتنا، مأخوذين بسطوتهم في صناعة الآلات وتسيد البحار والمحيطات.

أمر الحاكم باحتجاز اللورد في غرفة منفردة، ليتم استجوابه، ثم تتم بشفاه مزمومة: «قم بتبعة البنادق ولا تدع الإنجليزي يغدر بك».

آلـةـ الـخـيـاطـةـ العـجـيـبـةـ

أمر النقيب العريف فرنسوا بافراغ صناديق المرجان أرضاً ليصنعوا منها صندوقاً أكبر لوضع آلـةـ الـخـيـاطـةـ. ثم الحـرـثـ بالـمـعـوـلـ عميقاً لـحـمـاـيـتـهاـ منـ الدـمـارـ إـذـاـ ماـ تـعـرـضـتـ الـحـامـيـةـ لـنـيـرانـ المـدـافـعـ قبلـ أنـ يـتـمـ تـهـريـبـهاـ معـ زـوـجـةـ باـشـ المـكـاحـلـيـةـ الـجـديـدـةـ، إـيـزـاـيـلـ. ثمـ أمرـ جـنـوـدـاـ آـخـرـينـ بـجـمـعـ الـحـسـابـاتـ وإـضـرـامـ النـارـ فـيـ أـورـاقـهاـ حـتـىـ لـاتـقـعـ آـيـةـ وـثـيقـةـ فـيـ يـدـ الـيـوـلـداـشـ أوـ الـأـهـالـيـ.

- أحـرـقـ أـورـاقـ الـمـدـخـوـلـاتـ وـالـمـخـرـوجـاتـ، وـكـلـ ماـ يـتـعـلـقـ بشـؤـونـ التـجـارـةـ. أـرـيـدـهـاـ مـحـتـرـقـةـ كـلـهـاـ. ثـمـ الـقـمـحـ الـذـيـ تمـ شـرـاؤـهـ وـسـعـرـهـ وـالـمـبـالـغـ الـتـيـ تـلـقـاـهـاـ الـبـايـ، أـحـرـقـ الرـسـومـ الـتـيـ تـرـتـبـ عـلـىـ الصـوـفـ وـالـشـمـوـعـ وـالـفـوـلـ وـالـشـعـيرـ، وـالـمـصـارـيفـ الـتـيـ تـعـلـقـ بـالـمـؤـسـسـةـ الـفـرـنـسـيـةـ فـيـ الـقـلـ. أـحـرـقـ ثـمـ قـطـعـ الـحـدـيدـ فـيـ الـأـشـهـرـ الـأـخـيـرـ وـقـطـعـ غـيـارـ الـمـرـاكـبـ الصـغـيـرـةـ، وـالـمـرـاسـلـاتـ، الـمـرـاسـلـاتـ! أـحـرـقـ كـلـ شـيـءـ!

اتَّسعت عيناه الشبستان، لم تفارقه أنفته قط. أضاف دون أن ينقطع صوته بينما ينصرف الجنود واحداً تلو الآخر للتنفيذ:

- أعداد البنادق والمسدسات وكمية البارود الذي تمَّ بيعُه لبعض القبائل، هدايا الأعيان والخلفاء، أحرقها كُلُّها، ورقةً ورقةً، إنَّها أوامر الحاكم!

ثم أمر بإلقاء بقية الصناديق التي تحمل البنادق والذخيرة عميقاً في البحر.

قبل سنوات كثَّا بَيْعَ الأسلحة والذخائر للأفراد سَرَّاً. وكان تاجر الأسلحة جيرار من أهم الرجال الذين يستعين بهم الحاكم في تسليح القبائل ضدَّ بعضها لكسب حلفاء. حينها باع البنادق لفرق المقاتلين ضدَّ الإسبان وللصَّعاليك وقطاع الطرق الذين يدفعون بسخاء، ولرجال آخرين يذهبون بها إلى بلاد السودان وأراضي إفريقيا. كان بيع البنادق الفرنسية عملاً محفوفاً بالمخاطر وتجارة مربحة بالتساوي تتضاعف أرباحه أيام الحروب الداخلية والانتفاضات ضدَّ جامعي الضِّرائب واليولداش، وأيام مقتل البايات أو الباشا. شيئاً فشيئاً صارت القبائل والعروش عاجزة عن مقاومة تلك الأسلحة التي يتعاونها خفية، بعدما منع الباشا تسليح العامة خشية الفرقة والفتنة.

أنسَدَ جيرار رأسَه بإحدى يديه، ثم قام يروح ويجيء وهو منهكٌ محبطٌ، خَرَّ على ركبتيه كمفلسٍ:

- كيف تخلَّصَ من بنادقنا هكذا؟ إنَّها لتفوق على المصنوعة في تُقْرَتْ ووادي ميزاب بل وعلى بنادق كثير من بلاد أوروبا. فتُبَاع البندقية الفرنسية بشمن واحد وعشرين فرنكًا للواحدة!

أشار النقيب بأصابعه نحو صناديق البارود وأمر بحملها هي الأخرى. كان جيراري يبيع للقبائل البارود أيضاً، فالبارود الذي يوجد في غربى خنة سيدى ناجي وفي الزّيّان تقوم قبيلة أولاد نائل باستغلال مناجمه في وادي جدي ثم يُحمل إلى ورقلة حيث يُباع بأسعار مرتفعة لجودته. البارود الفرنسي أرخص ولا يتعرّض للضرائب والمراقبة بيعه المهرّبون سرّاً فيدرّ ذهباً.

حاول الرجل الاعتراض على إفراج صناديقه في البحر لكن النقيب سار نحوه دافعاً إياه بعنف قائلاً له: «مكانك أيّها التّعس، إنّ وجد رجال البابا شحنة البنادق التي تمّ إدخالها إلى الميناء بتواطؤ سري ستختسر القبائل باعث طلقات واحد، ولن يكون بمقدور القنصل أن يقول إلا (هل من حيّ هنا؟!). هذه ليست إحدى صفقاتك التجارية إنّها صفقتك الأخيرة مع الحياة. (والتّفت نحوها) لقد حان الوقت لتعلموا أنّ الباشا سيعلن الحرب ولا توجد في الميناء سوى باخرة واحدة، قد يوجه الريّاس إلينا ضربة قاضية بالهجوم عليها، عندها سخسراها. لا نملك المال الكافي لاستئجار سفن تقلّنا جميعاً، إنّها معركة كبيرة تلك التي بدأت وسيكون فيها خلقٌ كثير من كل الأمم، في مصر وهنا وفي إفريقيا وبحارها. لقد أقسمت على الدفاع عن فرنسا وكل أراضيها. أعلم أنّ هذه المؤسسات بناها أجدادنا بسواعدهم وامتلكوها لسنوات طويلة. هذه الحامية وذلك الميناء أراضٍ فرنسية نعم، مهمتنا الدفاع عنها نعم، لكن قد نفعل ذلك بالحرب أو بالحنكة والحكمة، لذا علينا أن نلزم السّلم حتى لا تُثير عداوتهم أكثر. لدينا الكثير من الفرق والقوات التي تتمرّكز هنا وفي عتابة وميناء ستوره

والقل، لدينا حصونٌ ومدافعٌ وذخيرةٌ وحلفاء، لكننا نشكل أكثر من فرقة صغيرة مقارنةً بما تملكه الجزائر من قوّة في الخارج». لاذ الجميع بالصمت حين بدا رأيه وجيهًا. ازداد وجهه تجھما، عاد إلى الإشارة بيد واحدة ليحمل الجنود حمولة البنادق إلى الشاطئ حيث يتم إغراقها والتخلص منها. ثم أعطى ملازمًا فرقة من المُشاة وأمره أن يذهب بها نحو الباخرة الرّاسية منذ أيام قليلة، ليتفقدوا سفن الرئيس على منحى الطريق البحري الشرقي، عليهم يكتشفون أثرًا للأعداء. بحركة من يده أمرهم بإلقاء السلاح، حتى لا تتشبّ معركة يخسرونها. أمرنا بالبقاء في أماكننا، ثم ذهب لتفقد الصناع الذين شرعوا في صنع صندوق يحمل آلة الخياطة العجيبة.

إيزايل

أنزلنا الألوية والرّايات المرفرفة فوق الأسوار. أغلقنا الأبواب الجانبية بالحجارة والطوب. رفعنا الأسوار هنا وهناك، بينما كانت إيزايل وعددٌ من المتدينين يقدّمون فروض الطاعة أمام صورة للعذراء. جذبتها:

- من حسن حظنا أنا وصلنا قبل أيام وغادرنا دار السلطان بعدما عُقد قرانكِ وباش المكافحة.
- جئنا لأخذ آلة الخياطة دون أن ندري بأنّ الحرب ستقع، الويل!
- لقد اختارك الجنرال للمهمة ولا رجعة!
- وال Herb!
- هم لا يقتلون المسيحيات اللواتي يتزوّجن من رجال مسلمين.

قد يطرد الباشا القنصل وحاكم الحامية ثم يرسل أسطوله إلى مصر وقد لا يفعل. ستنتقل الأمور بيننا من حال إلى حال، وتقلب من عداوة إلى صلح وسلم فلا تبعي. أكتبي لي الأخبار. سأغيب عنك ما شاءت لي الحرب من وقت. تذكري القائد العظيم نابليون وهو يوجه كلماته إلى الجماهير. تخيلي أن يشيد بما نبذله الآن، عكس العاديين نحن محمّلون بالواجب. لا تخافي، كما نجوت من القحط، من الجوع، من الهمي والطاعون هناك، سنجين من هؤلاء الشياطين هنا. أنت في حفظ رب مُد احتارك. ثم تذكري أنك تزوجت سيداً عثمانياً لا عبداً، غنيّ لا فقير. ستعود إلى القالة أسرع مما يحسبون، لكنه الآن وقت عسرٌ سيمضي.

أخذت تطيل النظر في ذقي الحليقة وشاربي الكث المدهون. اختفى عنجها ومرحها، قل طعامها وكلامها. تناولت الصليب الذي طوقت به عنقها، لثمتها، غرسته أسفل نحرها؛ ارتعشت يداها وتباطأت خطاهما، شقت شفتتها لتقول شيئاً ثم عدلت عنه.

- ليست فرنسا أحسن حالاً يا إيزابيل، أسواؤنا بلا سلع كثيرة، جيشتنا في صحراء مصر، المخازن تفرغها الحرب، والمحاصيل هنا لا ندرى متى قد تحملها السفن إلينا. إن خفت من المهمة ستنهلكين بالعار قبل أن تهلكي في السجن.

حدّقت ملياً إليّ، ألقت بين يديّ كيساً من الفرنكات، طلبت أن أوصله إلى والدتها مع رسالة. سحبّتها بين ذراعيّ، قبل أن أفلتها وأغادر قلتُ: «لا تجعلني جذوته تنطفئ!»

صياد مرجانٍ عجوز

حلّ سكون النهايات، تغيرت القالة التي عهدتُ. قسم الحاكم الرّعایا؛ أرسل النبلاء رُفقة رجال القانون والمحامين والمهندسين إلى مقر الشركة حيث مجلس المديرين. وجمع التجار والصيادين والعمال والملّاحين في الكنيسة. أرسل العبيد الأفارقة المسؤولين عن تحويل البضائع والتجذيف إلى السجن وأخضعهم للحراسة خشية تمردّهم.

رفع التجار قبعاتهم وأسندوا ظهورهم إلى الجدران بينما نرفع أيدينا لأخذ وجبة المساء. في صمت نصت إلى وقع خطوات الجنود بينما. نام بعضنا على أكتاف بعض جالسين. رفقة ثلاثة من الرجال تسأله جيرار وقد شقَّ السكون:

- بونبارت، أتراه أخطأ بمعادرته فرنسا؟ هل سيفلح في الاحتفاظ بممرات آمنة، حتماً سيهرع الإنجلiz لتشكيل جبهة من الحلفاء.

تمتم مساعدته:

- تخلى عنّا وكأننا نوابُ مهرطقون أو وطنيون كذبةُ أو فرنسيون من آل بوربون!

عم السكون والبرد المكان وكأنّا مجرد جنود عزل يسرون إلى حتفهم أو موته على أرض معركة حول العرق والخوف والغبار ملابسهم الأنثقة إلى خرق بالية.

تعلقت عيوننا بالسقف؛ امتنع صيادٌ عن الطعام، ظلّ جالساً على حافة كرسي عند أقرب موضع من الكاهن. راح الجميع يحدّق في وجهه الكالح حين راح بصوت خافت يروي تحت وقع رعدة تحتاج

جسداً يحمل آثار العُجْدري. شبك ذراعيه على صدره، أخذ يهدي
كرجل محتضر أشعث اللحية:

- قبل أن يُصاب جدي بالرّحار ويموت في العاشر من شهر فانديمير من العام السادس للثورة، كان طوال أربعين سنة صياد مرجان لا شيء يُقلق راحته. رجلٌ مقدامٌ يصنع بيديه أدلة الصيد، يضمّ صليباً خشبياً مُغطى بالحبار، يشدّ إلى وسطه حجراً وزنه ستون رطلاً يساعد في إزالة الآلة إلى قعر البحر. في كل جهة من جهات الصليب يُثبت شبكةً متينةً لحمل المرجان العالق. يركب السفينة رفقة رئيس بلدي فاحش الشَّراء، شديد القبح. الرّبان وخمسة ملاحين يشروعون في نشر المصائد. من المرجان ما كان يُوجَد على عمق خمسة وعشرين قدماً ومنه ما يُوجَد على عمق مئتي قدم. وقد كان أكثر جودةً من مرجان ساحلنا الجنوبيّ وجزر سردينيا وصقلية. في البدء كانوا يصطادونه بين عنابة والقالة ثم بجاية. حرست الشركة الملكية على إبقاء عددهم قليلاً ليتحكموا في الضرائب والأرباح. حرصن جدي أن يورثني أدوات الصيد وقاربه. كان يخشى أن يكون قد أرسلني إلى الموت المحتم، فالبرأبة في هذه المدن الباذخة لا يعلمون أنّ غصن المرجان الحي تجمّع لحيوانات بحرية متّحدة فيما بينها ملتّحة، هذا ما يقوله السيد توماس.

- من؟ من؟

كان توماس أستاداً في المدرسة العليا، وعالم طبيعة؛ كلفه نابليون بإجراء أبحاث حول المرجان الذي تحوله معامل مارسيلية إلى حلبي تفوق قيمته الأحجار الكريمة. هناك يُنظفونه ثم يُقطّعونه، يضعون

الثقوب بحرفية حتى لا ينكسر، يُلمعونه ثم يشكلون قطعة الحلبي.
كما يُرصّعون السّيوف والتحف التي تُحمل مع هدايا الجمهورية إلى
الباشا ورجاله.

وأصل الصياد السرد وكأنه يحضر:

- من حين إلى حين كان جدي يطلق اللعنات والشتائم على هذه
الشركة التي جعلتهم كالجياد العمياء في الإسطبل، يتقاولون بينما
تحتكر الصيد على سواحل الشرق وتفرد بالربح. تستعمل خمسين
مركباً وتستخرج سنوياً ما بين مئة ومائة وعشرين صندوقاً، ترسلهم
إلى معامل مرسيليا التي تدفع كل عام مئتي ألف فرنك أجوراً العمالها.
تنهد الرجل، فرك يديه الفارغتين اللتين سطا التجار الكبار على
تعبهما. ثم واصل حديثه إلى نفسه كمجنون فأيقنت أنه هالك. اقترب
السيد بلانشار يُدون وكأنه ينقل شيئاً إلى كتاب ما. أخبرني البعض أنه
كان يعمل سراً كمحرر وكاتب لدى القنصلية. واصل الرجل يروي
مرة ويطيل الصمت أخرى:

- لقد ولّت تلك الأيام سريعاً، كان وزن صندوق المرجان متيني
رطلاً. يتذمّر مجلس الوكلاء تصدير ما يزيد عن تسعين قنطاراً كلّ سنة.
كيف نتخلّى عن القالة التي تمدّنا بأجود أنواع المرجان؟ أمضيت هنا
أكثر من نصف قرن، رفعت الشباك المُحمّلة، أشدّ مع الرجال مرة
مررتين؛ ثم تلقي بها على ظهر القارب. باكراً نأخذ في تقسيمه إلى
أصناف مع العمال بعد أن نعود به إلى الشاطئ. أرضّ معهم الذي
يتكون من أكبر الغصون؛ فيُباع بأثمان تراوح ما بين أربع وخمسين
فرنك للكيلو غرام الواحد، عندما تكون أغصانه قليلة الاعوجاج. أما

مرجان الصناديق الذي يشتمل على أغصان مُختلفة الحجم تُنظّفه ونبيعه بسرعٍ يتراوح بين خمسة وأربعين إلى سبعين فرنكًا للкиلو غرام الواحد. نقضي أيامًا أخرى في صفت المرجان الأسود ليستعمل كحلي للحداد. الجيد منه يساوي عشرين فرنكًا للкиلو غرام الواحد. ثم ننتقل في الأخير لرصف الميَّت أو المتعفن، تكون غصونه مُلتتصقة بالصخور مُغطاة بالحجارة. نبيع الكيلوغرام منه بسعر يتراوح ما بين خمسة وأربعين إلى خمسين فرنكًا. لقد مضت الأيام وارتفع ثمنه. تقطّنت في وقت متأخر إلى حيل السوق، فأخذتُ أعيد بيع مرجان الصناديق الذي أشتريه من الغواصين أو الأعيان وأبيعه في أعماق إفريقيا بأكثر من 28 فرنكًا للкиلوغرام الواحد بينما سعره بين أربعين وسبعين فرنكًا هاهاما.

توقفت عن الإصغاء وقد أقبل الطعام. لحم مدقوق وأرز بالخضار المشوية. جمیعنـا يدری أنه في البدء كان الصید لا يخضع إلى أي قانون أو معاهدة فقط يتطلّبـ الكثير من القوارب والشباك الجيدة. بعدما اكتشفنا هذه السواحل انضمـ الأوروبيون، ثم أبرمـ الـديوان أول اتفاقية تقيـدـ امتيازاتـنا. تجـددـتـ مراتـ قبلـ أن تـنشأـ الشـرـكـةـ الـمـلـكـيـةـ الإـفـرـيقـيـةـ. منذـ أكثرـ منـ نـصـفـ قـرنـ حـثـنـاـ الخـطـىـ،ـ فيـ وقتـ قـلـيلـ قـفـزـ رـأسـ مـالـناـ إلىـ ثـلـاثـةـ مـلاـيـنـ فـرـنـكـ.ـ تمـ إـنشـاءـ مـعـاـمـلـ فيـ مـارـسـيلـياـ لـصـقلـهـ وـصـنـاعـةـ الـخـيـطـ وـالـأـقـمـشـةـ الـصـوـفـيـةـ وـالـجـلـدـ وـالـشـمـوـعـ بـعـدـماـ صـارـتـ تـشـحنـ هـذـهـ السـلـعـ أـيـضـاـ،ـ فـاشـتـغلـ الـآـلـافـ مـنـ الـعـاطـلـينـ.ـ اـعـتـمـدـتـ بـعـدـهاـ الشـرـكـةـ عـلـىـ الصـيـدـ الـذـيـ سـدـ مـصـارـيفـ الـاعـتـنـاءـ وـالـأـجـورـ وـالـضـرـائـبـ وـالـهـدـاياـ وـأـربـاحـ الـمـسـاـهـمـينـ.ـ تـكـتـريـ القـوارـبـ لـلـإـيطـالـيـنـ وـالـإـسـبـانـ ثـمـ تـشـتـريـ

منهم المنتوج بالسعر الذي تفرضه وتوجهه إلى مصانع مارسيليا. قال الصياد وهو يسعل:

- لا يمكن إنهاء التجارة والسلم من أجل صحاري المماليك، نابليون يقود معاركه كحدث عهد بالجندي!

أخذ يهذي، خفض قبعته، بسط قدميه، اصفر جلده درجتين ثم تقىً دمًا. تسمّر الجميع مكانه، هرع جندي وحمله مثل كيس خيش فارغ جثة على كتف واحد. حرك موته بدايات جدال بين الصيادين.

انطلق صوتُ وسط فرقعة السلاح:

- اكتبوا رسائلكم الأخيرة، سيدُكُ البرابرة أسوارنا، إن لم يكن الليلة فغداً!

السيد بلانشار

ألقى الجنود العلف للجياد، حلبو الأبقار، وسقوا الشتلات. هرول آخرون في الاتجاهات. تهاوى الرحال على الأرض منهكاً كرجل تجاوز عقده الستين؛ متهمّكما أفضى إلىَ:

- أبحث عن رجل يجيد الكتابة باللاتينية وعن آخر ينجو ليحمل البريد! آه يا فيكتور، لن أستطيع النوم، إنها ليلة بلا غد. أتدرى؟ قبل اليوم طلب الجنرال تدوين كل ما يبلغني. وهبني محبرة وسراجا وسفينة، رُحت أدون رحلتي منذ خروج جدي مع المارسليين الذين عرفوا سواحل الشرق. كان رجلاً نبيلاً من أسرة عريقة انحدر منها أكثر من أميرال. بينما كانت جدته الأولى محظية للويس الرابع عشر، لم يُعرف لها اسم حقيقي. حين قدم إلى هنا لم يكن للحصون سوى

بضعة أبواب خشبية خشنة، ولم يكن بين المدن سوى طريق واحد محفوف بالمخاطر، تُسميه طريق المرجان. على الساحل لا شيء إلا أطلال موانئ رومانية. رُفقة التجار ينام على ألواح قاربه. ينحرسون بين أدواتهم ومتاعهم، لم يكن لديهم شيءٌ من هذا الفرش الوثير الموجود اليوم.

خفض صوته، انقض متسلّلاً؛ حرك ساقه ببطء وكأنها مكسورة أو مصابة بطلقات قديمة، ثم قال:

- إنك لترى رجلاً أنهكته رحلته بعدها كان ثوراً يجوب الجبال والفيافي ذهاباً وعدة، وإنني لأرى فيك رجلاً أميناً أضع في عهده لفائفَ ورثتها وأخرى دوّنت فيها حكاياتي.

ثم خفض صوته درجتين:

- أكلفك بتسليمها للجزر الـ... ما... ماديلان، فقد نال الزمان مني كما نالت الكتابة.

- وهل تعرفني سيد بلانشار!

- عرفتُ والدك أيام كان ملازمًا في البحرية فكيف لا أعرفك!

ثم عانقني، وكأنه يتَّسَم رائحة ابن له، وعاد للسرد:

- مضت سنون طوال كانوا يطمرون فيها الطعام ويسلدون عليه التراب لحمايته، يملؤون جرابهم بالأعشاب وزجاجات الدّواء، بينما نملك اليوم مخازنَ للطعام والحبوب وغرفًا للنساء هاهاما. ثمة مستشفى، عشرات الأسرّة، غرفٌ للجنود، أشرطة أزهار، وأشجار وفيرة. لسنوات ظل الصيد حراً يا بُني إلى أن وقع السيد سامصون على أول معاهدة. أملك نسخة عن نصها، انظر.

تطلّع بين الرّفوق التي يحملها، وقرأ: إننا - أي الديوان - نمنّع الحصن في القالة وعنابة للفرنسيين مقابل ألف فرنك تُدفع سنويًا. وجاء للخدمات التي قدمها سامصون فإنه يكون قائداً للمؤسّسات ولا يمكن تبديله. عند الوفاة يستطيع الملك تعين شخص آخر مكانه. تستطيع السفن الفرنسية التّنقل على الساحل المذكور، تبيع وتشرى دون أن تسمح لمراكب أجنبية مهما كان نوعها أن تدخل دون إذن مكتوب سلّمه لها السيد سامصون.

أعاد النّص بين الرّفوق، تحسّر:

- عندما تم تجديد المعاهدة لم تولد أنتَ بعد هاهاها، كانت أحوال بلادنا قد تغيّرت، ارتفعت الأسعار وقلّت المحاصيل. تسرّر جدي مكانه عندما بلغه النّبأ. لقد تقرّر أن ندفع زيادة على المبلغ الوارد. لم تتغيّر عزيمته، أوصى جدتي على أطفاله، باع بندقية والده ثم أبحر نحو لِاكَال وقد دهم الافتتان قلبه. واصل رحلته وحيداً رغم شغفه الكبير بالنساء. بعد وصوله كان يُساوم على ثمن الموساشي، يتجوّل في الأسواق، يقود حصانه دون أن يعترض أحدٌ سبيله. كم كانوا أشداء يا فيكتور! لم يكونوا يسمحون لأيّ مركب أجنبي حتى لو كان مسلماً أن يشحن قمحًا وشعيرًا أو فولًا أو غير ذلك، في عنابة وفي سائر الموانئ التي تشملها الامتيازات. كلّما زارنا تقاوّز بين الصّفوف وصاح عاليًا يدعى رجال البلدة للذهب معه متباھيًا بما وقعت عليه عيناه هنا. كلّما وصله قريبُ أقام الولائم بذبح خنزير وثورين أسودين وأطعم جميع الصياديّن. «نشوة أن تطا قدماك أرضًا جديدة تُفوق لذة أن تطا امرأة جديدة، هاهاها» هكذا يقول مُقهّها. الأهالي المُعادون للإسبان ظلّوا

يُفندون غارات على مخيّماتهم إلى أن ارتفعت حولهم هذه الأسوار لحمايتهم بعدهما أسسنا الشركة الملكية الإفريقية المدهشة التي دامت ثلاثة وخمسين سنة مُزدهرة قبل أن تنهار منذ خمس سنوات ويتم استبدالها بالوكالة الإفريقية التي أغلقت هذه الحرب أبوابها !

قطع حديثه بعدما تقدّم أربعة جنود يبحثون عن رجال للتجنيد، ثار فضولي فرحتُ أصفي وقد ابتعدوا.

- كنت في الرابعة عشر يا فيكتور، لا أجيد سوى الركض بين المجدفين عندما نشأت الشركة. استقدمت إلى القالة ثلاثة فرنسي جنوببي ما بين ضابط وجندي وعامل. أخذ جدي بيدي بعدما لبسنا كالمحليين. شرعنا نطوف في أسواق تعج بالتجار، من إيطاليا ومالطا وإسبانيا وإفريقيا. كنت مجرد صبي يحمل سلة يبيعها للصيادين، ثم قوارير الحليب. أشرف على الشركة مجلسٌ أعلى، ينوب عن رئيسه موظfan من الغرفة التجارية بمرسيليا، نادرًا ما كنت أرى واحداً منهم وإن صادفته كان خادمه يشتري مني سلة البيض كلّها مرّة واحدة، يدفع لي ثمنها، ثم يُقيها لي ويمضي. ربحتُ الكثير ببيع السلة ذاتها مرتين. لكن كلما نظرتُ إلى البحر، ألهمتني رغبة ركوب القوارب، شيئاً فشيئاً عملتُ كصياد مرجان بينما وضعت الشركة الصيد بين أيدي الكوريكيين وبحارة مقاطعة البروفانس شرط ألا تتجاوز سُفنهم الخمسين، يركب الواحدة من عشر إلى اثنى عشر رجلاً، وأن يتقاضاوا ثمناً محدداً عن الرّطل الواحد. مرت السنوات بدأت تجارة الحبوب حيث شرع الوكلاء يشترونها، من منزلي اللصيق بالميناء أرى وُفود الصيادين والتجار القادمين من مارسيليا طيلة العام. من

حين إلى حين يجلبون الوباء فيموت الكثير بأمراض السفر. يخضع الآخرون للعلاج، يتناولون فواكه القالة وخضرواتها، يتغذون على دقيقها الأبيض والحليب وجبن الماعز ولحم الأبقار والقديد المُملح والحريرة وزيت الزيتون والتين المُجفف، فيتعافي أغلبهم. حين هدأ الوباء راحت المدينة تستعد لإبرام مُعاهدات أخرى مع حكومتنا. حدد البشا كمية البضائع التي يشترونها بينما حدد باي قسنطينة الأسعار. احتمنا بالأعيان، ازدادت قوافل التجار الذاهبة إلى الميناء وبضائعهم. بدأت الشركة تُقدم الخدمات إلى الباي، ترسل له طيبينا الخاص ليصلاح معدته وما لحق به من مشقات الحج، كما ترسل المترجمين والبنائين. لم تكن لي رغبة في تجارة المرجان أو البنادق بينما سكتني صبوة دائمة إلى الترحال رُفة القوافل الجائلة. حين اشتَد عودي صحبَّ التجار لبيع المنتجات الأوروبيَّة في أعماق إفريقيا فبارك الحاكم والكافن رحلتي، بعدها تم ابتعاثي للعمل في القنصلية مثلَّك هاهاما. تعلَّمت اللغة، التسابيح، الصلاة والعظة. تعلَّمت الكثير لأنسل بينهم. أكُرْ بطنَ البغل بکعب قدمي، أهشَ الغنم بالعصا، أغسل الملابس في الوديان، أطهو في أفران الطين، أصنع القديد والخليع، أجمع روث المواشي وقوتها للغد. أنام جالساً، أرفع الأسوار، أطليها بالطين، أصنع سقيقة من القصب، أحول مجاري قنوات المياه، أبيع وأشتري ثم أغادر. أدسَّ في جوف مخلاتي الرّقوق والرسائل، أبيت في طريق السفر، أبحث عن مداخل أخرى للمدن، أسير بمحاذة أسوارها، أتبين الشغور، أدخلها ثم أغادرها بخفة ولا أعود إليها إلَّا في العام التالي. بدأت رحلةَ كرَّة المسيح في أكثر من أرض، فصررتُ أجيد عدَّ العوام

والعائلات وعدد الجنود والقلاع والسفن. أدون حكايات الحروب بين القبائل والأعراس، أرافق العثمانيين الذين يقفون تارة مع القوي وتارة مع المغلوب فلا تنطفئ نار العداوة. يؤمنون أنّ الحرب عادة الأعراب والقبائل أما السلم فيقارب بينهم.

بقيتُ مُصغياً، وصيّته الغريبة صعقتني ووهبتني أمل النجاة بالتساوي.

- تلك قصتي فاحفظها إن هلكتُ.

- حفظُها عهدٌ لا غدر فيه، لكتني مثلَكَ قد أهلكُ!

- لن تَهْلِكَ، حديسي لا يخطئ.

لفت كيساً من الفرنكات في منديل أبيض ودَسَّه بين يديّ:

- سيساعدك على الهروب والإبحار. كدتُ أنسى، عندما خرجمت من قسنطينة اتخذتُ اسمَا آخر للكتابة.

- أبلغتَ قسنطينة؟

- بلغُها وأقمتُ فيها أياماً. القسنطينيون جعلُت منهم الرُّفقاء، عشتُ بينُهم أيامًا طويلةً، دونتُ أخبار بعضها هنا في رحلتي هذه.

كاتب المدخلات والمخرجات

وقد أطلَّ فجر يوم آخر، قطب بلازار، التمَّعت عيناه، ضمَّ يديه إلى بعضهما فبرزت عظامه وعوده اليابس، خفض صوته كي لا يوقظ الرجال المنحشرين أمامنا ووراءنا:

- كان حاكم الحامية يستدعيوني كل سنة لأسير مع الوفد الذي يرسله إلى شيخ القبائل، فيحظون برسوم على كل الصادرات كما

يحضون بالأدوية والهدايا. اتّخذتُ منهم أصدقاء أشاركهم مباريات الرّكض والصّيد بالقوس ورمي النّشاب.

تنسابُ الكلمات العالقة بين شفتيه كقصة تارةً وكوصيّةٍ تارةً أخرى:

- كانت مهمّة شاقةً وعسيرةً، بينما ظلّ المارسيليون يتطلّعون إلى السفن المحمّلة القادمة من هنا. تزايد عددها عن الخمسين ثم خرجت عن الحصر، فصرنا نُتاجر بالحبوب والصّوف والشّموع والجلود والمواشي والزيوت لتمويل عمالات الوسط والبروفانس. أمّا بعد اليوم يا فيكتور فستنامُ في المعلّف بين القشّ وقد سحبوا البساط من تحتنا.

لزم الصمت بعدما أخذته رجفةً غريبةً. ارتفع بمحاذاتها صوت كاتب مارسيلي مُذمِّر. كان مسؤولاً عن نسخ المدخلات والمخروقات.

أقبل وهم بالجلوس بعدما أخذ حاجته من التّبغ قال:

- مذ سمح المجلس الوطني لجميع الفرنسيين بالتجارة تجنّد الكوريسيكيون والإسبانيون أيضًا، فاستغلوا الصيد على حسابنا نحن الذين جافانا النّوم، بقينا نرفع عرائض الاحتجاج، بينما ظلّوا هم هنا يسرحون ويسمون كالخراف، يتکاثرون كالقطيعان القادمة من كلّ حدٍّ وصوب!

كان ثمة رجال مثلنا يتظرون الهاك، يتجادلون، يتداولون الانتصارات القديمة والخسارات الوشيكه. نظر في عيني وسط ضوء خافتٍ يقاوم سُهاد العين:

- أبحر الكورسيكيون إلى القالة وعناية كالجرذان يتکاثرون ويتسارعون. كتبنا إلى سلطات كُرسِيكَالْكُن النواب حمقى يؤيّدونهم.

أصوات تُجلجل حولي:

- ما هذا الذي تفوهت به؟

شعرت بالبؤس، فلا خير في عيشٍ تذوقُ فيه الوهن.

تساءلت من يدفع عنّا هذا الخزي؟ إباحة الصيد دفعتنا إلى الإفلاس وأضعفتنا بعدهما شغلتنا الثورة عن خدمة الأرض فوقعت المجاعة. خزائنا خالية، لا يمكن شراء القوت، رام بونبارت عزا بالحرب وها نحن نفقد المؤئل المنبع. قرر المسؤولون عن التموين حجز كلّ ما تستورده الشركة من الحبوب حتى لا نأكل بعضنا أو نبنيش القبور.

رضخنا بكلّ وطنية لهذا التعسف آملين في أن السلطة ستتمكننا من رأس مالنا وتعيد إلينا احتكار الصيد الذي يُدرّ الأرباح الطائلة. الحمق من يُهلك كلّ شيء لا الجوع أو العدو.

إنّ ما بنفسي أشجى وأنكى من الألم. تحالف الإنجليز مع الإسبان وحاصروا ساحلنا الجنوبي فضايقوا حركة الملاحة. طاردوا سفنا التجاروية والحربيّة. دام الحصار ستين، لنخادعهم لجانا إلى استعمال سفن أجنبية وتجار من الجزائريين اليهود خاصة يتوجهون إلى موانئ إيطاليا ومنها تنقل براً إلى فرنسا؛ غير أنّ هذه الحيلة تطلبت نفقات كبيرة، عجزنا فانسحبنا.

قام كاتب المدخلات والمخروجات وفي يده رمح مكسور لا رأس له، وقد سقط نصله. يلوّح به:

- سنعلن تنازلنا عن حقوقنا للأمة بعد أن تنقضي هذه الأيام العصبية، حتى الإسبان تحولوا إلى أعداء، تُحملق بنا من كل فج عيونهم، الأوغاد رفعوا أسعار الحبوب فتعسرت علينا التجارة. ربما كان على نابليون أن ينزل بالجنود إلى الحقول لا إلى مصر، فنحرث ونبذر ونحصد لتفيض الخزائن والأسواق والسفن!

شجارٌ

ل يوم آخر لا أمل لقوارينا في بلوغ الشّمال، الرياح تعاندنا. انتصب أمام ناظري كورسيكي قعد بين رهطٍ منبني جلدته. نشا على برضٍ وقاسي شرّ الضني.

- سبب إفلاسكم حمقكم وع tehكم. لا نملك نحن صيادو كورسيكا يداً في تفطّن الباي إلى الحسابات المغشوشة التي تقدّمها أنت وشركتك. جشعكم زاد من الكمائن التي ينصبها الأهالي لمُمثلٍ الشركة. فصرتم تُقتلون كلما ابتعدتم عن القالة وعنابة على يد أولئك الذين ترفضون منحهم تصاريح دخول المدينة، رغم كل ما تدفعونه للحاامية العثمانية مقابل حمايتكم. حتى الهدايا التي تقدّمونها للقبائل جعلت منكم مفلسين بدل أن تجلب لكم الحلفاء؛ سيطعنونكم في الظهر ويتحالفون مع الإنجليز.

تحدّث رجل أحجهل هويته، نام وظهره إلى الجدار ليلتئم. تبيّس الدم في زاوية فمه، على صدره درع لامع، ارتشف ماءً عكراً دون أن يعبأ قائلاً: «بل أنتم السبب، خشية أن تُتهم بخيانة الثورة توّقفنا عن رفع عرائض الشكوى. خدمنا في الشركة الملكية وانتقلنا إلى

الوكلة الإفريقية فأين كنتم؟ حاولنا احتكار الصيد لكن السلطة لم تراجع عن قرارها رغم أننا سعينا للتوفيق بينكم أنتم الكورسيكيون والبروفانسيون».

انسلّ قلبي بين الرجال باحثاً عن تلك العذراء الإيطالية، وقد شغفتني، تملّيت منها بعيني وهي تحادث أخرى.

ناديتها، صحبتها إلى الحجرة السرية للإعدام، شاركتها المُتع سرّاً وكشفتُ لها عن أصابع أقدامي الستة فضحكـتـ. علـتـ أصواتـ أخرى؛ وقد كان احتشاد الرجال كبيراً حين عدتـ:

- ومن قال لك ذلك!

قال رجل يقعد في عتبة المدخل:

- تجدون في الجداول ملهاة عابرةً!

قال آخر وهو يجرّ قدميه متـهـالـكـاـ:

- ثرثرة.. الحرب.. ثرثرة الحرب..

هكذا ظل الحديث بين المتنازعين الغاضبين، مرّةً لهذا وأخرى لذلك، رقّ قلبي لحال الفرنسيين فصمـتـ؛ هل يجب على الإنـاصـاتـ لكل هؤلاءـ المـعـانـيـ؟

علي خوجة

هدأتـ الجـلةـ، اقتربـ بلاـنـشارـ منـيـ، غـطـىـ فـاهـهـ بـمـنـدـيلـ وأـطـلقـ عـدـاـ منـ السـعـلاتـ.

- تشـبـثـ الحـكـومـةـ بـمـوقـفـهاـ؛ لـنـ تـغضـبـ المـواـطـنـينـ، تـريـدـ الحـفـاظـ عـلـىـ سـمعـةـ الثـورـةـ، عـنـ الـمـساـواـةـ وـالـحـرـيـةـ؛ وـلـوـ أـنـ الـأـمـرـ بـيـديـ ياـ فيـكتـورـ

العزيز لقبضتُ على أولئك الصيادين الدُّخلاء وألقيتهم في البحر واحداً واحداً. بسببهم صار الصيادون يوجّهون حُمولتهم إلى ليفورنو حيث الأسعار أعلى. أغلقت المعامل المارسيلية الخاصة بصفله، هكذا لم يبق سوى تجارة الحبوب والشمع و الصوف والجلود حيث بدأ تقلُّ الحمولة تقلُّ، الحمقى حاولوا استبدال المرجان بتجارة المواشي ! غرس فاهه في المنديل وعاد للسعال. أقبل الجنود، فتح أحدهم أغطية صناديق ذات زخارف، وزَع ملابسَ و دروعاً تقي من السهام، وأغطية صوفية ناعمة .

قال كاتب الشركة مندفعاً:

- ماذا فعلتم أنتم أيها الكورسيكيون؟ من هنا أرسلنا نحن أكبر حمولة حبوب إلى مارسيليا، أنقذناها من المجاعة سنوات الثورة أما أنتم فقمتم باستغلال مبادئها.

مال بلا نشر إلَيْ وأسرّ لي وهو يمُدُّ لي مخطوطاً :

- الثورة؟ الثورة التي لم تغيّر شيئاً في هيكل الشركة! لقد أبقيت كلّ ما كان قائماً حتى لا تطالب الجزائر برفع الإتاوة، فقط استبدلوا كلمة الشركة الملكية، بالوكالة الإفريقية !

فعل نابليون ذلك قبل خمسة سنوات، ثم بدأ غلاء المعيشة فبدأ البحارة يطالبون برفع الأجرور من وكالة عجزت عن تزويدهم بالأغذية حتى؛ في السنة نفسها التي بدأ فيها التجار اليهود يفرضون أنفسهم على مؤسساتنا.

- إنني لأذكر تلك الأيام جيداً، تأسست الوكالة البائسة حين استقبلت قسنطينة بايَا جديداً ...

نظر ملياً إلى المخطوط ثم قال:

- هذه فصول رحلتي يا فيكتور، تحمل اسم علي خوجه. اخترته بعد خروجي من قسنطينة؛ دونتها بالعربية حتى لا أثير الشكوك فيتم حجزها وترجمتها.

جال بعينيه بين السطور دون أن ينقطع حديثنا.

- لقد وجدتُ اسم الباي إله مصطفى الخزناجي! زرته مرات في قصره مع مواكب الهدايا. أتناول يده برفق وأنحني بعد أن يتم تجريدُنا من أسلحتنا، ثم نشرع في أحاديث التجارة. مثل فاليار كنت أدرى أننا نخسر التفود. لم نعد قادرين على شراء القادة المحليين يا فيكتور كما لم نستطع وضع أسعاراً محددة، هكذا سقطت القالة! إنك ترى برقياً العمر الحادقة. هكذا سقطت (لاكال) منذ خسرنا تجارتنا لا اليوم حين حاصرتنا.

- تُهنا عجبًا بالغنى والمنزلة الرفيعة بين مختلف البلاد، ثم..
اهكذا تهلك العظمة!

- ماذا عسانا نفعل؟ قبل أربعة سنوات كنت رفقة وفدي أهدي الباشا خواتم الماس وبندقية وعدداً من المسدسات، ولبالي قسنطينة مثلها ولوزير الحرب، بينما كان تُجّارنا يتخطّبون لتزويد الفرنسيين بالحبوب ولتمكنهم معامل الجنوب من الجلود حتى لا تغلق أبوابها. خزانة الحكومة خاوية وللحصول على المال تنازلت الوكالة عن الكثير من حقوقها لليهود الجزائريين. هكذا سقطت القالة يا فيكتور، هكذا شيئاً فشيئاً.

الرقوق السريّة

تدفق إلينا هدير الموج، خفت صرير الأبواب واختفت خطوات الجند.

حمد لغط السلع والسوق والمؤن والخيول المطهمة. ما عادت الحامية كما كانت. انتهت الأيام البيضاء، وانقلبت الأسوار العالية إلى قنٌ، إلى جُحرٍ نختبئ فيه خائفين، دون أن يدرِّي أحد إن أفضى قتال نابليون في مصر إلى نصر أم إلى هزيمة؟ هل وصل تخوم أسوار المماليك أم رجع إلى القواعد في الإسكندرية؟ بينما ملأتني الأسئلة، شدَّ الرجل يدي، منحته صحنًا من الخضار المهرولة، واللحم المدقوق، رفع يده يرده، قائلاً بصوت خفيض:

- فيكتور؟

شعرت بالبرد وبالم الانتظار وهو يمزق أمعائي:

- نعم سيد بلانشرار.

- باركك الرب عزيزي، إنني لأعدُك لمعركة أكبر من معركة القالة هذه. يا بُنِي، خُذ هذه المخطوطات للجنرال ماديلان، وحده من يملك إيصالها للأميرال (م / د / س). لا تُضيّع الفارغة منها لأنها مكتوبة بالحبر السري. احذر من قراصنة العثمانيين والإنجليز والإسبان. الحالى ما زالوا يفعلون ذلك مُنذ الحصار الذى بدأوه قبل سبع سنوات.

- ولكن كَيْف؟ كيف لك أن تؤمنني عليها ولستُ سوى تاجرٍ غريب عنك؟ لعلَّهم يأخذونني أسيراً أو يرمونني بالرصاص أو يُنكّلون بي كما قد يُنكّلون بنا جميعاً!

- لأنني أعرف شجاعة وإخلاص والدك، وأعرفك منذ نعومة
أظافرك كما أعرف جدك الطيب.

- وهل يعرفني الجنرال!
متهكمًا:

- نعم يعرفك الجنرال الأخطبوط! ويتذكر وقد يقتلك بعد أن
تُسلمه الرّقوق. أسميه كذلك لأنّه لا أحد يُقتل من أذرعه الكثيرة هنا
وهناك، هاهما. لا أسمح لأحد بنقلها عدى الرجال المخلصين.
أرسلت عدّاً منها قبل سنة مع.. ميل تاجر أربعينيّ، على متّن
سفينة قامت الوكالة بكرائتها كما اكترت عدّاً من الجزائريين اليهود
وال المسلمين ليصحبوا الشحنات الفرنسية إلى مقاصدها.

كنت أدرى أنّ الشركة تفطّن إلى تلك الحيلة؛ فصارت الباخر
كلّها دانماركيّة وجنيّة أو من البندقيّة. كما شرعت في استئجار
الإيطاليّين لمرافقه البضائع الصادرة والواردة.
فاجأني بقوله:

- لكن الجنرال قتل يومها. لم يكن رجلاً مُخلصاً، وحاول بيع
الرّقوق لأعدائنا؛ لذا ما عدّت أرسل شيئاً مع التّجّار. يلهؤون خلف
الرّبح لهؤا، ولا حتى مع الرجال المخلصين!
فُلت في نفسي أنّ هذا الرجل أكثر دهاءً مما يُحاول إظهاره من
طيبة.

- ولماذا قررت إرسالها رُفتني؟

- لأنني أدرى أنّك من أذرعه هنا، أقصد من رجاله، هاهما.
تمسّرت مكاني، أرقبه مندهشاً لكياسته؛ اتسعت عيناه:

- يوماً ما، ستوزعُ عليكم نسخٌ منها.
ضحكَتْ ضحكةً مريضاً:

- على ألسُن الرحال والدبلوماسيين تُجمِعُ أخبار الأمم!
ثم حجب وجهه بكفيه وهو يسعل. امتدَّتْ إلَيَّ فجأة يدٌ ترْجِنِي
رجًا، كانت لأحدِهم. رجلٌ خمسينيَّ يتقيأ ماءً أصفرًا، أحدث جلةً،
صحبه العارس خارجاً. مثل السيد بلانشر طالما استهوتنِي القصص
والأخبار. شرعتُ أقرأ عن مدن إفريقيَّة، عن القالة، الجزائر، تونس،
فاس، مراكش، والإسكندرية؛ حتى عن دمشق وبغداد والقدس
والناصرة. تطلعتُ إليه بعدما نال مني التعب. أيكون عيناً من عيون
الملك، هذا العجوز حاسُرُ الرأس، أم أنه عدوٌ يكيدُ لي وللجنرال
ولنباليون؟

مال رأسي، كدت أغفو، سحبت نفسي إلى الجدار. زفرتُ يائساً.
خففت القناديل المعلقة على الجدران، خلد الجميع إلى النوم فجرًا.
افتقدتُ مونكا أكثر، هدا ضجيج البحر، نظفتُ ماسورة مسدسي،
حرَّكتُ أصابعِ أقدامي الستة نحوها لكنَّ السيد بلانشر همسَ لي.
رفعَ يده عن حقيبته فظهرت مخطوطاتٌ أخرى، وعددٌ من الكتب
والللفائف. ازدادت عيناي اتساعاً. سحبتُ جسدي، وقفْتُ، زدتُ من
ضوء القنديل بينما وقد استدار نحوِي أكثر:

- أعطه هذه أيضاً، رغم أنني لم أتم الكتابة بعد. الماء الذي نزل
في عيني منعني عنها، تجمع في زاويتها ولم أتمكن من سحبه، كلما
قصدت طبيب الحامية وجده في سفر نحو قسنطينة أو دار السلطان.

الحصن الفرنسي القديم

نابليون رجلٌ يأنس بسقوط المدن بين يديه مثلما نأنسُ بسقوط النساء الجميلات. لن توقفه الوفود لذا سيمضي في حربه. ستنتقطع العلاقات وفور أن تضع الحرب أوزارها سيسعى بحكمته إلى عقد صلح؛ إذ يحتاج بعض الوقت قبل توجيه جيشه إلى هنا.

التفتَ إلىَ بلانشار، حركَ جذعه:

- ليس الوقتُ مناسباً للتفكير في مُضاجعة العبيد والأسرى يا فيكتور. لقد قضيتُ العمر في خطّ أسطرها.

راح يُقلب اللِّفائف، بينما يلتفت كلما طرق سمعه شيء، ثمَّ وجَّهَ وجهَهُ إلىَ الحزين؛ أرسل زفيرَا طويلاً:

- هذه معارفٌ تخصُّ الجمهورية، وما أفعل هذا إلا لعلمي باقتراب يومي الأخير. وقد أنهكتني رحلتي إلى مصر والقدس وحلب ودمشق قبل أن يسير إليها نابليون. قُمْ بإخفائها، وحاول تهريبها مع إيزابيل حيث ستكون في مأمن.

ثمَّ أذعن، انكمش على أفرشة وثيرة للجنود، طرحه الإناءك أرضاً فخلد إلى النوم. عندما بزع ضياء يوم آخر أخذتُ المخطوطات وأطلقتُ ساقِي للريح.

في غرفتي نظرتُ متفحّصاً. كان المخطوط الأول يحمل أخباراً عن حصننا القديم، أول مركز للتجارة شرقي عنابة، يبعد عن القالة ستة أميال. تمَّ إخلاؤه بسبب الأوبئة. كان بالقرب من مستنقع كبير يأوي أكثر من أربعين مائة فرنسي. لم يكن من بينهم رجلٌ في مثل فطنة جدي الذي أعاد جدتي إلى البلدة بعد ما نجت من السَّيِّي وبي وحيداً،

وكلّما أراد أن يُصاجع امرأة أحسن الغناء، فيكرمه القُنصل، ويُهديه امرأة لليلتين. على لسانه عرفتُ الكثير عن أيام الفقر قبل الغنى وأيام الضعف قبل أيام القُوّة.

حمل المخطوط الثاني أخباراً عن القالة، حيث أنشئ مرکز آخر بعد الحصن. لم يكن سوى الشركة الملكية الإفريقيّة؛ عيّنت والياً وأميناً للعمال وافتتحا تجاريّاً وراهنّاً ومساعدين وعمال، قامت بتنصيب حامية في البدء من خمسين جندي تحت قيادة نقيب. منعنا شيئاً فشيئاً دخول البرابرة إلى محيط الميناء، بنينا حصنًا منيعًا، نصبنا داخله أربعة عشر مدفأً وقادفين؛ يسهر على تسيرها أكثر من مئة جندي وضابط. على الفرنسيين تقدير ما فعلته الأجيال السابقة من أجل مجدهنا. في البدء كان ميناء القالة لا يتسع لأكثر من خمس أو ست سفن، تحمل الواحدة مائة برميل، فيأتي الأهالي بالسلع وينسحبون قبل غروب الشمس. ازداد عدد السفن وصار يدفع إلى مارسيليا كل سنة أكثر من ثمانين ألف حمولة.

إذا سقطت القالة التي كانت ملء أفواه وأبصار وقلوب الفرنسيين. إنها ولا شكّ نكمةٌ علينا من السماء، كما ستسقط عنابة والقل أياً.

الشأنة

انبعثت رائحة الدم؛ انتشرت إشاعة عن وجود سفينة واحدة للنجاة قد تصلاليوم، وإشاعات أخرى عن مقتل حامل البريد. خمدت المشاعل وانطفأت الفوانيس والشموع حينما أقبل صباح الغد. أخذ الرجال يرقصون شوالات القمع، يصنعون منها الجدران

والأنفاق؛ وسرعان ما نشب جدال آخر بين الرّعايا وكأنّه معركة بين الملكيّن والجمهوريّين، بينما أطالت النساء الصلاة رفقة فتیان تحمل رؤوسهم قلنسوّات مليئة بالصلبان.

ضجّ الصيادون كمن فقد كل شيء دفعّة واحدة. دفعوني يدّ إلى الأمام، انقلبتُ أنظر في الرجال متّحسرًا مشمئزًا، بدوا أكثر قسوةً وغلظةً وبؤسًا. تقدّم أحدهم وهو يرطن، أشهر الرجال أحذيتهم وعصيّهم وكأنّها سيف، جرّ بعضهم بعضاً، رجم الواقفون الواقعين أرضاً، فترف عدّ منهم. ارتموا على الجدران، زلزلت الأرض؛ من يصدّ هؤلاء الشiran؟ صرخ الحراسان يتحسّسان جليّة الأمر.

- الهدوء! الهدوء!

في كلّ صرخة يتراجع رجل أو رجلان. لو لم يكن نابليون من كورسيكا لما أتيح لهم كل ذلك؛ فلم يسبق لهم أن كانوا صيادين قبل ظهوره. الخسارات التي منينا بها لم تكن عظةً لأحد. نصيّبُ الجزائر لم يتجاوز صندوقين يُدفعان سنويًا إلى الباشا وبعض الأغصان التي تقدّم كهدايا للباي ولمشايخ وأعيان المنطقة. ماذا فعل الملك بكل تلك الثروة قبل أن تسلّم الحكومة الامتيازات إلى الوكالة الإفريقية قبل خمس سنوات!

نقلتُ بصري إلى صياد كوت الشّمس جلدته؛ وقف بوشاح ثلاثي الألوان، راح يلوك الكلمات. تحسّرتُ، وقد انقلبت الأيام، تنازل العثمانيون عن المرجان للملك فرانسوا الأول، اندفعنا بهجةً تتناقل الخبر، وقع الاختيار يومها على حصن فرنسا. بدا نصراً تطبعه قداسة الفتح؛ وزع الباعة الحلوى على الأطفال، وأكرم السادة عيدهم بسخاء.

مرت الأيام، روضنا فيها الأرض؛ ما عادت قضية بعيدة. ازدهر البيع والشراء، نشبت معارك في غمرة من الضراوة شيدنا الحصون وكان على الثورة أن تجعلنا صفاً واحداً.

خفقت أفتنهُ الرجال واحتللت من كل فج، ألم يكن على نابليون توجيه جيشه إلى هنا قبل مصر؟ ارتفع عدد مؤسساتنا التجارية إلى خمس: القالة، حصن فنسا، عنابة، رأس الزهور، والقل، فصارت أراضٍ فرنسيّة، فرنسيّة، مقابل إتاوة سنوية قدرها ستون ألف فرنك فقط. فأيّ ويل حلّ بنا؟ أيّ ويل؟ نابليون قادمٌ يمحّر عباب البحر، يطوي اللّجة من وراء اللّجة لاستعادتها إن نحن صمدنا.

حاولتُ المغادرة ثم عدتُ أدراجي. انعطفتُ يميناً، جلستُ متوكّماً في الزاوية. أدخلت يدي في جيبي، أخرجتُ قطعة مرجان مدهشة، قلبتها مرتين، مسحتها، نظرت إليها، بدت جميلة أكثر من أيّ وقت مضى. وقد تصاعف ثمنها أربع مراتٍ وغداً سيرتفع عشرة مرات. أعدتُ لفّها جيداً في منديل قطنيّ مطرّز وخبائتها.

نشب عراك آخر، تدخل العريف فرانسو الفكه. أعاد الرجال إلى محشرهم.

- ما بالكم؟ التمرد وقت الحرب يُقابل بالموت!

ضرب الأرض بقدمه، رن حداوه العسكري المشبك بالحديد.

هذا المكان فشرع يختار مجندين جدد، ثم صفق الباب مغادراً.

- قد يهزّوننا بالمكيدة لا بالحرب!

- ليت في الميناء سفينة نركبها إلى مارسيليا... مارسيليا...

زاد النداء فلم تغفل عينٌ ولم تهمد همةً.

هاربٌ من الآلات

نقع غرائبُ، نعب بوم، صمت ثغاء الأغنام و خوار الأبقار. حرك العريف حلق الباب الحديدي. دخل وقد ترك حصانه الأدهم خارجاً. توالى نذر الشؤم. في الظهيرة شيعنا كهلاً على عجل في مقبرة الحامية. أمسكتُ برأسِي، كنَّا قد دفنا الكثيرين بعد الطاعون الذي أصاب بايلك الشرق بعدهما حل بقسطنطينة والقالة وأخذ في الانتشار نحو الجنوب، وقد حمله بحارة قدموا من بلاد العثمانيين. كان مندوب الوكالة في عنابة يكتب لحكومتنا عن الضحايا يومياً، بينما سلم الساحل بفضل الأوامر الوقائية التي اتخذها حاكمنا هنا. أغلق الموانئ ومنع القادمين إليها من الدخول، كما منع لأشهر الاتصال بالبواخر الأجنبية والمجهلة بما فيها سفن العجيج القادمة من الإسكندرية وسفينة سويدية قادمة من إزمير، وبارجة يونانية قادمة من بيروت. في البدء قتل الوباء أكثر من خمسين شخصاً وكدت أهملُ ثمّ ما عاد أحدٌ يعرف حجم الخسائر، وقد انتشر في الشرق عن طريق تجّار الزيت العائدين من دار السلطان، وانتشر في بجاية عن طريق تجّار الحبوب العائدين من الجزائر بعد بيع محصولهم. بينما حمله البساكرة إلى الجنوب. هرع الناس إلى قمم الجبال، أصاب مرض الزرع فلم تعد تطمئن النفوس للحراثة. فتح الأهالي مطامرهم وأخذوا يوزّعون ما حزنوه من حبوب. كاتب الباي الأعيان، يطلبُ منهم أن يرسلوا ما فاض عليهم من قمح أو شعير يتولّى توزيعه أو يكلف من يتولّى بيعه للمحتاجين. ارتفعت أسعار الحبوب فبلغ ثمن صاع القمح خمسة عشر فرنكاً بينما كان لا يزيد عن الفرنك الواحد،

ما أرغم البعض على أكل الميّة، رغم ذلك لم تقطعْ موانئ الشّرق
عن تصدير الحبوب إلينا.

تنفس صبح يوم آخر، غفوتُ، أيقظني بعد ساعات الضجيج.
التفت حولي دون أن أرى أثراً للسيد بلانشار. مدنّي أحد الحراس
بجرة ماء، تلقتها، شربت وغسلت وجهي. في المساء وسط صناديق
السلع أخذنا في تناول الطّعام بشروءٍ خشية نفاده أو تعفنّه. شجبت
الوجوه فجأةً وشاخت هلعاً. هزلت الأجساد. أخذ الجنود يذبحون
الأبقار التي اشتراها التجار من إسطبلات الباي لتصديرها إلى
مارسيليا. علّقوا العجول في المخازن وعلى أشجار وارفة الظلّال
لتتعجبَ قبل تقطيعها. قالت زوجتي جيزيلا:

- خمسمئة بقرة، هل ستكون طعاماً كافياً إذا ما امتدّ الحصار بنا
لأشهر؟

كنت أفكّر في طريقة لتهريب المخطوطات، بقيت شارداً دون
ردّ.

- هل تسمعني يا فيكتور؟

وهي تتحسّس رأسي:

- حرارتكم مرتفعة!

رسمت الصليب على جسدها خشية أن أكون مصاباً بالوباء.
نظرت إلى جابي الصّرائب؛ أردتُ استدراجه إلى حديث ما. طالما
شغلني هذا الرجل الذي يعرف الجميع، كما يعرف ممرّات القالة
ومسالكها وأسرارها. لم أجده حرجاً في أن أسأله عن طريق للهرب
يمكن أن يسلكه قاربٌ صغيرٌ يحمل امرأة وصندوقين بانتظار خطّة

سيمدني بها المحاكم لتهريب إيزابيل. جاء رده ممتنعًا بالتهم وكأنه يُحدث سكارى التجار أو أراذل الصيادين. تتحنّح:

- هناك طرق كثيرة للهرب، إذاً ما نجحت في الإفلات من هؤلاء الحراس؛ أما إذا دفعت يا سيد فيكتور فستجد أسوارًا مهدمة تفيض عليها الدّوالي، عبرها ارتسّت منذ سنين طرق سرية للسلاح بين الحامية وأطراف المدينة؛ أمّا إذا دفعت أكثر، هاهماها، فستجد خنادق سرية يُشرف على مداخلها الجنود.

كثيرٌ من الأسرى تم التخلص من جثثهم عبرها حتى لا تُطالب القبائل بالديمة، فالبحر خاضع لمراقبين؛ أغلبها تنتهي في أراضي الوقف التي لا يحرسها أحد. كنت قد دونت في تقريري أخباراً عن أراضٍ هنا تُشبه تلك الأراضي التي منحتها الكنائس في الماضي لل العامة، يُسمونها أراضي الوقف. إن وضع نابلتون يده عليها ستدر أرباحاً طائلةً. المدارس الدينية التي تدعى الكتاتيب تموّل مؤسسات خيرية عديدة وتقع هذه الأراضي تحت تصرفها. على بونبارت إغلاق هذه المدارس التي تعلم الكفر والشّعوذة، نأخذ ما بدا لنا منها، تُباع بقية الأرضي للأوروبيين، فيتبادلها المشترى والبائع، بينما ترتفع في أخرى كنائس، ومصانع ومنازل على الطراز القوطي أو الباروني؛ فتحتّول بما نملك من قلة بعد مئة عام إلى أغليّة. العثمانيون مشغولون بتشيّط سلطانهم بالمال وال الحرب؛ يجهلون حال الجماهير والعالم وحال ما وصلنا إليه من رفعٍ وحضارة.

لم أعد لطرح الأسئلة على جابي الضرائب الجشع. ارتفع نحيبُ خافت لأحدّهم وقد اقترب ليل آخر، حاولت أن أهدأ، أن أقرأ شيئاً

لأهداً. فتحت صفحات كتاب بطبعة قديمة، رواية لأسير إنجليزيٌّ كتب عن الجزائر يُدعى *ثوماس هاسليتون*. (يجهز الإسبان سُفناً ويدهبون إلى إفريقيا، في حالة إمساكهم بأيّ رجلٍ من هذه الأمة يجلبونه ليُصبح عبّاداً على السفن الأوروبيّة، ولهذا اجتهد الجزائريون لملحقتهم على أرضهم، وإذا سمح لهم الفرصة وأخذوا مسيحيّاً فإنّهم يستعملونه استعملاً مرغوبًا).

أقلّبُ صفحةً، صفحتين، ثلاثاً، ثم أقرأ: (غارات البحارة المسلمين ضدّ الملاحة المسيحيّة لم تكن نتيجة العنف الديني أو رغبة في الغنائم وإنما انتقاماً من القراءنة المسيحيين...) حتماً ما زال الإنجليز يسعون وراء الحصول على امتيازاتنا هنا لذا يطبعون هذه الكتب كلّ سنة وينشرونها!

فجأةً مع صفير الريح ارتفع صوت ذلك النحيب مجدّداً:
- إلهي أدركتني متى يتوقف عذابُ انتظار الموت لحظةً بعد لحظة؟

لقد كان ذلك روبيير، صيادٌ بائسٌ يطارده جامع الضّرائب. يُتلف قاربه من حين إلى حين للحصول على المزيد من المال؛ أرسلته الآلات إلى منفاه الكبير بعدما صار أصحابها يكسبون أرباحاً طائلة. أغلق منزله الذي كان يعمل فيه مع عائلته؛ ما عاد أحدُ راغبٍ في الأجرة الضئيلة. مات والده المعلم الكادح الذي يُلقن تلاميذ القرية الأخلاق الرومانية فقرر مغادرة فرنسا؛ لم يكن راغباً في العمل لصالح آلات تصنع أضعاف ما تصنعه يداه في وقت قصير. الماكينة تطرد العمال، وما عادت المصانع تحتاج إلا إلى مُشرفين يراقبونها دون أن يكون

لهم الحق في مشاركة أربابها في الأرباح التي تتضاعف فقط لأنهم
يملكونها، بينما لا تملكُ سوى يديكَ البطيئتين!

كان روبير يعمل في النسيج إلى جانب عمله كمزارع في قطعة
أرض يملكونها؛ ينسج ساعة ويحرث أخرى، متأملاً الجدب الذي
يزحف. تدنت الأجور ولم يعد يقبض المبلغ ذاته على بضائعه.

غادرته نحو تلك الإيطالية، أو صدت الباب بالمزاليق، أليست إليها
بصّرة أخرى. بعدما أطفأتُ جذوتي شعرت أنني بغيض إلى قلبها وقد
وقع من أذنها قرط ذي لآلئ ثلات أو لأنّها لم تحبّ أصابع أقدامي
الستة. لبست ثوبًا غزلته، وضعت عليه مشبكًا مذهبًا. قلتُ وهي تظفر
بيديها شعرها:

- سيختفي النساجون شيئاً فشيئاً يا مونكا أمام ما تنسجه الآلات،
فترى حين يديك وعينيك ...

شارك روبير البائس في تحطيم المعامل وإضرام النار في
مخازنها، ثم ترك أنواله الخشبية ودوليب الغزل؛ حزم أمتعته وقرر
مغادرة كوخه الريفي والسفر. رفض العمل في المصانع الجديدة التي
لا ضوء ولا تهوية فيها؛ فقط ثمة الكثير من الآلات الضخمة ودوليب
الماء والمداخن والفح�، بمحاذاتها مساكن قدرة للعمال، حيث تقيّم
عائلاتٌ بأكملها في غرفتين. قمتُ، ساعدتها في تطويق خصرها
بحزامِ من الزّهور قائلًا بعدما فقدتُ صحوبي وثملتُ:

- لكن رغم تلك القذارة هُناك، هناك ثمة أموال طائلةٌ يا مونكا،
أموال طائلةٌ. أتدرين؟ مثله لا يمكنني العمل عند سماع الصافرة،
والاستمرار فيه لساعات طويلة تصل إلى أربع عشرة ساعة بين هدير

تلك الماكينات اللّعنة وضجيجها المرريع، أراقتها واقفًا على أصابع
أقدامي الإثني عشر، فقط أسحب ما تصنعه أو أنظر الأوساخ أو
صلاح الخيوط المتقطعة. ينتهي اليوم أتعب بينما لا تُطئ هي مهما
بلغ بي التّعب!

لا يمكن أن أعمل هناك وأنصاع للأوامر كما تفعل النساء
والأطفال المسؤولون من السادسة صباحًا حتى العاشرة مساء.

سجّبُتها إلى بشدة:

- إن نجوت لا تذهبني إلى هناك، هم لا يُريدون العمال
المهرة؛ يستبدلونهم دومًا بعد أسابيع بمحظي الآلات الأرخص،
فالأرخص... لا يمكنني أن أكون حارس آلات، كما لا يمكنني أن
أكون فلاحًا مُستأجرًا عليه أن يحرث الأرض ويُسدّد الإيجار ويُعطي
حصةٍ من المحصول للملك دون أن ينسى إرسال النّذرة إلى مطحنته
ودفع الفقير والأعشار للكنيسة ورسوم أخرى، ومراقبة المحصول
الذي يتناقص من الجاودار والقمح والشعير والشوفان والحنطة
السوداء. الأثرياء يستولون على كلّ شيء بعد الثورة، يمتلكون الأبقار
والماعز والخنازير والطيور والأراضي والنبيذ والشعير والجعة التي
تصنع منه، والصوف والكتان والقنب وحبال السفن التي تصنع منه.
ضحكـت مونـكا وقد قـدـتها إلى وـكريـ، ثم ارـتـعدـ قـلـبـهاـ وقد جـهـلـتـ
ـحدـيـثـيـ.

- بعينيك فلتتبّيني يا مونـكاـ، بعينيك فلتتبّيني ما أقولـ. أدركـ آنكـ
ـلا تـجيـدينـ سـوىـ الإـيطـالـيـةـ،ـ فـهـلـ عـمـيـتـ بـصـيـرـتـكـ؟ـ اـزـادـتـ أحـمـالـيـ،ـ
ـسـأـكـلـمـكـ عنـ دـمـيـ العـرـيقـ يـوـمـاـ ماـ إـنـ نـجـوـنـاـ وـإـنـ أـحـبـيـتـ أـصـابـعـ أـقـدـامـيـ

الزائدة. أبانا الذي تستوي في السماوات فلتلهمنا ولينزل علينا سلام
ملكتك ولتغفر برحمتك خطايانا. أندرين؟ على نابليون البحث عن
أراضٍ فرنسية أخرى يهُب خيراتها لنا. لي ولك وللهؤلاء الكادحين
مثل روبير، آه! أنت تجهلين روبير البائس أيضاً. لقد اخترتُ خدمتهم
والسعى لجمع المعارف عن أرض تعدّهم بالأفضل؛ فالثورة لم
تحقق الكثير. عمل أصدقائي في مصاهير الحديد والمناجم والسكك
الحديدية التي يتم مدّها هنا وهناك. بدؤوا يسحبون عربات الفحم من
تحت الأرض وعلى الخطوط الحديدية رغم قلة ما يُدفع لهم بعد أن
يعملوا مثل البغال والأحصنة. أردت أن أعمل لأجل الجمهورية لا
أن أصبح عبداً لآلاتهم. اخترت الإخلاص لمهمة ستمنعني الشرف،
الشرف يا مونكا. رغم صوت داخلي يُردد.. لن يكون لك مما رامك
سوى الخيبة، يا طول تعبك ويا بُعد وصولك! فلتخلّصني الرحمة
والعدالة من أحمالي الثقيلة قريباً. صلي من أجلني يا مونكا، صلي،
حتى أبسط يدي كما يبسط طائر جناحيه فأحلق بك بعيداً. ولكن...
ولكن ما الذي كنت أكلّمك عنه الآن؟ سأغادرك يا مونكا،
قبل أن ينقضى زمانٌ وأنا بين يديك يعدل سنوات عمري دون أن
أدري.

ضحكـت بـغـنـج وـخـوـفـ، انسـحبـتـ عـائـداًـ بـعـدـ سـاعـاتـ إـلـىـ روـبيـرـ.
حدـثـتـ الرـجـلـ موـاسـيـاـ لـهـ وـهـوـ يـرـتـشـفـ النـيـذـ بلاـ تـوقـفـ. أـقـلـبـ بـنـظـراتـيـ
وـجـهـهـ المـلـيـءـ بـبـعـقـ الـبـهـاـقـ.
- لم تكن راغباً في أن تصبح عبداً للآلـةـ فـصـرـتـ أـسـيـراًـ لـلـبـرـابـرـةـ،
هاهاها!

- أنا هاربٌ كما هربت العذراء بوليدها يا سيد فيكتور، كما هرب المسيح بيامانه وما كنت أدرى أنّ في انتظاري أيامًا مدلهمة.
وقد رقّ قلبي لحاله سأله:

- ما حقيقة قصتك؟

- في البدء وجدتُ عملاً في البواخر. فقدت أرضي وصرت أنتظر الأجر الأضئلة التي تدفع لنا كلّ فترة. أقمتُ في غرف مأجورة، بدل الذهاب إلى المدن كما يفعل الجميع للعمل في مصانع تنجز فيها الماكينات كل شيء. قررتُ العمل في إيطاليا حيث مزارع التبغ، بعدما صار الفرنسيّ منا مثل الإنجليزي يدخن ويستنشق سعوطًا ويمضغ أونصة ونصف من التبغ كل أربعة أسابيع. ثم عملت مع القرacsنة الإيطاليين، رأيت تجارًا من موانئ بوردو وليفربول وبرستول. كنا نحصل بسطوتنا على سفن من كل الأمم، ننهب ما عليها من السلع، ونعيد بيعها. ثم وقعتُ في الأسر وتم بيعي كعبد هنا. حرّرنني القنصل مع مئة رجل. خرجت من السجن لأهيم في القالة فصرت بعد أشهر صياداً؛ فتجارة المرجان أكثر ربحاً من تجارة التبغ ومن القرصنة. تلك قصتي، لكن... ما حاجتك بها؟ انتهت الملكية يا رجل وجاءت الثورة ومنح الشعب حق التصويت الكامل وحق التمرد والعمل. استعاد الفلاحون حق امتياز أراضي المهاجرين المهجورة وصار للفلاحين وصغار الصناع حقوقٌ وكراهة. ظهر ثوريون فاسدون يُشبهون الملك الذي أعدموه، قتلوا وخونوا، كما ظهر أبطالٌ ومواطنون وأمّة فرنسيّة وبقيت أنا.. أنا، عاطلاً كما كنت، تلك قصتي !

أحرّك رأسي، أبقي واجماً. ألفت قصص الصيادين، والقوارب
الصغيرة التي تبحر في عرض البحر الذي لا يستقر على حالٍ. نظرتُ
إلى قطعة المرجان مجدداً. تلك القطعة أخذت لبّي، حملقت فيها،
يا لهذا الجمال الفائق الذي يُشعّ منها. أترتها تشعر بخفقان قلبي
المضطرب؟

فاض المكان بالصلوات. بقى زوجتي جيزيلا يوماً وليلة لا
تنطق ولبسَ السواد. أسللت النساء وشاحاً على رؤوسهن يشبه
الذي تضعه الراهبات. تداعت الأجساد، انطفأت الفوانيس. ارتفع
صوت خطواتٍ تبتعد. نَكَستُ رأسي ويدِي على مقبض خنجرِي.
شعرت بالرّهبة من القالة، تهيّتها وكأنها ترشق سهامها من كل حدٍ
وصوبٍ نحوِي. غفوْت مجدداً على أديم الأرض دون أن أعود إلى
قراءة هرطقة ذلك الإنجليزي.

المحرك البخاري

كم يوماً مرّ علينا؟ بضعة أيام، أيامٌ يُثقل أعوام. بينما نابليون
في أقصى الأرض، لا يتهيّب الشدائِد، يضرب أعناقاً أخرى. يتقدّم
أحوال الجند وتغيّب عنه أحوال رعيته هنا. رجلٌ بأحلام كبيرة، يجند
الرجال، يسير بعضهم بحراً وببعضهم الآخر براً. يهفهم الكسوة
والطعام، البنادق والرصاص. يأخذهم نحو أحلامه الكبيرة، يزحف
شرقاً وغرباً، شماليّاً وجنوبيّاً. يفتح المدن والبلدان والأمم، يُنازل
الملوك والسلطانين على ملوكهم في مصاربهم. لا يرفع يده عن السّادة
إلا بعد أن يدينوا له بالولاء. إنه نابليون، عظيم فرنسا، من أعادِجِب

الدّهـر، لا ترـدـهـ القصور الحصـيـنة ولا الأـبـراجـ المـنـيـعةـ ولا القـلـاعـ العـالـيـةـ. رغمـ المـكـائـنـ نـزـلـ بـأـرـضـ إـفـرـيقـيـةـ الفـسـيـحةـ.

غـداـ سـتـسـقـطـ تـحـتـ أـقـادـمـهـ الـبـوـابـاتـ. سـتـكـوـنـ لـهـ الـمـعـاـبـرـ وـالـخـزـائـنـ، المـدـاخـيلـ وـالـمـحـاصـيلـ، السـلـعـ وـالـأـسـوـاقـ، السـفـنـ وـالـمـوـانـئـ. ثـمـ... تـنـهـيـتـ، فـلـعـلـنـاـ نـهـلـكـ قـبـلـ أـنـ تـتـحـقـقـ أـحـلـامـهـ. كـنـتـ أـوـدـ لـوـ كـانـ لـيـ عـشـرـ سـفـنـ أـحـصـلـ بـهـاـ عـلـىـ الـقـالـةـ بـدـلـ قـوـارـبـ خـاوـيـةـ تـطـفـوـ كـأـخـشـابـ هـنـاـ وـهـنـاكـ.

كـالـسـائـرـينـ نـيـامـاـ فـيـ حـلـمـ مـُرـعـبـ كـنـاـ. دـخـلـ الـحـاـكـمـ وـرـاحـ يـجـمـعـ حـولـهـ الـمـهـنـدـسـينـ وـالـجـغـرـافـيـنـ وـالـصـنـاعـ الـمـهـرـةـ وـاـحـدـاـ فـوـاحـدـاـ. حـاـوـلـ صـنـاعـةـ مـُـحـرـكـ بـخـارـيـ عـنـدـ الـمـرسـىـ لـدـعـ السـفـيـنةـ وـزـيـادـةـ سـرـعـتـهاـ. اـسـتـدـعـىـ الـقـفـالـ، رـجـلـ مـنـ الـحـرـفـيـنـ الـقـلـاثـلـ الـذـيـنـ يـتـقـنـونـ التـعـاـمـلـ مـعـ الـمـعـادـنـ، صـانـعـ آـلـاتـ لـاتـحـدـ قـوـتهاـ حدـودـ، عـقـدـ عـلـيـهـ آـمـالـاـ كـبـيرـةـ. -ـسـوـفـ نـسـمـيـ هـذـاـ الـمـحـرـكـ الـبـخـارـيـ (ـفـالـمـيـ)، تـخـلـيـداـ لـاـنـتـصـارـنـاـ فـيـ الـمـعـارـكـ يـاـ رـجـالـ.

قادـهـمـ إـلـىـ وـرـشـةـ كـبـيرـةـ لـإـصـلـاحـ السـفـنـ. أـخـذـنـيـ وـجـلـ مـنـ حـمـاسـهـ. هـنـاكـ تـعـاـوـنـواـ التـحـوـيـلـ قـطـعـ خـشـيـةـ إـلـىـ مـخـرـطـةـ. نـجـحـوـاـ بـعـدـ مـرـورـ نـصـفـ يـوـمـ؛ـ أـخـذـوـاـ يـصـنـعـوـنـ مـسـامـيـرـ إـضـافـيـةـ نـغلـقـ بـهـاـ الـبـوـابـاتـ الـجـانـيـةـ. بـدـأـ الـجـنـوـدـ يـسـتـخـدـمـوـنـ الـمـخـرـطـةـ الـجـدـيـدةـ لـقـطـعـ أـخـشـابـ الـقـوـارـبـ الصـغـيـرـةـ، لـإـحـكـامـ إـغـلـاقـ الـبـوـابـاتـ وـالـمـنـافـذـ. اـبـتـهـجـ الـحـاـكـمـ عـنـدـمـاـ رـأـىـ عـمـلـ الـمـخـرـطـةـ الـجـدـيـدةـ لـكـنـهـ سـرـعـانـ مـاـ تـجـهـمـ بـعـدـ فـشـلـ الـآـخـرـيـنـ فـيـ صـنـعـ مـحـرـكـ بـخـارـيـ جـيدـ. قـامـ باـسـتـدـعـاءـ الـلـورـدـ الـإنـجـليـزـيـ، مـاـلـ إـلـيـهـ وـحدـثـهـ بـهـدـوـءـ مـاـكـرـ.

- عليك المساعدة بما تملك من معارف لنجو. هنا العوام مسلمون، أي أنهم وثنيون لا يفرقون بين الإنجليزي والفرنسي والإسباني، عندما نكون على أرضهم مسلحين نحن مسيحيون قتلة بالنسبة إليهم. إن امتنعت عن مساعدتنا سيلقون بجثتك مع جثتنا في حفرة واحدة. وحتى إن أباقاك العثمانيون وأنقذوك من أيدي العوام إنما سيُيُقون عليك لغاية يعلمونها وحدهم.

تمتم التقىب وقد ضاق صدره: «وهل تأمن غدره يا سيدي؟» مدّ بصره بعيداً إلى القالة وصرفة. يظنّ الحاكم أنّ الرب أرسل ذلك الإنجليزي ليساعدنا، فصلعه يشي بعقريته. كدّتُ أجنّ، كيف يطلب من إنجليزي إصلاح المحرك البخاري فقط لأنّ الإنجليز أنقذوا صناعته أوّلاً بينما لا يتقنها سوى القليل مثـا. عقد الآمال لذا شدّ على كتفه وقال:

- أتدرى ثمن إخفاقك؟ رقابنا جميعاً! وإن أفلحت تحصل على كلّ ما طاب لك.

تصفحا، كانت ابتسامة اللورد غريبة حين جاء رده وقد أبطأ خطاه.

- يلزمـنا مرجلٌ لتسخين الماء وتحويـله إلى بخار، ومكبسٌ والعـديد من التوربيـنات؛ وللـحصول على البخار علينا إـحرـاق الفـحم لاـ الحـطـب.

قام الحاكم باقتياده إلى المخزن حيث يرصّي المواد المحجوزة. سار به نحو جانبِ مُعْتَمِ شديد الحراسة. قال اللورد السمع متـهـكـماً بعدـما ألقـى نـظـرةً عـلـى محـرـك إـنـجـليـزـي تمـ اـحـتـجاـزـه.

- يحتاج إلى الكثير من التحسينات ليعمل، يحتاج مؤشراً للبخار وغلافاً للأسطوانة ومضخةً جديدةً للهواء؛ ثم أنه لن يكون بوسعه دفع السفينة إلا لبعض الوقت عكس ما تظن يا سيدى.

سرعان ما تعرف السيد بلانشار إلى اللورد بعدما أقبل. قبل أسبوع قصد دار السلطان ليستقصي أخباره، حالفه الحظ وعرف سرّ الرجل. عصّه الندم لأنّه لم يحزّ عنقه يومها. قام من مكانه يغلي غضباً، وهم بالذهب؛ فلم يكن سوى الأمير ال هاري نيل الذي يتحل اسمًا مُستعاراً لينجو بجلده. سمح قبل سنوات قليلة للعثمانيين بملحقة السفن المسيحية التي ترفض تسديد الإتاوات. اتهمه الإنجلizer بالجبن والضعف. وأرسّل مجدداً لتحرير الأسرى. ملوك هولندا وإسبانيا وسردينيا منحوه رتبة الفروسية قبل سنوات. جمعية افتداء العبيد في فرنسا منحته ميدالية ذهبيةً بعدما دفع ثمن حرية ثمانية فرنسيين تمّ أسرهم مع بحارة إنجلizer وأعادهم إلى فرنسا. رغم ذلك ما زال الإنجلizer يحاولون السيطرة على موائنا في الجزائر. أراد حاكم الحامية استغلال وجوده لذا لم يتهمه بالتجسس. دُهشت، أردتُ ثييه، لكن سرعان ما أحجمت؛ فالإنجلizer عدوٌ متى كان حرّاً أمّا اليوم فعلينا التعاون، لكن هل يخطّط الرجل للعودة على رأس أسطول حربي؟ يرغبون في نيل الاعتراف بقتالهم كعميد للقناصلة المسيحيّين بدل قُنصلنا؛ أكانت هذه مهمّته عدا إتلاف المُحرّك البخاري الذي تمّ احتجازه هنا؟

في الغد تناقلت الألسن سرّاً أسماء الرجال الذين سيبحرون أولًا. لم ي Yas الحاكم. رغم عينيه المتعبيتين، مذ قرعت طبول الحرب لم

يغلقهما مرةً. ملأ رئته بالتبغ، شرع في التجارب، بذل جهداً كبيراً في شحذ همم الرجال. على عجلة أنزل إلى الماء سفينة مجهزة بالمحرك البخاري بعدما تم ربطه بعجلة مجاذفها. سارت السفينة أقل من فرسخ في الماء، ثم تم إيقافها لشدة حركته واهتزازها، خشية الغرق أو أن ينكشف أمرنا فتتعرض لهجوم من الريّاس. فجأة تعطل المحرك، وشبّت فيه النار. انتكس الحاكم، سقط جسده على الكرسي سقطة واحدة، بعدها ذاع خبر فشله، فحزن حزناً أمض قلبه وشفّ جسمه، وأقض مضاجعه وصيّر الحياة سواداً حالكاً في عينيه.

الأتليّه - ورشة الخياطة -

في الليل رسا قاربٌ على أطراف الميناء. نادى الرّسول، أجاب النقيب فخفض الحرس بنادقهم. تقدم وسط تتمّات: «تحفظ به أسيراً؟ نفاوض به؟» كان مثل حيوان أشعث كبير، على عجلة من أمره سأل عما إذا كانت الزوجة الجديدة لباس المُكافحة جاهزةً لتذهب رفقة.

رفض النقيب وقد لمح بمنظره مراكب تقترب؛ ورأى أن تخرج عبر طريق سريّ بعيد عن قنوات الماء لا يرتاده العامة يتّهي إلى حصن الجبل في اليوم التالي. على أن تكون عربةً في انتظارها. جنود العثمانيين يقفلون كل الممرّات، رغم ذلك دائمًا ثمة منفذ ما. تبادلنا النظارات فقد يكون عيناً من العيون أو مجرّد خديعة. صرفه لوراً فخرَ الرّسول على رُكبتيه خشية غضب سيده. طمأنه النقيب وحمله رسالة خطيةً ثم أبحر؛ اشرح صدري.

على مقربة صاح جنديّ، ذوى وهو يتشل جثثا عائمة لصيادين حاولوا الهرب. مددتها الجنود على الشاطئ.

بدت للمرة الأولى مارسيليا بعيدة جدًا عنّا. كدت أهلك كمداً يومها كسائر لا مقام ولا أرض له.

طابت لي القالة، لكن لم أعد أعرفُ لي فيها مبيتاً ولا مقيلاً، أرجو كغيري رجوعاً عاجلاً.

خيرُ البلاد ما حملكَ وها هي ذي القالة تلفظنا. شاع أنَّ العثمانيين ضربوا لنا أجلاً ثلاثة أيام؛ أو وعدوا فيه من تخلف عن الاستسلام بالهلاك.

راح إيفر يضرب ذراعيه عالياً موبخا الحراس. شعرنا بالهلع وكأنَّ الأمواج التي تتقاذف الجثث وتنقلب فوقها تمتد لتجرّنا جميعاً. بضربات ذراع قوية راح الجنود يوقفون عموم جثث أخرى. غادرني النّقيب نحو المستودع دون أن يقول شيئاً.

أسرجتُ الفوانيس؛ بينما وجدتُ السيد بلا نشار مُقبلًا. دفع دفتري الباب، أفسح الحارسان له الطريق. كان رجلًا مُهاباً الجانب، ثقيل الظل، ينعم بعطایا القُنصل والحاكم كأحد النبلاء. يهبه النساء، والمنازل ويعُدِّق عليه. جلس الواحد قرب الآخر؛ سأله لأنّي ألمّا مُبرحًا يحتاج جسدي بعد النّوم جالساً لأيام:

- لقد تخلصُ الحاكم من أوراق الحسابات، ألا يجدرُ بنا التخلصُ من المحرّك البخاري أيضًا؟

- ليس البرابر جهلهً يا فيكتور. عرفتُ هذا بعد رحلتي التي دامت وسطهم نصف قرن. لبستُ فيها زيَّ التجار والشيخ والصالحين حتى

أقرب من كل طائفة. لكنهم أيضاً ليسوا صانعي آلات مثلنا، حتى لو استولوا عليه لن يعرفوا سرّه؛ لأنهم لا يعرفون البخار كما يجهلون ما الآلة وما الفحم. وقد شبّت النار فيه ما عاد صالحًا لشيء!

- نصف قرن!

تنهد، لاح وجهه أكثر نحافة:

- شهدتُ الكثير، وممّا لن أنسى، ما شهدت قبل ست سنوات في قسنطينة، نهاية صالح باي. آه يا فيكتور! ليتك تعرف صالح باي. يومها خرجت إلى السوق ويدِي على مقبض سيفي خشية أن يكون ثمة من يريد رأسِي. قبلها بأيام كنتُ قاصداً حي الخياطين بعدما فرغتُ. افترحتُ على القنصل فتح ورشة للخياطة؛ نغرى فيها بما صنعه من أثواب نساء الآغوات، زوجات الرّياس وخدمات البايات؛ فنقوم باستدراجهنّ وجمع المعلومات منهنّ دون أن نثير الرّيب، تماماً مثلما استدرجا زوجة القنصل الصقلّي في أتلبيه باريسِي! في تلك الأيام هلك صالح باي ونجوتُ... وما تخلّيت عن فكري.

- أو كتبت عن قسنطينة قبل القالة؟

أخذ يلقي بشذرات الكلام:

- دوّنتُ الكثير عن القسنيطينيين الأشداء الذين شاركوا في طرد الإسبان؛ فصارت بقايا الحصون والمباني التي أقاموها لقرون مليئة بزبل طيور البحر. آه قسنطينة... هناك يُكرمون الغرباء والرّحالة. فيها من الدّور والمدارس ما هي مؤلّف للغرباء وموئل لهم ومستراح لكثرة العلماء والحكماء. لهم في إيواء الغرباء تقاليد، يعطونه المأكل والدرهم ويكسونه. أصلحوا نعلي، وهبوني المأوى والطّعام، ونظروا

في حاجتي. أهلها من كرام الناس ومن أحسنهم إقبالاً على الغريب، يحتملون هفواته، لبعد داره وشطّ مزاره. أنظرُ في المساجد إذا جنّ الليل، أنزع العمامة والرداء ثم أغفو أمّنا في بيت بلا مفاتيح. لم أكن أتحدث رغم أنّي أتقن الكثير من اللّغات حتى لا ألغّت انتباه أحد إلى. حتّى اليهود كنتُ أبادلهم الأحاديث بالعربية لا العبرية التي أتقنها أيضًا، فقد يُشُون بي إن انكشف أمرِي كما وشوا بالمسيح. أمّا المسلمين فأحذرهم خشية أن يُجهزوا علىّ كما يُجهزون على عيون الإسبان والملك.

توقف عن الحديث، اتسعت فتحتا أنفه، وجفّ حلقه. فكُررتُ في مرتع لهوي، لا يمكن للحرب أن تواري عنّي جمال تلك الإيطالية الغضّة يوماً آخر. مده الجندي بجرة طويلة العُنق ارتشف منها ببطء جرعات متقطعة؛ ألقاها جانبًا وأمر بكأسٍ من المشروب الفرنسي يرطب التصاق حلقه.

- اعتزلتُ الأعوان يا بنّي وصرتُ أحد السباحين في الأرض، يرافقني يراعي وحده، فكُنْتُ تارةً كاتباً أصيلاً وتارةً أخرى مجرد جامع أخبار أراكم ما أسمع على ورق. لا ألف مكاناً إلا وغادرته. مررت الأيام وعدتُ إلى قسطنطينة قبل سنة. حين دخلتها كانت قبائل النّمامشة والحرّاكنة شمال الأوراس قد اتحدت وتمرّدت على البasha، فسار الوزنaggi إليهم وأرغمهم على الخضوع. سيتجدد التمرّد هنا وهناك، قبائل الشرق والغرب والجنوب تتناحر؛ يخسرون في كل تمرّد الرجال والمواشي والمحاصيل، بينما يخسر البasha عدداً من الجنود.

تأملته الليلة وقد أطلق الشوارب، مرتدِيَا قميصا أبيض وبنطالاً أسود، واصلنا تجاذب أطراف الحديث بعيداً عن آذان الرجال.
أشرقت أساريره.

- كم سيكون عظيماً أن يضمّ بونبارت هذه الأرض إلينا.
أومأتُ برأسِي، ظلتْ كلماته تضجّ في ذهني. مثله لم يسبق وأن رأيتُ سهولاً كسهول مَيَّةَجَة. في جيجل وعنابة وبجاية الشعير والجوز والتين والزيتون وأجود الأخشاب لدار السفن. أمّا الصحراء فسهلٌ شاسعٌ من الرمال الذهبية لا أعرف له حدوداً. القمح صلبٌ كثير الدقيق، شرقاً وغرباً يكثر الأرز والكتان الممتاز والتبغ الجيد والذهب الكثير. نعرو الأرض ثم نوقف نسج الزرابي والأقمشة في تلمسان وتطريرز الملابس في قسنطينة والجزائر، نشيد المعامل بالمعازل الحديثة، فتصنع الشواشي الصوفية والمحارم الحريرية المذهبة والمفضضة والمصنوعات الجلدية والأحذية. لا تُوجَد هنا آلاتٌ، فقط ثمة ورشن لسك النقود وحظائِر لبناء المراكب ومحاجر باب الواد ومصانع قليلة للأسلحة والذخيرة، وعددٌ من المطاحن التابعة للبشايا أو البaiات.

الصناع هنا لا يعرفون شيئاً عن قوّة البخار أو الفحم الحجري أو مناجم الحديد والنحاس والزرنيخ والعقيق وحجر البلور والرصاص الجيد والرخام. النجارون والحدادون والحفارون والشقاقيجة والجلابون والحوّاكون والفحاريون والبناؤون والذوّاقون والكواشون والجزارون والصوابينيّة والدخانينيّة والغرابيّة والحفاقون والصبااغون والخيّاطون؛ كُلُّهم... كُلُّهم يستعملون أدوات يشترونها من سفناً الأوروبيّة.

قُمْتُ، جلست يساره، ليفرغ كل ما في جعبته. احتضن يدي بين يديه، أخذ جسده يروح ويجيء وكأنه يتراجع على ظهر دابته.
- أدَّونَتْ كُلَّ رحلاتك يا سيدِي؟

- كبرتُ يا فيكتور على ذلك الموت بات وشيكًا. رغم أنني
كنتُ مؤلف أناشيد وشعر جيد باللاتينية!

أسرج الحرّاس أكثر من فتيل وأضاؤوا المكان. شرع جنود متأنقون في توزيع قطع من لحم البقر المحمّر، وأرغفة من الدقيق الأبيض، أطباق من الخضروات والأرز والبيض والجبين وأكواب من اللبن والنبيذ وشراب الشعير للأصحّاء.

زمّ السيد بلانشر شفتيه مُمتنعاً عن الطعام بسبب مغصٍ يذهب ويجيء.

في المستشفى ابتلع جرعاتٍ من زجاجة منحها له الطيب بيرتران؛ تمدد على مفارشٍ حريرية بيضاء مُتقنة التطریز، هجره النوم فتركَتُ الفراش وسرتُ نحوه، وقد بدا لي أرعنَ بعض الشيء، ما جعلني متربّداً بين الامتنال لوصيته والمعاندة وتقصي أمره وكتابة تقرير إلى المراسل العسكري ليسير في إثره. لقد أثار العجوز شوكوكي وعسى ألا تكون صحيحة. أوّما لجندي كان منزويًا؛ فمال إليه وأخذ يكلّمه بكلام لم أتبّنه. أصحّيغ ما يُثار عن الرجل وحبه للغلمان؟ لا أظنّ! بعد لحظات راح الجندي بلطفٍ يدلّك عظامه المتعبة وقد أراح جسده وذراعيه، ثم صرفه.

- اعلم أن لديك ابنًا يشدّ أزرك في هذه المحن سيد بلانشر.
راح يتنفس بملء منخريه.

- آه يا فيكتور، كل ما كان يجري في الجزائر كنتُ أعرفه قبل حلول المساء. راق لي أن أخبرك يابني هذه القصة قبل أن أنسى أو أقضي؛ قبل ثلاثين سنة ونيف، بسط الأميرال فابيان بينيو الخرائط وحدد مسارنا من مارسيليا إلى سواحل إسبانيا ثم الجزائر، كما حدد الطريق التي سنعودُ منها والطريق التي سنسلكها إن تعرّضنا لهجوم؛ يومها كنتُ أدعى خورخي.

- خورخي !

- اتحلتُ اسمًا آخر للسلامة. تقدّمنا رافعين الرّاية البيضاء، حتى نحمي الباخرة من السفن والمدفعية. كنّا بحاجة إلى وصفٍ للمنطقة على امتداد ثمانية عشر ميلًا، في كل الاتجاهات. اقتربت باخرتنا من الجزائر، سارت ببطءٍ، مع مطلع الفجر غيرت الرياح العاتية مسارها. سحبَ الشّراع وتوقفت على بعد عشرين ميلًا. أخذت قاريًا صغيرًا وتقدمت وحيدًا نحو الشاطئ باحثًا عن نقطة يمكن إرساء الباخر فيها دون لفت انتباه الحرّاس. حذّرني الأميرال: (فلتأخذ هذا التصرّح حتى لا تُعامل معاملة المراكب العدوّة؛ إن انكشف أمرك سيطردون القنصل ويحرّبون مراكننا التجارية. هذه زجاجة صغيرة؛ جُرعة من هنا ستندنك من الأسر. اتبه يابني ولا تتجّرّع منها إلا عندما تُقرّر النّجاة بشرف من أجل أمتنا). كانت تلك المرأة الوحيدة التي خاطبني فيها ببنيّ بدل خورخي. أوه يا فيكتور! منذ ذلك الزّمن البعيد تغيّر الكثير. لقد تم تعزيز حصن ماتيفو ومصب نهر الحراش الذي كنّا نُخطّط للإنزال فيه. يومها هبت ريح يونانية أخذت قاريبي إلى أبعد مما توقعت. احتلّت على الاتجاهات، امتلاً البحُر برائحة الدخان والبارود...

- ماذا حدث بعدها؟

- كم كنت محظوظاً. عدت آخر الليل وقد عزم الأميرال على العودة دُوني. لم أكن قد اقتربت واكتفيت بالمشاهدة من بعيد. أشرت إلى أن المكان مناسب للإنزال لقلة حراسه صيفاً.

كانت القصة تنوء بوطأتها على كاهلي كالسكين الذي ينكاً جرحاً قدّيماً كانت كلماته؛ وأمسّيت ضائعاً كالرجل الذي فقد محسولاً أو كالرّبان الذي أضاع سفينته. ظل سؤالٌ كبيرٌ يقضّ مضجعي، هل السيد بلانشر من رجال الأميرال؟ أم من رجال الملك؟ أمضيتُ قربه ليلةً أخرى مؤرقاً. من مخلاته أخرج مُسدساً ذا عيار خفيف، محلّى بصفائح فضية تحمل زخارفَ منقوشة وقطع مرجان. أخذ يُنظف ماسورة زناده، يلمع حامل الماسورة والأخصم الخشبي. مددْ نحوه وهو يُحدّرني من صديقي الإسباني ديبغو ومن خادمي الإيطالي فيتالي قائلاً:

- لا تيق في ذلك الإيطالي ذي الأنف الكبير والركبتين المقوستين.
التحادت كلّ أوروبا ضدنا بعد الثورة، بينما توطّد وفاء هؤلاء البرابرة
لنا، اعترفوا بالجمهورية فور الإعلان عن قيامها ومددوا لنا يد العون
والصداقة، منحونا قرضاً دون فائدة بينما كان الأوروبيون المسيحيون
يُحاصر وننا كالتيوس !

- إنهم لا يحترمون لا العذراء التي نؤمن بها ولا القديسين ولا رب.

لم ينجح هذا الرجل الورع في تبديد هوا جسي، رغم كلّ ما أسرّ لي وهو يهديني صندوقاً صغيراً فيه محفوظاته ورسائله. اعترضتني

تقليباتُ روحِي المُعذبة فلم أصدقه تماماً. عاد الجندي إلى قاعة العلاج بمريضٍ جديدٍ أنهى خلوتنا. صرخ الهرطوقى بتنزقٍ من بعيد متلعثماً وهو يصرّ على أسنانه:

- ألقوا المدافع بالقذائف، سيلٌ من الجُند يتدفق...

قهقهة عالياً بضحكةٍ صاحبة كصلصةٍ تفجّرت. ضربه الحارس بکعب البندقية فأوقعه أرضاً، حتى لا يخفِّ المرضى. كان الهرطوقى شاباً ممشوق القامة، أضاعت المعاركُ عقلَه، بوجهٍ بُرونزى يُشَبِّه بهلوان الحال الذي رأيته مرّة في لشبونة، يحمل شقاً في شفته العلية، كلما سار عرجت قدّمه إلى اليمين درجتين.

منقبض الصدر، بإنفاسٍ متقطعةٍ عدل السيد بلا نشار وضمه.

- ليس الإيطاليون أفضل من الإسبانيين أو أفضل من هذا المعtoه أمامك، كُلُّهم دُخلاء، مجانيـن، ستلفظهم أرضُ إفريقيا، فقد عرفناها قبلهم.

زاغت عيناه، أطلق الشتائم، بصدق جانباً، ثم أشاح عنّي ينظرُ عبر النافذة. وقد ضعفت همّته، قال:

- لا تثق في أيّ مسيحيٍ من غير الفرنسيين يا بنيّ، ولا تثق في أي يهوديٍّ مهما كان جيداً يا فيكتور.

الهرطوقى

طال الحصارُ أيامًا وقد يمتدُّ لأسابيع أو أشهر. لا سفينة تحرّك في الميناء سوى مراكب شراعية فارغة تترنّح. في نهاية الممرّ بين الأسرة والمرضى لمحتُ جنديّين وهما يقتادان الهرطوقى الذي بدأ

مسترخيًا بعدما تناول المشروب المهدئ عنوةً. بقي حارسان أمام خزانة الأدوية. مشى خطوات في الرواق ثم رفع يديه عاليًا، قائلًا بعيينٍ واسعتينِ دون أن يُغمضَ له جفنٌ:

- سنةٌ مرّت على غزو نابليون مالطا. سقطت فاليتا. هزم منا فرسان القديس يوحنا ثم افترقنا. واصل هو نحو مصر وجئتُ أنا إلى هنا. عليكم إظهار الاحترام والولاء لي. انهضوا هيأً ولا تجلسوا مثل حيواناتٍ تخفي رؤوسها.

كتم بعضهم الضحكات. خفض صوته درجةً:

- لكن ماذا لو عاد بونابرت مُصاباً بالنقسر أو البليهاريسيا من مصر أيها الطبيب بيرتران!

ضحك هيوجز الماجن وروبير والرجال المصطفون في حلقة خارج الرواق. لم أضحك، كنت مثل المغلول إلى سلسلة، عاجزاً عن فعل أي شيء. دفعه الجنديان خطوةً إلى الأمام ليلزم الصمت. وخزه أحدهما في استهجان مرتين، هممث بالمعادرة مُشفقاً على جزعه الذي ذهب بعقله.

واصل الرجال جولات الحراسة. بين الفينة والأخرى تنطلق شائعة، سُفنٌ تُضاءء وأخرى تتحرّك خلسةً. ظلتّ أصواتٌ تَتَنَاهي من القالة إلينا. وأخرى من البحر كأنها صرخاتٌ مُنتصرین أو قذائفٌ تُشَطِّرُ أسوار الحامية وأبوابها. حدقتُ عبر كُوّة الباب، وشقوق الأسوار بعيون مُتعَبة. اختفت الحقول التي كانت تنبسطُ أمام ناظري. لم أَرْ غير ليلة سرمدية أخرى. إنسلَ جسدي واختفى، عُدّت أدراجي دون أن ألفت انتباه أحد.

في الليل دخلت غرفتي هرّبًا من شخير الصيادين ومن زوجة مُمَلَّة. نظرتُ إلى نفسي في المرأة. تحسّرتُ، بالأمس كنتُ فيكتور دي أوغو، تاجرًا من كبار تُجّار المرجان المارسليين بعدهما أديتُ خدمتي في سلاح البحريّة؛ رجلاً نبيلاً، حليقاً، رائقاً، غندوراً، مُتأنّقاً في ذوقه، صديقاً لكيان الضيّاط والتّجّار ورجال البُنوك. أمّا اليوم فأأشبه جُندياً هاربًا. غيرتُ ملابسي، ارتديتُ سُترةً وبينطالاً ضاربًا إلى الخُضرة. لبستُ حذاء عسكريّاً آخر لأبقى مُتأهّباً إذا ما نشبّت في اللّيل معركة. انحنىتُ فوق الشّمعة، نفختُ فوق الفتيل مرّةً، مرّتين، انطفأتُ، فتلمسّتُ طريفي إلى السرير. انسحبتُ نحو فراشي من جديد، قُمْتُ بدسّ جسدي تحت دثارٍ خفيفٍ، وحيداً دون امرأة جميلة. وأنا أستقرّ تحتهُ شعرتُ وكأنّني أستقرّ في دثارٍ من الجحيم. كنتُ أودّ لو أطلق العنان لنفسي كما يفعلُ الهرطقيّ، لكن لم أستطع. شعرتُ بالجوع يفرضُ بطني، أدرتُ ظهري وغفوتُ.

في الغد لا أحد رضي بأن يكون رسولًا يتَبَيَّنُ ما يُبَيِّنُ البai والبasha لنا. فكّر حاكم الحامية في أن يُرسل رسالةً مع التّجّار اليهود الذين سيتّمُ تحريرهم، يطلبُ فيها من البai ضرورة احترام المعاهدة المبرمة، والسمّاح لنا بالإبحار نحو موطننا. دبتَ الحياة في الرّعايا وقد انتشرت شائعةُ الصلح. عدلُ الحاكم عن الفكرة، فقبلُ الحرب اكتشفَ مُحاسبو البai أنَّ الوكالة لا تدفعُ كلَّ الرسوم المترتبة على عمليات التّوريد والتّصدير، وأنَّ الأسعار التي تُقدمها غير مُطابقة للأسعار المُتفقّ عليها؛ لذا لن يسمحوا لنا بالإبحار قبل تسديد الديون.

في الصباح الباكر قصدت مكتب النقيب الذي كُلّف بتقديم يد العون لي أثناء أداء مهمّاتي. أقبل مُسرعاً على حصانه مُتحنناً إلى الأمام، بينما يتطايرُ التراب والحصى من حوافره. ترجل، حفّه الجنود مشنّى مشنّى. بعد اللقاء استطعت إقناعه بتجربة الممرّ الغربي عبر دفع أحد رجالنا.

- لا تكلني إلى رأيي فأحار، ولا تخربني فلست أحسنُ الاختيار. ذهبت إلى الزنزانة، عاينت الرجال. في طريق عودتي راح الهرطوقي مُتحدّثاً بين الجموع، معلّناً أنّ (نابليوني دي بونابرتى) هو حتماً الرجل الذي تنبأت به ترانيمنا وأنه سيقضي على الباشا القرصان عدو المسيح، ويحل محله، ثم يصير نصف إله بعد أن يغزو كلّ أوروبا، بعد حرب مليئة بعظيم الأخطار وجسيم الصعب. لذا عليهم أن يجهزوا وفداً من الفرنسيين ويهبّوا أنفسهم ليتوجهوا إليه ويمثلوا أمامه بشباب فرسانٍ بيضٍ، ويستقبلوه بالتبجيل والترحاب. سار خطوة، انحرفت ساقهُ درجتين يميناً، دار دورة حول نفسه، كاد يقعُ، حرك رقبته مرتين، بحدّة هزّها، ثم قال:

- أيّها السيدات والسادة، دعوني أتنبأ. ملازمُ أولٍ يصبح إمبراطوراً، هاهاماً. نابليوني دي بونابرتى سيُصبح إمبراطوراً، أجل، أجل، وسيُدكُّ الجزائر دكّاً دكّاً.

شدّ على يده، سقط شعره المقصوص إلى رقبته مُغطّياً نصف وجهه. قال بعزم وكأنه حاكم القالة!

- جهزوا وفداً لاستقبال نابليوني الليلة. و... واطردوا هؤلاء الخائفين الجالسين كجثث أبقارٍ مُتَفَسخة.

مَدْ أصابعه وضغط على طرف منخريه بقرف. رفع يده الأخرى
عالياً مُعاهاً نفسه أن يحمينا جميعاً. ثار غضبُ العريف وطلب بإلقائه
في زنزانة الزنوج فلا يجدُ مَنْ يُبادِلُه الحديث، إلى أن ينظر في أمر
خبله. لَثَمَ الهرطوقى يده بكىاسة طالباً العفو. وحين شدّها منه بدأ
يصيغ:

- لقد خُنتَ الجمهوريَّة أيها العريف. أليست بنادقها وبارودها في
البحر، خائن، خائن!
أخذ يطلق الصيحات بينما يجُرُّه جنديان قاماً بتكييله فسقط.
انطلقت القهقهات.

كان الهرطوقى صانع شباك وغطاساً قبل أن يلتئم عقله، مشهور
بين الصيادين بقصصه العجيبة، ينام في فراشه فيرتفع عالياً في الهواء.
أخذ يُغنى الأغنية الشعبية الأشهر خلال الثورة «سيكون كل شيء
على ما يرام» لِمَا تحمله الأغنية من ذكريات قديمة لشحذ الهمم قُبيل
الذهاب إلى الحرب. يتوقف ليتلو شيئاً من أشعار فيرجيل! يعود
منْعماً لكلماتٍ أخرى... دا... دا... داء، يتوقف. يقضى شيئاً من
الفجل البري ويقلد نبرة نابليوني. ساد الهرج والمرج المكان. صاح
والدموع يغمُر مآقيه:

- آخر جوني من هنا. أهملت حضور القدس منذ زمن طويل،
أريد النّجاة، آخر جوني من هنا...
في الليل أطلقت سراحه، اقتربت منه، وقد وجدت فيه رجالاً
مُسلياً. مصمص شفتيه ثم همَّهم. قلت:
- اهرب...

- من أنت؟

- أدلك على طريق للنجاة؟

رغم خبله كان يراقب كل شيء يدور حوله. تحدث كما لو كان رجالا آخر.

- أتقدّمُني كقربانٍ لِتختَبَرْ سلامـة الطريق؟

- بل لِتختَبَرْ سلامـة الطريق وتنجو!

- لم لا تدفعون بذلك اللورد الإنجليزي!

- أندفع بـرجل ذي رتبة عالية فيذبحونه ويعلّقون لحمه مثل ذبيحة طازجة؟! أما إن وقعت بين أيديهم تُصيّحُ أسيراً يطالبون بالمال لـتحريرك. يُحبّون المال، لن يجنوا من قتلك أنت شيئاً!

استمع دون أن ينـسـيـنـت شـفـةـ. دـحـرـجـ عـيـنـيـهـ فـيـ مـحـجـرـيـهـماـ مـرـتـيـنـ.

- هناك صيادون كثـرـ غـيرـيـ!

- أذهب لـغيرـكـ إذـنـ، أـعـطـيـهـ هـذـاـ الـكـيسـ مـنـ الـمـالـ، وـأـدـلـهـ عـلـىـ الطـرـيـقـ يـخـتـبـرـهاـ، إـنـ وـجـدـهـاـ آـمـنـةـ تـسـلـلـ وـأـفـلـتـ، وـإـنـ وـقـعـ فـيـ الأـسـرـ نـفـذـ مـنـ الـمـدـافـعـ التـيـ سـتـدـكـ أـسـوـارـ الحـامـيـةـ غـداـ. فـيـ سـجـنـهـ نـعـمـ بـالـأـمـانـ وـالـطـعـامـ، أـشـهـرـ وـيـتـجـدـدـ الـصـلـحـ، يـدـفـعـ القـنـصلـ ثـمـنـ حـرـيـتـهـ فـيـعـودـ طـلـيقـاـ.

- اـنـتـظـرـ، اـنـتـظـرـ...

- خـذـ، تعالـ، أـنـصـتـ... لـأـتـأـخـذـ الطـرـيـقـ المـعـتـادـ، عـبـرـ هـذـاـ الجـانـبـ المـهـدـمـ مـنـ الـجـدـارـ اـرـفـعـ السـيـاجـ، وـاـصـلـ بـعـدـ أـنـ يـهـبـطـ الـظـلـامـ، سـتـجـدـ نـفـسـكـ عـلـىـ طـرـيـقـ خـارـجيـ أـسـلـكـهـ.

تابعني بنظراته مُتفرّسًا، في الليل انطلق. صباحاً حين رأيته كان رأسه مائلًا على جانبه، بجسده هامدٌ تَحُطّ عليه الطيور الجارحة لتقنات وقد قذفوا به أسفل البوابة. قتلوا الهر طوقي المسكين وكأنه عين من عيون الحاكم، فعرفتُ أنّ الطريق لم يكن سالكًا. ما أكثر ما لا أعرف. حينها شرعتُ أفكّر في طريقة أخرى لهروب إيزابيل وآلّة الخياطة.

الحفلة

قبل أشهر، حين كُنّا في رغد عيشٍ وطيب حالٍ، كانت إيزابيل تصحبُ عائلتي كمُدّيرة منزل، كمعلمة لابنتي ثم كمساعدة لي في ترجمة الرسائل. امرأةٌ من أجمل النساء، تفوق زوجة نابليون جمالاً وتتفصّلها حظاً. تُطلُّ بوجهٍ دائريٍّ مُتورد الوجنتين، تتوسّطهما شفاهٌ بلون الكرز، خلفها أسنانٌ حسنة التَّنضيد. مشوقة القامة، بخصرٍ رفيع وبشرة نضرة. تُعطي بشاليٍ من المحمل شعرها الأشقر الكثيف. تتألق بثوب فرنسيٍّ من الأقمشة الدّارجة. لا تتجاوز الثامنة عشرة، بهية شهية، لا تُشبه الفتيات اليونانيّات المتحرّرات بأثوابهنّ القطنية الرّقيقة، اللّواتي أطلقتهنّ الثورة الفرنسيّة ونشرتهنّ في الصالونات. كعادتها تأنقت وسارت إلى الحفل. وبهو الحاميّ يعجّ بطلايئ المدعويّين، في الرّدّهة اصطفَّ الحرس والعازفون في كامل أناقتهم. يعمّ الوافدون جماعاتٍ جماعاتٍ. في الدّاخل لقاءاتٍ واحتفالٌ وسمّرٌ. نبلاءٌ وضيّاطٌ، موسيقى ورقصٌ وغناءٌ في حفلةٍ وكأنّها مهرجان. طعامٌ وشرابٌ وفير، طهاهُ ومصيفاتٌ وسط حشيدٍ من الضيوف العثمانيّين.

كان باش المُكافحة يُبادرنا الود والصداقة. من حين إلى حين يصرخ محتفياً «عاشت الجمهورية»، وينخرط في ضحكت صاحب. انطلقت أحاديث عن السلم والأحلاف، عن التجارة والأسعار، وأخرى عن أبناء غير شرعيين لمسؤولين في الحكومة، وآخرين لم ينخرطوا في الجيش، عن العُرف الذي لم يُعد مُتبعاً، عن مدّعوين غائبو، وآخرين حضروا دون دعوة. كما تحدّثنا عن أسرٍ صار أبناؤها ذوي ثروة، وأخرى فقدت ما تملك من سطوة.

استعرت مُناقشات، عن مساواة المواطنين وحرية القول والصحافة وحقوق الإنسان.

امتدَّ الوقت، ارتفعت قهقهات، رص الخدم الطَّعام على الموائد الموشأة بالأغطية الفاخرة. عليها رص الطعام، خراف مدهونة محمّرة، أرز بالدجاج المُتبَل، ورق عنب محشي بلحם الضأن، الدُّولَما، باذنجان مقلبي وطماطم حارة، وخبز مقرمش. ألوان من الفواكه والمشروبات.

أصيب الرجال والنساء بالخبل بعد تناول الجمعة، غشيت الشّوّفة العشرات منهم فرقعوا حتى تهالكوا من الإعياء. طفت الأحاديث والنّيمية السياسية مُجددًا.

— لقد أنزلوا رُتبته من ضابط إلى جندي!

تصلني بعضها بالفرنسية، بينما يُستذكر الرجل حفلات الأوبرا التي كان يتربّد عليها في باريس، ولقاءات جمعته مع النّبلاء والدُّوّاقات ورجال تميّزهم رفعهُ النّسب والرّتب.

أقبلت إيزابيل مثل أميرة، ترفل في ثوب أحمر مُوشى بالخرز والزهور. مُتصبةً الظهر، تتلألأً رقبتها ويدها بالجواهر، مع زينة باريسية وحقيقة أنيقة. ألقـت التحية وكأنـها تسـألني بنظراتـها. أهـذا هو باش المـكـاحـلـيـة الشـهـيرـ؟

هم واقـفـاً، وانـحنـى احـترـاماً لـهـا. عـقـلتـ الـدـهـشـةـ لـسـانـهـ، تـأـمـلـتـ تـكـوـيـنـهـ المـتـينـ، وجـهـهـ المـتـفـغـخـ قـلـيلاً، طـولـهـ الفـارـعـ، بـشـرـتـهـ الـبـيـضـاءـ، يـدهـ الـمـحـمـرـةـ، وـشـعـرـهـ الـمـقـصـوـصـ إـلـىـ الرـقـبـةـ.

- إـيزـابـيلـ، مـسـاعـدـتـيـ الـخـاصـةـ، بـمـقـامـ اـبـتـيـ.

- تـشـرـفـتـ بـكـمـاـ سـيـدـ فـيـكـتـورـ. ماـذـاـ تـفـعـلـيـنـ إـيزـابـيلـ؟

- أـعـلـمـ أـطـفـالـ التـجـارـ الـلـاتـيـنـةـ وـالـفـرـنـسـيـةـ أـيـامـ الإـثـنـيـنـ وـالـلـاثـلـاثـةـ وـالـأـرـبـاعـ وـالـخـمـيسـ. أـنـقـلـ الـكـتـبـ منـ لـسـانـ إـلـىـ لـسـانـ أـيـامـ الـجـمـعـةـ وـالـسـبـتـ وـالـأـحـدـ.

تفـاـخـرـتـ:

- تـنـقـلـ الـكـتـبـ عنـ أـصـلـ الـمـعـنـىـ بـالـلـاتـيـنـةـ وـالـيـونـانـيـةـ أـيـضاـ، فـمـاـ اـكـثـرـ الـكـتـبـ وـمـاـ أـقـلـ الـتـرـاجـمـ!

- لاـ أـصـعـبـ منـ نـقـلـ الـكـتـبـ منـ أـمـةـ إـلـىـ أـمـةـ، منـ زـمـنـ إـلـىـ زـمـنـ اـخـرـ، فـنـرـثـهـ بـلـسـانـنـاـ وـنـنـظـرـ فـيـهـ.

- إـنـهـ حـرـفـ وـصـنـعـ تـفـوقـ صـنـعـةـ الـتـعـلـيمـ صـعـوبـةـ.

- ماـ كـلـ منـ آـنـسـ منـ نـفـسـهـ الـقـيـامـ بـهـ قـامـ. أـطـربـنـيـ إـعـجـابـهـ بـهـاـ. أـخـذـتـ أـحـدـهـ عنـ التـجـارـةـ وـالـخـيـولـ وـالـكـلـابـ وـالـعـربـاتـ وـالـصـيـدـ. شـكـرـتـ رـفـقـتـهـ، اـسـتـدـرـجـتـهـ إـلـىـ صـدـاقـتـيـ بـمـاـ يـلـيقـ بـالـوـجـهـاءـ.

استأنفنا الحديث، باعَدَ بين ساقيه الصُّخْمَتِينِ، وَظَلَّ يَنْقُلُ بَصْرَهُ
بَيْنِ وَبَيْنِهَا إِلَى أَنْ غَادَ.

- كم أنت لَبِقُّ، وممتع الصُّحْبة يا فيكتور!

- أنا رَجُلٌ لكَ أَنْ تَسْكُنَ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ.

- تلك ضَالَّةٌ نُدْرٌ مَا ثُوِّجَدُ.

- الصَّدِيقُ، آخرُهُ هُوَ أَنْتَ.

- صَدِقتَ يا صَاحِبِي، هاهاها!

رَأَفَنِي إِطْرَاءَهُ، وَمَا صَارَ بَيْنَا مِنْ مَوْالَفَةٍ وَمَشَابِهَةٍ. مِنْ الْوَقْتِ، بَدَأَ
الْمَدْعُونُ يُغَادِرُونَ الْحَفْلَ الْبَهِيجَ.

- آمِلُ أَنْ أَرَاكَ.

- أَزُورُكَ قَرِيبًا.

أَدارَ ظَهَرَهُ لِلخَادِمِ وَغَادَرَ. بَعْدَ أَيَّامٍ بِأَمْرِ مِنْ الْقُنْصُلِ زُرْتُهُ. تَوَدَّدَتْ
إِلَيْهِ بِالْهَدَائِيَا. وَهَبَتْهُ مُسْدَسًا مُرْصَعًا بِالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَآئِيَةً ذَهَبِيَّةً،
وَمَجْمُوعَةً مِنْ السَّجَاجِيدِ، وَآئِيَةً خَزَفِيَّةً صِينِيَّةً نَفِيسَةً، وَأَصْصَنْ زَهُورَ
نَادِرَةً، وَحَمَاماً أُورُوبِيَّاً، وَكَلَّبًا مِنْ سُلَالَةِ كَلَّابِ الْمَلِكِ. حَمَلَهَا
الْمَرَافِقُونَ خَلْفِيَّ وَوَضَعُوهَا عَلَى سَبْعِ عَرَبَاتٍ تَقْوَدُهَا أَجْوَدُ الْخُيُولِ
نَحْوَ دَارِهِ.

- أَهَلاً أَهْلاً فِيكتور العزيز!

صَرَفَ الْمَقَامِرِينَ بِاَكْرَاهٍ. تَوَالَّى الْمُغَادِرُونَ رَجَلًا بَعْدَ آخَرَ.

- لَمْ أَخْسِرْ يَوْمًا مُقَامَرًا!

- أَصْرِفُهُمْ لِأَنَّكَ ضَيْفِي الْلَّيْلَةِ، نَجْتَمِعُ فِي يَوْمِ آخَرِ وَنَقَامِرُ.
أَمْرَ الْخَادِمِ فَأَخْرَجَ مِنَ الْقَفْصِ نَمِرًا صَغِيرًا، أَخْذَ يُلَاعِبُهُ وَكَانَهُ قَطًّا.

- الصّحّة رِقٌ يا فيكتور، وهأندًا أضع رقبتي بين يديك، كما يضع
هذا النمر رقبته بين يديّ، هاهاها... .
- النّفّس يتبع بعضها بعضاً، لا تَنْفَرِد عَنِّي لا أنفرد عنك.
- قُم ...
- إلى أين؟
- لم أرافق يوماً صاحبًا قُلت له قُم فقال إلى أين! هاهاها، أنت فرنسي، لا يمكن أن تفهم هذا المثل، هاهاها.
- بل أقوّم، وأرمي بالعداوة من رماك.
- هاهاها، كم أحبّ دهاءك!
- منقلب السّحنة قال:**
- إنك أول من أبّث هذه النّجوى يا فيكتور. قد أرسل خارج البلاد.
- أريد تعلم الفرنسيّة، عندها أستطيع الذهاب إلى باريس دون أن أرطّن.
- أساعدك في كل ما تقتصي أمورك، هل أرسل لك معلماً؟
- أتبيّن الأمر وأخبرك.
- أرسل رُفقة إيزابيل، تعلّمك كيف تَخُطُّ وتنسخ الحرف الفرنسي واللاتيني.
- قرّيباً، قريباً، أتبيّن الأمر وأخبرك.
- نادي الخادم، أمره برفع الكؤوس، ثم قهقه قائلًا:**
- انتظر، انتظّر. أفرغ في جوفك بقايا الأقداح أمامنا. هيّا، هيّا، كما تفعل عادة بعد أن تغيب عن ناظري، هاهاها... .
- كان الخادم قصيراً القامة، ذا شعر أجدع، وشاربين حمراوين مثل فراء الشّعالب، كثيin مُلتفين نحو الأعلى.

- إلى بزجاجة، لا تأكل بقايا الطعام، ألق باللحم إلى النمر وإن
جلدتك أيها النّهم. لا تسأَلَنَّمَ فسائل الدردار، إنه خادمٌ سيءٌ!
انحنى الخادم يجمع حطام عظامٍ تركها النمر داخل قفصه مُتناثرة.
ضرب باش المكاحلية المائدة بيده.

- أصغ يا فيكتور، أدفع لك خمسين فرنكًا أو مئة إن أرسلتَهُما
عَدَّا.

أشرتُ برأسِي أنَّ نعم.
- يُرتبّان بعض الأمور ويلتحقان بك بعد أيام.

المعلمة

في هدأة ليلة مُقرمة أقام حاكِمُ الحامية حفلةً على شرف المعاهدة
الجديدة. تصنّعنا الإصغاء إلى خطابه، راقبنا زيف الأوروبيين الذين
أوفدوا ممثّلين عن السّفراء يحملون التمنيات والتهاني. حضرت
إنزابيل، راح عددٌ من الفرسان والمسؤولين يتنافسون للفت انتباها
بحذر ويقظة. وقع بصر باش المكاحلية عليها بينما يُحدّثني. أقبلت
تخطو في كامل أناقتها، بشعير مرفوع تحت قبعة ملكية صغيرة على
الجانب، وفستان أزرق على الطراز الإغريقي الرائع بين النبيلات
والباريسيات. مشت مشيّة مُتنزنةً. شقت طريقها بين صفي المقاعد.
خلعت معطف الفرو. انتصب بقامته الفارعة، تقدم إليها وجلاً، مال
إليها وأخذ يُحاذثها بالكلمات القليلة التي يُجيدها بالفرنسية. مرر يده
بِطْءَ على لحيته الطَّويلة، احتفظ بأخرى فوق سيفه.
- شديد الأسف يا صديقي، مُضطر للمغادرة.

انصرفتُ، تبادلاً أطراف الحديث ردحاً من الزمن. في آخر الحفل انحنى مُقْبلاً يدها بوقارٍ. أبقى يدها بُرْهَةً بين يديه. أنتظركِ، قال مشرق الوجه، وخليّ الفكير غادراً. ابتسمت جواباً، سرت رعشةً اشمئاز في جسدها.

بعد أيامٍ مأدبة عشاءٍ لكتار تُجّار المرجان والقمح وقادة الفرق والخيالة والنبلاء وأعيان القالة، ووجه إليّ دعوةً بنفسه. أرسلت إيزايل لتنوب عنّي مع مُساعدي الإيطالي فينتالي وتحجّجت بالمرض. ضرب الحوذى الحصان. ارتفع السوط مرّتين، توقفت العربة. نزلت إيزايل غير بعيد عن ثكنة الإنكشارية. دخلت الحفل، راقفتها عيناه دون أن يكتثر لكونها أرملة باريسية في سن مبكرة. كان القصر مؤثثاً بمفروشات فارسية، أقمصة دمشقية، آنيات، موائد مذهبة، أغطية مُوشاة، فِضيات، نُحاسيات، أرضية رُخامية، وجدران عتيقة ترتفع أقواساً أقواساً.

بعد المأدبة أخذ المدعون في الانصراف. غابت عن عينه وغادرته نحو الحديقة حيث نافورةٌ من الماء والعطر. كانت ليلةً مُضيئةً اطلل فيها القمر وكأنه فجرٌ. امتدّ بصرها بعيداً في أرجاء المكان. سار وراءها بعدها صرف الحرّاس. وضعت أطراف أصابعها وقدميها وقد رفت ثوبها قليلاً، شدّت بشرتها ناصعةً البياض نظره. أخرجت قدمها، وعدلت ثوبها مُعتذرةً. ارتدت دثارها على عجلٍ وغادرت:

في الغد زارتـه رفة المُعلم. مضت ساعةٌ غادر هو وبقيت هي. انزوت في ركنٍ، أخذت يتحدث عن شغفه بالفنون الأوروبيـة وإجلالـه لباريس. راحت تروي له قصصاً عن تماثيل رخامية لنساء رشيقات

عارضات الأفخاذ والصدور، ولوحات يظهرن فيها كآلهة أو حوريات بأجنحة. دنا منها:

- رائحة عطور باريسية.
- أريد حبراً لأعلمك، رسم الحرف اللاتيني.. أريد حبراً...

بحماسة الغازي الفاتح:

- أهلك الحبر والعطر.

على منضدة وضع لها دواة، مزهرية ورد، لفائف أوراق، الكثير من التبغ والشراب.

- تنقلين الشّعر؟ أكتب ديواناً منذ ربع قرن...

ثم أخذ يلقي عليها باكوره نظمه.

- أمّا هذا الشعر فلا يجوز نقلهُ يا سيدى.

- لم؟

- متى حُول إلى لسان آخر تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حُسنه. بقي مُنصتاً. كلما لاحت له غفلة منها ذهب وهم بها. أيام تسعه امتلأت بآماله وشغفه، كانت عليها ك أيام طويلة من الخطوب والأحوال. في إحدى المساءات ماتت زوجته القسنطينية وهي تضع مولودها الرابع. وضعت أثني بينما يتظر ذكرًا. ثمل ليلتها، طرد المعلم واستبقى إيزابيل، ارتفع التكّلف بينهما، غنت له وعزفت، فصار يحبها حبًا جمّاً، لا تعدل بعضه كل مباحث الحياة.

- صوتك جميل إيزابيل.

- عندما كنتُ في السابعة تلقيتُ دروساً على يد إيطالي لأصبح مغنيةً أوبرا، ثم..

- ثم ماذا؟

- مرضت بالحمى عشرة أيام كاملة أتلفت صوتي.

لم يقل شيئاً وقد أزدحمت في قلبه الهموم، وثقلت بليته. غادرته، تركته وحيداً بعدهما ألهبت توقه إليها. أمر بجلب أجمل امرأة في القالة، سرعان ما صرفها. دفع لها أضعاف ما يدفعه سيد لغانية، ثم صرفها دون أن تُطْفِئ جذوته.

أقبلت إيزابيل في يوم آخر. راح يرسم الحرف الفرنسيّ، أزاح الدّواة، توقف عن النسخ، ثم أزاح الورقة، ألقاها، أخرج أخرى وشرع يكتب.

- تزوجيني إيزابيل.

رفضت عرضه في البدء، حتى لا تُثير حولها الشكوك قائلةً وهي تُخفِي عينيها بيدها.

- لا أستطيع البقاء هنا أكثر مما مكثت. لا أجده في القالة مدرسةً أعمل فيها أو مكتبةً أتردد عليها. أفتقد المدارس والمكتبات الباريسية، المجلّدات المصفوفة، اللّفائف على الرّفوف. لا أجده هنا أياً من أشعار هوميروس وأعمال إسخيليوس وسوفوكليس وإيسوب وهيراقليطس، لا أجده كُتب المنطق والفلسفة والطب واللاهوت. أمسكت أطراف ثوبها.

- ما عاد التجار الأوروبيون يصحبون أبناءهم وزوجاتهم إلى هنا، تشقّ سفنهم السريعة البحر جيئةً وذهاباً. أما في أطراف القالة لا أجده العائلات الرّاغبة في تعليم فتياتها الفرنسية أو اللاتينية. العلم حكرٌ على الذّكور الذين يكتفون بلغةٍ واحدة هي العربية، وأحياناً التركية.

مال بجسده عليها، راح يُحدّثها عن حُبّه للوحات والرسم وكرهه للتجارة وقيادة العسكر. تغمّس الدّوّاة في قنّينة الحبر ثم تحدّثه عن شغفها بالترجمة واللغات والكلمات وحدائق المكتبات والمعاهد، عن تعلّقها بمُبدعِي الحي اللاتيني، والمسارح المتنقلة، والأوبرا. تذكّرت سباق الخيل، مُصارعة الشيران الإسبانية، (جُورنال دي باريس) وصحف أخرى.

أراحت رأسها على الجدار تُراوغ اندفاعه وتُلهيه، بينما تقُصُّ عليه بصوت خافت حكايات أوروبية عجيبة، مثل حكاية (فالفاني) واكتشافه للتيار الكهربائي قبل ثلث عشرة سنة، فيبدو له ما ترويه أساطير. في يوم آخر تُؤجل نزقة الجامع بحنكة، تشرع في سرد حكاية السيد (فولتا) وصناعته للبطارية الكهربائية التي تملأ أوروبا هذه الأيام، ثم تتوقف فجأة حين يُظهر لها الغضب كُلّما حاولت التلفظ ببعض الجُمل بالفرنسية. تتغنج، تستدرجه ليروح لها بما يدفنه من ذكريات وهموم ومشاكل وأحلام، متى أحجم تُحاوِل إدهاشه مُجدّداً بما تملك من حكايات. تقُصُّ عليه بمرح وحماس طاغ حكايات الثورة الفرنسية ومدرسة (إيكول دي بوليتيك) التي أنشأها نابليون قبل أربع سنوات، فصار كل فرنسي جيد يحلم بالالتحاق بها. تَتَغَنَّى بالثورة التي أحيت الأكاديمية الملكية وأقامت المتحف الوطني للعلوم الطبيعية ومخترات خاصة.

- و... هناك صنعوا آلة الخياطة التي أنتظُرْ منذ أشهر. يظلّ صامتاً. يتأنّلها كل مرّة بانتباه شديد. بينما كانت تَشاغل عنه بسرد المزيد. أعجب بدهائهما، وحكاياتها العجيبة. انبسطت أساريره.

لكن سُر عان ما نفَد صبره، مَد يده ببطء وطوق خصرها الرّشيق. طلب يدها للرقص كما في حفلة باريسية، أمالها إليه برفق وقربها شيئاً فشيئاً، ارتبت وتوقفت عن الغناء، ساد بينهما صمتٌ طويل. قاومته بدلال ثم أراحت جسدها بين يديه، وطلبت أن يسقيها كأساً من النبيذ. أحضر اثنين، وضعت كأسها جانبًا وأخذت تسقيه من يدها.أخذت في وضع أناملها على رقبته ولحيته تعبث بها. عثرت على شجنة قديمة في الذقن أخفاها الشعر الكثيف.

بدأت تنهياداته وأنفاسه تعالى وتسارع. حاول أن يضمّها بقوّة فامتنعت. قام وأقبل عليها، سأله الرويّة، قبلها عنوة وأطال قبلته. اعتصرت يداها أطراف الفراش اشمئازاً، وغادرته بخفة. أخذ ينثر بين قدميها المال كسيّد فاحش الشراء.

همست له في أذنه قائلة أنها تود لو ترى بقية قصره الشرقيّ الجميل وقد جال نظرها بين جدرانه العالية. أخذ يدها فتبعته نحو ساحتة التي ترتفع وسطها أعمدةٌ رُخاميّة مظفورة، أقواسٌ منقوشة وأبوابٌ خشبيّة ونوافذٌ من أجود أنواع الخشب. أشار إليها بالدخول نحو غرفة الضيافة الفسيحة المزينة بفرشٍ شرقيٍّ وثير. كان ثمة وسائل فاخرة وستائر مُتقنة التّطريز بأرضية من بلاطات رُخاميّة إيطالية، مفروشة بأعلى السجاد الملوّن.

- في الأعلى غُرفة نوم ملكيّة تُضاهي غرف نوم الباي بل الباشا... طلب منها أن تهبه نفسها كما لو أنها تهبه لالله وخدمه كما لو تخدُم معبداً. ردَّت مثل امرأة أفسدها الدلال:
- أنا مسيحية وأنت مسلم... .

- لا يقوم ديني على معاادة أحد مالم يعتد عليّ يا إيزابيل. ويسمح لي بالزواج من أيّة امرأة حتى لو كانت وثنية. أمّا أنتِ فتستطيعين عبادة الله في كلّ موضع، كما بإمكانك الذهاب إلى الكنيسة أيّ شئت.

- أوَ تزوجُ عربية بعدي؟ دينك يُبيح لك ذلك أيضًا!

- لا نتزوج نحن العثمانيون غير العثمانيات أو الأوروبيات إلاً فيما ندر الإفريقيات. فإن أنجبنا منهاً لا يُولى أبناءنا المهام. أمّا أنا فأتوّق إليك وحدك، عرفتُ نساء الآستانة وأدرنة وقونيه، نساء الشام والبصرة ونساء المور. لم أحبهنَّ يومًا مثل الباريسيات، بينما أنفر من اليونانيات ونساء صقلية وإيطاليا ومالطا.

- ولماذا لا تؤمن بما أؤمنُ به ونغادر نحو باريس؟

- لا أؤمن بما تؤمنين به لأن الإنسان لم يخلق على صورة الله كما يؤمن المسيحيون... الإنسان ذاته شيئاً فشيئاً يُفنّد ذلك ويُثبت أنه لم يُخلق سوى على صورة الشيطان. الإنسان كائنٌ ضالٌّ، لا يمكن أن يهتدي تماماً. وما أرسل الله الرُّسل إلا ليُصبح الإنسان ضالاً أقل فأقل، لا ليُصبح مؤمناً، هاهاهـا... (تنهد) كنت سكيراً خميراً ثم صواماً قواماً، وصرت سكيراً خميراً وصواماً قواماً، هاهاهـا. ما زلت مؤمناً، وقد أموت قواماً أو سكيراً. أيّاً كان، ما زلت أؤمن أنه لتكون إنساناً جيداً لست بحاجة إلى أن تفهم من هو الله، كيف هو؟ وأين؟ أحسّن فقط للآخرين وستكون صالحـاً، أو حاول فقط ألا تُسيء، ألا تؤذـي...

أخرج من القفص نمره الصغير، ثم أخذ يُلابعه. يضع يده بين فكّيه ويُظهرُ الشجاعة والجلد كلّما عضه. شرعت إيزابيل تُغبني له

الهنية (زوجة بائع الرصيف)، غير عابثة بهرطقته. زاد ازدراؤها له،
لطالما كانت تحلمُ بـرجل قرأ وألم بكل شيء.

- دعكِ من تلك الأعاجيب الأوروبيّة يا إيزابيل وتزوجيني،
فالنساء هنَّ النساء، لا يهزُهنَّ سوى الثروة والرجال.

- لكنك تُحيط نفسك بالجواري والأسيرات الأوروبيّات!

- أتزوجُك فيتحسّن سلوكي وقد يزداد سوءاً... هاهاها..

ضحكاً، غالى في إكرامها ليرضيها بعدما أيقظت في نفسه ميلاً
ورغائب ما عاد يعرف كيف يكتُمها. وما كادت تُغادره حتى طلب
بدها مجدداً حينما شعر أنه لاقي حظوة في نظرها.

- أوافقُ شرط أن يُواافق سيدِي فيكتور.

- وافق العزيز فيكتور هاهاها...

- ثمة شرط آخر.

- لك كل ما تريدين!

- تُساعدُنِي على فتح (أتلييه)...

- ماذا تقصِّدين أيتها الفرنسيّة!

- ورشةُ الخياطة. أتلية يعني ورشة...

المخيطة

عقد القران بسرعة حتى أنها لم تجد وقتاً كافياً لشراء زيتها
ولوازم رحلتها نحو بيته. امتلاً قلبها باختلالات الخوف والقلق.
أنفعته بالذهاب إلى الحامية والمكتوثر يومين في نُزل لاستلام آلة
الخياطة القادمة، ومتاع يصلُّها من روما قبل أن تلتحق بقصره. تنزل

بعدها عند أقارب لها تجهّز نفسها، ثم يُرسل موكبًا يُزفها إليه. سألته أن يمنحها الحرية التي منحتها الجمهورية والثورة للفرنسيين. ضحكا، ناولته كأسا من نبيذ بوردو المعتق. قطّب كمن تذكر شيئاً:

- للرجال هنا كبرياً لهم وسطوتهم. لا يمكن للحسناوات الحصول على ما يرغبن دائماً؛ لذا عليك طاعتي، فالنساء يُطعن الرجال هنا كما يفعل العبيد تماماً. أنا رجل حُر لكن لا يمكن أن تحصلني على حرية باريسية. هناك الكثير من الأعداء الذين يتظرون الإيقاع بي، على توخي الحذر في كلّ ما أفعله. لا أريد أن أهلك بسبب امرأة، وقد نجوت مراتٍ. يحدُث هذا في كل بلاد عزيزتي حتى في جمهوريتكم. طبع على يدها قبلة وأمّهلها أيامًا قليلة، يُرسل بعدها موكبًا يُزفها عروساً إلى قصره. مررت الأيام، رست لاليلاري، كان ذلك اسم السفينة التي حملت المِخيطة.

قبل أن يُعلن نفير الحرب وتغلق البوابات، نزعـت المُزینات شعيرات ساقيها بعجينة السُّكر. تنفن يديها، فرُكـن بالعطر جسدها. صرفـت عنـها قارئـة طالـع وطردـتها خارـجاً. أحـكمـت الخـادـمة إغـلاقـ شـرـائـطـ حـقاـبـها ورـصـ مـتـاعـها، وعـدـ من أـصـصـ الزـهـورـ. أـخـذـ قـطـيـنـ، جـرـوا صـغـيرـاً وعـدـداً من الفـراـشـاتـ المـحنـطةـ.

سـأـلـتـهاـ بيـنـماـ انـهمـكـ الحـوذـيـ فيـ تـشـحـيمـ عـجلـاتـ العـربـةـ.

- أـرـاكـ لاـ تـأـكـلـينـ؟

- انتبه يا فيكتور، يـبـدو باـشـ المـكـاحـلـيـةـ أـبـلـهـاـ، لـكـتـهـ يـضـاهـيـناـ فـطـنـةـ وـدـهـاءـ. هـبـ أـنـيـ أـصـبـحـتـ زـوـجـتـهـ، هـلـ تـظـنـ أـنـ ذـلـكـ العـشـانـيـ قدـ يـقـلـتـنـيـ؟ـ فـيـتـرـكـنـيـ لـأـغـادـرـ فـرـاشـهـ وـقـصـرـهـ؟ـ مـاـذـاـ لوـ انـكـشـفـ أـمـرـيـ

ووَقَعْتُ فِي الْأَسْرِ؟ قَدْ يَسْبِّيَنِي وَيُلْقِيَنِي إِلَى فَرَاشِ خَدْمَهُ، أَوْ يَجْعَلْ
مَنِي طَرِيدَةً فِي قَفْصِ نَمَرِهِ!

- كُونِي تَارَةً كَالْغَانِيَّةِ، وَتَارَةً أُخْرَى كَالْقَدِيسَةِ. إِدْفَعِيهِ لِيَعْتَرَفَ
لَكَ بِكُلِّ شَيْءٍ. تَذَكَّرِي، قَبْلَ أَنْ تَنْقَشِعَ عَنْ عَيْنِيهِ سَحَابَةً تَعْلَقِيهِ بِكِ
سَتَغَادِرِينِهِ، أَعِدُّكِ.

نَظَرْتُ إِلَى الْحُودِيِّ وَقَدْ ارْتَفَعَ صَرَاطُ الصَّيَادِيْنِ: الْحَرْبُ،
الْحَرْبُ، لَقَدْ حَجَزُوا الْبَرِيدَ وَقَنَصَلَنَا الْفَرْنَسِيَّ مَوْلَتَدُو!

- تَبَيَّنَ مَا خَطَبُهُمْ ثُمَّ جَهَّزَ الْعَرَبَةَ!

المهمة

قَبْلَ أَنْ نُؤْخَذَ عَلَى غَفَلَةٍ، بَلْغَتِنِي رِسَالَةٌ سَرِيَّةٌ مِنْ حَاكِمِ الْحَامِيَّةِ،
يَدُلُّنِي فِيهَا عَلَى مَنْفِذٍ قَدِيمٍ لِلْهَرَبِ. لَوْيَتُ عُنْقَ فَرَسِيٍّ، وَذَهَبْتُ لِلْبَحْثِ
عَنْ إِيْزَابِيلَ أَطْلُبُهَا، لَكِنْ لَا أُثْرَ لَهَا. قَصَدْتُ بَيْتَ النَّبَاتَاتِ، حِيثُ تُحَبُّ
الْمُكْوُثُ وَالْاِنْزِوَاءَ فَلَمْ أَجِدْهَا أَيْضًا. بَلَغَ قَلْقِي مِبْلَغَهُ. سَرَّتُ إِلَى النَّقِيبِ
مُسْرِعًا وَقَدْ صَرَفَ الْحُرَاسُ عَنْ مَكْتِبَهُ. أَدْرَتُ مَقْبَضَ الْبَابِ وَدَخَلْتُ
فِجَاهَهُ مَالْتُ إِيْزَابِيلَ عَنْهُ، وَرَاحْتُ تَلَقْطُ ثَوْبَهَا الْخَارِجِيَّ وَتُسَدِّلُهُ فَوْقَ
ثَوْبِ أَبِيِّضِيْ قَصِيرِيْ مِنَ الدَّانِيَّلِ وَالسَّاتَانِ، عَدْتُ خَطُواتِي إِلَى الْوَرَاءِ.
أَغْلَقْتُ الْبَابَ مَجْدَدًا لِيَخْتَلِيَ بِعَضْهُمَا. إِلْتَقَطْتُ النَّقِيبَ قَمِيصَهُ وَفَتَحْ
الْبَابَ مُشِيرًا إِلَيَّ بِالدَّخُولِ. سَارَ أَمَامِيْ دونَ أَنْ يَتَلَفَّظَ بِشَيْءٍ. أَطْرَقْتُ
أَفْكَرُ بِفَمِ مَفْتُوحٍ أَحَدَّقُ فِي شَيْءٍ لَا أَرَاهُ. خَبَا حَمَاسِيْ دُفْعَةً وَاحِدَةً.
أَقْبَلْتُ إِيْزَابِيلَ مُشَاقِّلَةً وَقَدْ غَمَرْتَهَا أَحْزَانٌ خَفِيَّةٌ قَاتِلَةً. طَالَمَا ظَلَّ قَلْبُهَا
مُتَعَلَّقًا بِإِيْفِرِ، مُذْ وَطَأْتُ قَدَمَاهَا الْقَالَةَ. بَيْنَمَا ظَلَّ النَّقِيبُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا

كأرملة باريسية يُمكِّن أن ترافقه أيامًا قبل أن يُقوَّد الفرنسيون حملتهم. لم تَكُن له رغبة في أن يكون زوجًا لأرملاً تدفعها المهمات إلى أسرة الرجال. آخرها مهمة دفعتها للزواج من باش المُحاكِلَة الذي يَكْبُرُها بخمسة وعشرين سنة. قد تصير بعد الحرب مجرَّد غانية باريسية يتداولها العثمانيون. حتى وإن نجت وصارت زوجة لعسكري لن يُؤْمن لها جانب، كلَّما غادرها زوجها إلى معركة غادرته إلى رجال آخرين. لذا كان يُكِّنُ لها مع شدة ولعه بها الكثير من الحقد والاحتقار والكراهية. ويتمسَّى لو تقع في الأسر أو تُقتل حتى يطوي كل ما كان بينهما.

تمتمت بكلماتٍ للنقيب:

- صفحَا وعذرًا يا فيكتور ...
- تبيَّنت مخرجاً آخرًا، ستنفذ المهمة جهز رجالك .. انفردت بها أخبرتها وهي ما تزال مطرقة .
- عليكِ أن تُغادِري مع مخطوطاتِ مهمَّة. احفظيها إلى أن نجد طريقةً لتهريبها.

القطط النقيب مسدّسه وقفازه العسكري، وضع خوذته الصلبة وغادر. انزوينا في رُكِّن. جذبُتها إلى صدري وحذّثها بصوت خافت.

- ستصلُك رسائلِي. أُكتُبُّي لي ... ألم تقرئي الصُّحف؟

كثيرات هنَّ النساء اللواتي لعبن دورًا بطولياً من أجل الجمهورية. تماماً كما ثمة فرنسيات لعبن دوراً مُشينًا. تذكري حُلمكِ، أن تجعلني نابليون يُعجب بولائك ويقلدك وسام الشرف. وتذكري، كان للنبيلات يدٌ في تعيين الرجال قبل الثورة وبعدها. يحكمن وهن نائمات على الأسرة، يعينن رؤساء الفرق وحتى الجنرالات.

ظلَّتْ غائبة الذهن، شارِدةً، حتى أستلْتُها المُتعلِّمَةُ اختفتْ.
 أمسكتُ بذراعها وقربتها متنٍ.

- يُلهمي إيفر نفسه بِمُغازلتِكِ، بافتراسِكِ من حين إلى حين. يدْخُرُ
مُرتبَه ويرسلُ منه إلى والده وزوجته، بينما يتَّظُرُ الاتصال بِمركزِه
الجديد. عليكِ أن تُفكِّري في المجد الذي ستجلِّبه لكِ مُهمتكِ إن
أنتِ أحسنتِ القيام بها.

أدرَّتْها نصفَ دَوْرَةً. قمتُ بِشدِّ الأشرطة الخلفية لثوبِها، أحكمتُ
إغلاقها بِصِلاَفَةٍ. طرفتُ من عينيها دمعةً في صمت. انفلَّتَتْ مِنِّي،
وضعتُ القبعة، وغادرتني مُجهشةً بالبكاء تَمسُحُ خديها من حين إلى
آخر.

يومها كنتُ غاضبًا، فقد مرَّ ثلاثة أيام دون أن أمسَّ امرأةً. غادرتُ
لفقد الرّقوق. شرعتُ في إخفائها تمهيداً لنقلها. قمتُ بِدسِّ بعضها
بين طَيَّاتِ كتاب النبات لدِيسقوريدس، وأخرى في كتاب شُروح
لأدوية جاليوس، في كُتُبِ الفارسية والسنسرية واليونانية.
وما تبقى أخفيتها بين نسخ خطية مُشوَّهة، جَمعَتْ إيزابيل قدرًا منها
لتصححها. أعدتُ إخراج بعضها، قررتُ استراق النَّظر إليها وإذ بها
كُتبتُ بكلماتِ رأسية من الأعلى إلى الأسفل، وأخرى على خطوط
مُتَّفِقةً لا يمكن قراءتها. بدا بعضها مجرَّد رُمُوزٍ مُختلطةً بالحروف لا
معنى لها. على رقوق أخرى الكثير من الملاحظات على الحواشي
وكتابها طلاسم. رفعتُ الرّقوق عالياً في الضوء لأتبيَّن نوعها، جلد
ما عزَّ جيد. رفعتُ أخرى، كان الجلدُ مدبوعاً، تعذر علىي معرفة
طبيعته.

ارتفع فجأة صوتُ طرِيق للباب، أخفيتها على عجل، انحدر بعضها وسقط. حاولتُ لملمتها، سقطت الدّواة على إحداها وامتلأت بيقع من الحبر. جفّفت بخرقة، بللتُها مُسرعاً، مسحت الأرضيّة مرّة، مرّتين، عدّلت هندامي، فتحت الباب لأتبينَ ما الأمر، وقد ظننتُ أنّ جنودي الباي قد اجتاحوا الحامية، وإذ بي أجده هيوغز الماجن.

هيوغز الماجن

كان ثملاً جائياً على ركبتيه وقد ليس كامل درعه.
- لأنّه نقيبٌ في جيش بونابرت تفضّله ولستُ سوى مسرحيٍ!
هالني ما يهذى به فساحتُه جنةً إلى الداخل، حاولتُ إسكاته.
- دلّني عليها، أهرُبُ بها قبل أن تقدّفنا مجانيقهم بالنّار والنّفط
الحارق، إيزائيل..

سألته عن لقاءهما الأوّل، أين وكيف حدث؟
- ارتادت المسرح قبل أيام فقط. أمام ناظري اعتلت الخشبة،
دارت نصف دورة بخفة وأخذت تمثّل دور أو فيليا، حبيبة هاملت
وابنة بولونيوس العظيم.

وكانه مجنوّنٌ يهذى تحولتْ ابتسامته فجأة إلى ذعر.
- لكنّهم سيهدمون المسرح، أقدم مبني الحامية! يومها...
- يومها ماذا؟

- يومها قالت أنها ابنته في المعموديّة، أين هي؟ أين؟
ولديوغز في دائرة نورمان أور. ظلّ والده يُنمّي فيه الرغبة في أن
يكونَ معلّماً أو قسيساً، بينما يسرقُ الدنانير ويصهرها. يصطادُ الشبوط

بالحراب، يدفع إليهم بالطعام من فتحة الباب مثل المساجين. شيئاً فشيئاً أو رثيماً استياءه من الأثرياء والتجار والكنيسة، عاد يهذى.

- إيزابيل... عزيزتي هل تسمعين؟ كُنْتُ أملك بقرة وختزيراً وبضعة إوزارات. بعْتُ من أجلك عجلًا ثم صار الخنزير هزيلًا. أدمتُ الخمور، راودتني أحلام الرّهبة، بعْتُ البقرة ثم الخنزير، لم أعد أهلاً لرعى الماشية ولا أهلاً للرّهبة، لقد ذهبت بعقلِي...

ألغت الثورة سادة الأرض وألغت الآلات الفلاحين. ظهر العُمال المأجورون والخدم الذين لا أرض لهم، لكنَّهم يحرثون ويزرعون. صار هيوجز كغيره من السكان الفائضين عن الحاجة، من العاطلين الذين لفظتهم الأرض، من يُصدق. لكنَّ كَيف، كيف بلغ القالة؟ أخذ يتحدث كيما اتفق، وقلبه المزهو يتفضض في ضلوعه كقلب طفل. حتى لا أفقد ماء وجهي أمام الجنرال رحتُ أتبين القصة منه.

- حدثني عنك يا بُنْيَ بروية...

- رفضت العمل كمساعد أو مُلحّق. تخليت عن حلمي السّري، الالتحاق بدفعات الخيالة. أخذتُ أعمل في مسارح الضّواحي. أملاً الخشبة بالحكايات الخرافية والمعارك. أردد أغاني عن غابات الشمال. أعادت الثورة للفنان كرامته يا سيدِي وها هي ذي الحرب تأخذ في طريقها كل شيء نحو الهاوية تماماً كما تفعلين أنتِ يا إيزابيل!

أولى لي ظهره. رفع صوته درجة:

- إيزابيل.. للشعراء والفنانين والمسرحيين بصيرةٌ تفوق بصيرة صانعي الآلات وحتى العسكريين. قُرعت طبول الحرب فلنهرب معاً إلى أمريكا...

تقلب يمنة ويسرة.

- يا بُنِيَّ يروقُني صدقك، لكن أسائلك الروية فيما تقول. ما وراءك؟ وكيف قدمت إلى هنا؟

- ركبتُ عربة بخارية يا سيدتي، أقصد سفينة بخارية أو شراعية ما عدتُ أذكر، هاهاها. حين قدمتُ، بدأتُ في سرد الحكايات المسلية. أظهرُ بأسمالٍ بالية تارة وبملابس النبلاء تارة أخرى. يدفعُ لي الآغا ما لا يدفعه للمداح نفسه. أتفوقُ عليه في سرد الحكايات على الجماهير، فأدعى إلى الحفلات والصيد والقنصل قبل أن تكوني طريدي الهازية، إيزابيل!

- لعلك تحتاج شربة ماء، خذ رشة ولتحدد بعدها.
كان المساء قد أقبل حين هدا هذيانه الأهوج. أفرغ مثانته وخلد إلى النوم. قُمتُ بدس بعض السُّم في كوب ماء وجعلته يرشفه، حتى لا يفسد بغيائه مهمتها. انطفأ ضوء وجهه وخرّ ميتاً. أقيمت فوق رأسه إصيصاً، غرستُ في حزامه مسدساً تالفاً، حملته إلى مستشفى الحامية وكانت وجنته مغمى عليه أمام اللبلاب الذي يغطي الجدار الشرقي.
- أيها الطبيب بيرتران... أدركتني، يبدو أنه فشل في القفز بهدوء

فوق السور إلى الاتجاه المقابل!

الرايات البيضاء

جاء أمر حاكم الحامية باكراً.

- أزلوا العلم الثلاثي الألوان وسط الساحة. ارفعوا مزيداً من الأعلام البيضاء قبل فتح البوابات.

انتشرت الإشاعات بسرعة كاشتعال النار في الهشيم.
- سيصل رسول البasha حاملاً نسخة من مرسوم إعلان الحرب
رسمياً.

- بل سيحمل نسخة من مرسوم إعلان الهدنة!
- بل معاهدة للاستسلام يوقعها الحاكم بعد طرد الفتنـل!
لم تمض ساعات حتى وصل إلى الحامية رسول البasha وفي يده
مسبحة من الخشب. تبعه حرسه مثنى مثنى. هرع العبيد والخدم،
رميـت اللقمة من يديـ وانصرفـ لأنظرـ ما فيـ الأمرـ. أديـرتـ أكـرةـ
البوـابةـ الكـبـيرـةـ. قـرـعـتـ الطـبـولـ وـدـوـتـ خطـواتـ عـسـكريـةـ فيـ المـمـرـاتـ.
صـدـحـتـ موـسيـقـىـ عـسـكـريـةـ لـحـظـاتـ لـلـتـرحـيبـ. تـظـرـفـ الـمـسـؤـلـونـ
أـثـنـاءـ اـسـتـقـبـالـهـ ماـ اـسـطـاعـواـ. صـافـحـهـ الـحاـكـمـ بـيـشـاشـةـ وـوـدـ. شـدـ علىـ
يـدـهـ مـرـحـباـ. حـدـثـهـ بـكـلـمـاتـ مـُـتـرـنـةـ. هـمـ بـمـرـاقـتـهـ وـهـوـ يـصـلـحـ سـرـتـهـ، ثـمـ
سـارـ رـفـقـتـهـ فـيـ الطـلـيـعـةـ. جـلـسـ الرـقـيبـ بـعـيـداـ وـجـلـسـ أـبـعـدـ. فـتـحـ الـحاـكـمـ
مـخـطـوـطـ الرـسـالـةـ.

أمرـ البـاـشاـ بـتـسـلـيمـ الأـسـلـحـةـ وـالـعـربـاتـ وـالـدـوـابـ وـالـأـمـوـالـ وـالـذـهـبـ
الـصـافـيـ وـمـفـاتـيحـ الـمـخـازـنـ وـالـمـؤـسـسـاتـ، ثـمـ طـلـبـ اـنـتـظـارـ السـفـنـ التـيـ
سـتـحـمـلـ الـفـرـنـسـيـيـنـ معـ قـنـصـلـهـمـ المـطـرـوـدـ. سـادـ الـهـرجـ وـالـمـرـجـ. أـخـذـ
الـرـسـولـ يـفـرـكـ حـبـاتـ مـسـبـحـتـهـ، يـجـمـعـهـاـ الـواـحـدـةـ بـالـأـخـرـىـ ثـمـ يـفـصـلـهـاـ.
بعدـ سـاعـةـ انـفـضـ المـجـلـسـ.

حينـ غـادـرـتـ كـانـتـ الـجـلـبـةـ قدـ هـدـأـتـ. فـيـ الطـرـيـقـ تـجـمـعـ بـعـضـ
الـرـئـاعـيـاـ فـيـ حـلـقـةـ عـابـقـةـ بـدـخـانـ الـلـفـافـاتـ. قـارـبـواـ الـعـشـرـينـ رـجـلـاـ،
يـتـبـادـلـونـ الـحـدـيـثـ فـيـ شـوـؤـنـ الـحـربـ كـأـصـدـقاءـ مـهـذـارـينـ. مـنـهـمـ

البناة والنّجارون والمهندسوُن. اجتذبته سخريَّتهم. يلغطون ويلمزون.

- سنغادر أخيراً. لم نعد نملك علِفَا كافياً للجياد.

- لم تأكل منذ الصباح. مثلنا يحزنها أن بونبارت الذي جر علينا كل هذا الكرب يقرُّ في مخدعه، يقرأ رسائل غرامية من زوجته.

- بل يخرج للحرب كما يخرج لشأنٍ من شؤون لهوه... عاش نابليون..

- سنغادر، ما عدنا بحاجة إلى علف. أنت ابن فالانسول، لا تفقه شيئاً في أمور السياسة!
متحمساً أمسك برسغه.

- أما نابليون فسياسيٌّ عظيمٌ... عين المهندسين مُشرفين على المجهود الحربي وعلماء الرياضيات والكيمياء وزراء للبحرية.
وهو ينظر إليهم خلال نظاراته الدائيرية. تبعثُ من فمه حلقات من الدخان ساخراً:

- يعين العلماء مثلما عين الملك لافوزيه، يُقلده! وكما عينت الثورة المهندس لازار كارنو مُشرفاً على المجهود الحربي. وعالم الفيزياء نونج وزير البحرية. أحاط نفسه بصناع حرفيين بالغى البراعة، فكيف للمماليك أن يهزموه. أما إن فعلوا... فـ...

- فـ.. ماذا؟

- علينا أن نتخلص منه كما تخلصنا من... الملك!

- أخفض صوتك...!

- سيجعلونك تخفي تحت جُنح الليل..

- إنه ثمل..

- كلا.. أبْرُز إلَيِّي، أبْرُز إلَيْكَ..

- لتكن مبارزةً بيّني أنا وبينك؛ فإذا فُزْتَ ونجونا تبعُ أرضك
وثرسل ثمنها مؤونةً للجيش.

- هاهاها بعثها منْدُ أشهر لأكون شريكاً في مصنع...
هجم الرجال فوق رأسه. خلفه وأمامه ولا أحد يذود عنه. وهو

يختنق:

- ألم يجلب علينا وبال هذه.. الـحـرـب؟ توـقـفـوا!

- نابليون هو الذي أنشأ هذه المصانع أيها السكير الخائن!
أبرحوه ضريباً. لما فرغوا من حربهم الصغيرة أخذوا يرسلون
النكات. حذّرُتهم من الإفراط في الشرب الليلة. تركت الحلقة
وانصرفت إلى بيت النبات حيث تزرع الشتلات ثم تُقلَّ إلى الحدائق
حيث الكروم وأشجار الزيتون والليمون والبرتقال والسفرجل
والتفاح والرمان. سيدكُون الأسوار فتحترق هذه الأشجار ويرقات
العلة الرقيقة، كلّها ستتحرق.

في الخارج، راح الجميع يدُسّ المال في الأحذية. بكت النساء
حزناً وفرحاً. ألقَيتُ حافظة نُقُودي بعدما أفرغت ما تحمله أسفل
كعب نعليٍ، حيث اعتدت إخفاء الرسائل المهمة. جمعنا المتع
والآقوات والأدوية في أكواخ، وأعدّنا الركائب. صادر الجنود ما
عثروا عليه من خناجر وأقواس ورماح. الجميع آمنٌ ما لم نحمل
سلاماً. ملأنا الرحيل الحامي غبطةً. جمع النقيب في حقيبة جلدية
اوراقه وأختامه.

- أَوْ يَعُودُ القنصلُ هكذا مطروداً خَالِي الوفاص !
صمتت التّمّتمات. أقبل العريف ووراءه مفرزةً من الخيالة. صاح
بعدما قرع جُندِيَان من المُشَاة طبولاً مشدودة إلى خاصرتيهما.

- هل من أحد هُنَا غير الفرنسيين ؟

- لا أحد.

- أُتُرُكُوا عِبَدَكُم ورَاءَكُم، تُغَادِرُونَ أَوْلًا.

- أَبِينَكُم مَن يَحْمِلُ سِلاَحًا؟

- لَا تَحْمِلُ إِلَّا مَا عَزَّ مِنْ مَتَاعَنَا.

رفع صوته وعيناه تجحظان :

- أُوثِقُوا دوابِكم، وتفَرَّقوا إلى غُرفِكم. تناومن الليلة وستُقْظُونَ
غداً باكراً. تَخْرُجُونَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ بَوَابَةِ الحامِيَةِ. لَا تَتَدَافَعُوا
فَيَظْنُوهُ هُجُومًا، لَا تَتَدَافَعُوا فَيَظْنُوهُ هُجُومًا.. سيفصلونكم عن متعَاكم
فلا تثروا؛ سياخذون منكم رجالاً لاستجوابِهم وقد يعتقلون بعضنا،
سيعزلون المرضى في خِيَامِ اتقاء للعدوى، فالهدوء، الهدوء !

هروب إيزابيل

انقطع النقيب عن الكلام. أسرعتُ مُسْتَغْلًا الهدنة لتهريب
إيزابيل.

طَلَبَنِي فَأَبْطَأْتُ الْمُثُولَ، خشية أن يَكُونَ نَبَأُ اخْتِفَائِهَا قد بَلَغَهُ
فيتسرّب إلى العاَكِم ويقطع رأسِي. أمرتُ أحد رجالي قائلاً :
- اُنْظُرْ إِنْ كَانُوا قد هَيَّوْا مَتَاعَهَا. لَا تَقِفْ هكذا مثل شوالٍ من
الطحين !

أمر الحكم بإحضار الفتى الغض، صبيٌّ فقيرٌ تعهده وجعله خادماً. أمر الجنديين بدس رسالة سرية في مؤخرته بعدما منع عنه الطعام ليالٍ. سيتعرّض الجميع للتقبيل وكان عليه حماية أمر لم تبته. كانت الرسالة فوق نصيـد صغيرٍ غطّاها بقفازه العسكريـيـ. بُهـت الفتـيـ.

أمسكه الجنديـان جيدـاـ. أغلقـا فـمه بـخـرقـ مـبـلـلةـ. أدخلـ ثـالـثـ الرـسـالـةـ فيـ أحـشـائـهـ، ثمـ أـطـلـقاـهـ مـتـرـنـحـاـ مـثـلـ خـتـزـيرـ مـذـبـوحـ. تـضـرـأـ وجـهـهـ بـلـوـنـ أـرـجـوـانـيـ ثـمـ اـمـتـلـ، انـحـنـيـ وـغـادـرـ.

- اـحـفـظـ الرـسـالـةـ مـثـلـماـ تـحـفـظـ عـيـنـكـ فيـ مـحـجـرـهـ، وإنـ تـحـدـثـ آـيـهـ التـعـسـ سـأـحـزـ عـنـكـ!

ظـلـ النـقـيـبـ يـذـرـعـ مـكـتبـهـ جـيـئـةـ وـذـهـابـاـ بـعـصـيـةـ وـقـلـقـ دـفـينـ. اـسـتـغـلـ الجـنـودـ الـوقـتـ لـتـهـرـيـبـ إـيزـاـيـيلـ عـبـرـ طـرـيـقـ مـتـرـبـ نـشـرـ عـلـيـهـ تـبـنـ، دـاـخـلـ خـنـدقـ يـتـهـيـ بـعـرـبـةـ باـشـ المـكـاحـلـيـةـ. ذـهـبـتـ إـلـىـ حـجـرـ الـكـتـبـ لـمـواـصـلـ الـبـحـثـ. هـنـاكـ عـثـرـتـ عـلـيـهـاـ وـهـيـ تـلـمـسـ الـأـلـفـلـةـ تـضـمـنـهـاـ إـلـىـ صـدـرـهـاـ وـتـشـمـ رـائـحتـهـاـ. حـيـنـ شـاعـ نـبـأـ زـوـاجـهـاـ ضـرـبـتـ إـحـدـاهـنـ عـلـىـ صـدـرـهـاـ.

- كـيـفـ لـفـرـنـسـيـةـ أـنـ تـوـافـقـ عـلـىـ الزـوـاجـ مـنـ قـرـصـانـ عـشـانـيـ قـدـرـ!ـ
- إـلـهـ باـشـ المـكـاحـلـيـةـ، رـجـلـ فـاحـشـ الشـرـاءـ، تـرـفـعـ إـلـيـهـ الـعـطـاءـاتـ

الـرـغـدـةـ وـكـانـهـ الـبـايـ، الطـيـرـ بـالـطـيـرـ تـصـادـ!

- إـنـهـ مـقـامـرـ أـيـضاـ، كـيـفـ لـفـرـنـسـيـةـ أـنـ تـأـمـنـ عـلـىـ نـفـسـهـاـ مـنـ عـشـانـيـ
مقـامـرـ؟ـ يـقـالـ إـنـهـ بـلـحـيـةـ حـمـراءـ مـخـضـبـةـ بـالـحـنـاءـ. رـبـاهـ، سـيـضـرـبـهـاـ مـثـلـ
الـدـوـابـ!

طريقُ السلاح

الثانية ليلاً، لا شيء في الخارج سوى حمامة الأحصنة. بالكاد نمت ليلتها. في صالة شرفية فسيحة لكتار الضيوف زهر الجنود عدداً من الكراسي ظهرت أرضية سميكة من خشب الصنوبر الجبلي صفت ياتقان. نزلنا سلماً حجرياً نحو القبو حيث خندق سري يصل بين الحامية وخارجها، يستخدم وقت الحرب ولبيع الأسلحة للقبائل المجاورة وإرسال العيون. تم تبليط جدرانه بالطوب والطين. صفت في أرضيته أخشاب البلوط والصنوبر الجيد.

سحب إيزابيل إلى بعدها بدأ الممر يضيق درجة كلما تقدمنا. رفعت السراح إلى وجهها قائلاً:

- لقد أزفت ساعة الرحيل، إنه لواجب شاق أداءه لكنك ستفعلين بجدارة.

استبدلت قبعتها المزينة بأشرطة زهرية بإيشارب عثماني بلون التراب. تبادلنا النظارات والكلمات المختلسة. بأنفاسٍ لاهثةٍ تُربّع عن وجهها خصلات شعرها الذهبي.

- ما الذي تحمله تلك اللفائف؟

- معارف يا إيزابيل. أنت منذ اليوم عين من عيون نابليون، وليساعدك الرب وليريكل. أكتب لي بذكاء كما تعلمت. وتذكرني عشرة القدم أسلم من عشرة اللسان.

كانت قد تعلمت الكتابة السرية مع العسكريين وموظفي القنصلية بالرموز والحرير السري. إضافة إلى حيل أخرى لإرسال البريد السري في بطن الطائرة وحفر الرسائل على رؤوس الرجال وداخل أفواههم.

وأصلتُ السير، كان الخندق ممّا طويلاً تحت عدد من المباني القديمة يمتد إلى خارجها نحو أطراف القالة. يضيق في أماكن ويتسع في أخرى، تم رفع سقفه بصفائح خشبية تحملها أعمدة صخرية.

- سأتوقف هنا أيها التقيب ولتواصل أنت مرافقتها.

كانت عيناها ترجواني ألا أترّكها تُغادر وحيدة. عُدت أدراجي بينما واصل. تسألهُ مُتحسراً، كيف... كيف ترك القالة العامرة وحصوننا العريقة؟ لا أحد يثور لكرامتنا ويأبى إلا... لكن ما جدوى ذلك اليوم فليس بصياح الغرابِ يجيء المطر.

خرجت إيزابيل وتسلقت المنحدر مبتعدة عبر طريق الأسلحة القديم الذي يتتهي بوديان هادئه، يقف في جهتها المقابلة باش المكاحلة وعربته. انضم إليها خادمٌ حمل صندوق المخيخة. مدّ يده يُساعدها على صعود العربية. ما كان صندوق الماكينة يسمح بإضافة أي راكب. جعلت متاعها بين قدميها، وأرخت ستائر. رفع الحوذى يده عالياً وبسرعة من سوطه تقدمت الحُيوان ودارت عجلاتُ العربية. اندسَ خادمها أسفل العربية ورفع نفسه مُحاولا الاختباء. بينما قال باش المكاحلة وهو يُداعبُ يميناه ذقنه التي تتکع على طبقتين من اللحم الذهري:

- انطلق غرباً.

الفصل الثاني

صديقي القديم جيوم

مدينة أوزيس / مقاطعة لونغودوك / ربيع 1800

حاذت الشمس خطّ الأفق. جمعتُ أوراقاً قديمة تعود لمخطوطات عسكرية لغزو الجزائر، كان بينها تقرير القنصل كارسي، لم أجده!

- جيزيلا، كم مرّة رجوتك، لا تعبني بأورافي!

وهي تُحاول لضم الإبرة ردّت:

- أنت تاجر مرجان لم قد تعنيك كلّ هذه الأوراق؟ تدري أن الفوضى تتنافى مع ذوقى، رغم ذلك لم المس أوراقك!

لاحظت بقعاً كالفحم على المكتب، على الجدار، بدت بصمات ليدى. قلّت في نفسي، أيّاً ما كانت غاية اللص فهو ليس لصا، لعلّه عينٌ من العيون التي تلاحقني!

تجاهلت غضبي، سحبت الخيط وراحت تُدير آلة الخياطة لتخفي امتعاضها.

غادرت البيت وتركتها، تماماً كما يترك نابليون زوجته وهو ذاهب إلى المعركة. يحتاج الرجال إلى دفء النساء، لكن السعادة المشتهاة يمنحها التاريخ وحده.

لاتعلق النساء في قلوب العظام طويلاً، يعلقن بعض الوقت، إلى حين، ثم يشتعل حنين الرجل منا إلى المجد والشرف؛ حتى إيزابيل، حتى مونكا أشعلت قلبي إلى حين، شهواتي الأخرى انتزعوني من بين يديها وقدفت بي إلى الطريق الطويل مجدداً.

استدرجت إيزابيل أول الأمر إلى فراشي ثم جنّتها وصنعت منها عيناً من عيوننا.

في الجزائر لم أكن أرى النساء، يُعطين أجسادهن، يُوصدن الأبواب في أوّل العابرين، شعرُ أغلبهن أصهب بسبب الحناء. أمّا الأسيرات المسيحيّات فأغلبهنَّ بائسات. أشتري واحدة، أطفر جذوتي ثم أقوم بتحريرها.

ليس مجدياً أن أحبّ النساء يسكنّ أذهان الشّعراء أمّا المحاربون الأشداء فتسكنهم البطولة. إنها حبّ أيضاً، حلمٌ وشهوةً. من أجل الشرف والخلود ما عدتُ أبحث عن النساء، أعيش على ما تعافه النفس أحياناً كثيرة، أنجو، أقتل وأنجو، أترىكم أنا حرج يا جيزيلا ولا يمكن لأولئك القرابنة أسرِي؟

في أركان المقهى رُحْتُ أصيغ السمع متطرّفاً صديقي القديم جيوم. انتشرت إشاعات عن وقوع سفينة لابروفانس الفرنسية في أيدي القرابنة بعدما خرجت سبعة من مراكبهم للغزو. تمخط أحد القادمين على أصص الزّهور، مرّاً منديلاً أبيض على وجهه، ظلّ ينظر إلىّي، ثم دخل قائلاً:

- نبككم جميعاً، عين نابليون ديبيوا تانفيلي قنصلاً جديداً.
ردّ أحدهم:

- ومن يُصدق، التحق بمقر عمله بعدما خدع الإنجليز مُتنكّراً على متن قارب وضعيف !
رُحْتُ أتفحّص المتحدّث فبدالى عسكرياً ناقماً لم تتمّ ترقيته.
في عينيه من العجد تماماً ما فيهما من المكر !

- صفحَا وعذْرَا فرنسا العظيمة. هذا لا يليق بك، مبعوث إنجلترا
يلتحق بمنصبه على متنه سفن حربية من أجود أنواع السفن وقنصلنا
على ...

يُتَمِّمُ ثم يلعن. انطلق صوت آخر المقهى.

- لقد أسففت بحق نابليون فاصممْت!

تعالَتْ أصواتُ هازئةً وتدخلت فتشب شجار. حين وصل جيوه
من باب آخر هرع نحو قائلًا بعينين لامعتين وهو يزيل عن حذائه
التبن العالق.

- تعال من هُنَا، من هنا، أتُصدق؟ المجاعة، المجاعة! صارت
الجزائر بلا دادا عجفاء!
أضحكُ ملء الشدقين.

- لم يبق في حُجرات مُؤنهم شيء. بلغني ذلك من وفد أرسله
نابليون للتفاوض، ومن التجار الأوروبيين، إنّها المجاعة!
ملأت كفّي بحفنةٍ من الفرنكات، رفعتها عاليًا وألقيت بها على
الطاولة. أمرت للحاضرين بكؤوس أدفع عنهم ثمنها احتفاء.

- المجاعة ظرفٌ مناسب لقيادة الحملة يا فيكتور. انعدمت
الأقواس، ارتفعت أسعار الحبوب وندرت في الأسواق. مصطفى
باشا يستورد القمح اليوم من موانئ البحر الأسود، هاهما.

- بكم؟

- الصاغُ منه بثمانية وعشرين فرنكًا. نشر الحرس على أبواب
المخازن حتى لا تُنهَب. زاد سعر اللحم والسمن، بلغ سعر صاع من
التمر الستين فرنكًا. أهلك مرض الرّهمة المواشي. قلَّ العلف والتبن،

زحف الجراد على ما تبقى من الزرع. أشرفت البلاد على هلاك عظيم، فذهب الناس إلى أكل الحشيش ونحوه. يقتاتون على ما تعاوه النفس أيضاً. أعدّ البابا لـلواحدين على المدينة خيماً خاصة، أرغمتهم الشرطة على ملازمتها. اختفى الجيدُ من التقدُّم وبقي الرديء منها!

- لا أدرى ما يتظره نابليون ليقود الحملة!

- هل بلغك ما بلغني أيضاً؟ أمر البasha بإزالة المزبلة وبناء برج باب الواد. كما بدأ بناء برج النافورة، بعدما هدم البرج القديم مكانه. يقول خوانو الإسباني آنه أنشأ فرقةتين كبيرتين أيضاً ومتدين من اللنجور. وقد اجتمع تحت إمرته خمسة من رؤساء البحر الأشداء.

- يملك البasha من الكنوز ما يكفي لينفق على آلاف الجياع

والجنود والسفن والبلاد يا جيوم!

- صدقت يا فيكتور صدقت. هيا، هيا، أخبرني كيف نجوت من أولئك البرابرة قبل ستين، وقد بُثت إشاعاتٌ عن موتك جميعاً يومها؟

- تم احتجازي مع بقية الرعاعيا. سجن القنصل مولندو شهراً واحداً. أطلق سراحه وتم طردنا. حطم المركز التجاري في القالة، تم إيقاف استغلالنا لامتيازات الباستيون وعنابة والقل و... وفي غيرها، ثم حجزوا سفينتنا تحمل جنوداً تابعين لحاميتنا العسكرية في جزيرة كورفو.

- ماذا فعلت بعدها؟

- توقفت تجاري فأفلستُ. أخبرني عنك. ذهبت إلى الجبهة في إيطاليا ولا خبر عنك منذ أشهر طويلة أيضاً؟

- لأروي لك كل شيء أنتظرك على العشاء غداً.
في الليل عدت منهكاً. كنت قد سافرت بعدها لساعات على
العربة للقاء المراسل العسكري في الطرف الآخر من المدينة. وجدت
شاباً يَعْبُث بمكتبي خلته فيتالي. وسط العتمة أقيمت به أرضاً قرب
سريري، سقطة، ارتطام، ثم يَقِي ساكناً. ضغطت على وجهه بالوسادة،
لهث، قاوم رافعاً يديه المتّسختين عالياً. أقيمت بجسدي فوق الوسادة،
توقف عن المقاومة. تفست وأنا أنظر إلى جثته. سأله:
قالا:

- لم تُخبرني عن الأحمق الذي أرسلك للعبث في مكتبتي؟
وأناأتأمل وجهه تذكرت أني صادفته صباحاً في المقهى. ركلته

- لا تتحمّط على أصص الزّهور مجدداً أيها المعتوه!
قمت بدسّ يدي في جيوبه حتى إذا ما كان ثمة شيء يستحق الأخذ
فأخذه. رفعت بصرى نحو الصليب المعلق على الحائط، شكرت
الرّب لأنّه لم يكن خادمي الإيطالي فيتالي كما ظنّت. أقيمت بالجثة
في الوادي حتى تجرفها المياه. حين فرغت نظفت يديّ، نظرت إلى
الجدران التي ترتفع فيها الكتب، أنزلت إلى القبو ما أردت حمايته ثم
نمّت نوم قرير العين.

العشاء

مساء الأحد تجاوزت عسكري الحراسة. تأمّلت بندقيّته الجديدة
ومنظاره.

- لِنَرَى، هذا أفضل بكثير من منظاري!

حرّكته يميناً ويساراً، أعدته. رفعت نظراتي وقد ارتفع أمامي منزل جميل من طراز لويس الخامس عشر. صعدت السلم المُغطى بسجاد أحمر فاخر. جلست مع جيوم بعدما دعاني إلى مائدة عشاء ضخمة الاستدارة، بعشرة مقاعد وثيرة، يُقابلها بيانو قديم، ساعة حائطٍ حديثة، مرايا بإطاريات مذهبية، شموعٌ معلقةٌ، وستائرٌ فخمةٌ. حولي جدرانٌ مغطاة بورقٍ مُوشّى ينقوش بدعة، غرفٌ كثيرة، أروقةٌ طويلة وممرات، مكتبةٌ فخمةٌ، لوحاتٌ، صُلبانٌ ذهبية، وأخرى فضية.

كان جيوم رجل حرب، بدأ كضابط في المدفعية، ثم صار ملازمًا بعد سنتين. شارك في أغلب حروبنا، في المحيط الأطلسي، جبال الألب، إيطاليا، وفي الشرق تصدى للإنجليز والعثمانيين.

ألقيت التحية على الجنرال بيرج وصهره الطبيب لومير. بلّغه الخادم بحضور بقية المدعّوين فغادرني ليعود رفقتهم. تبادلنا التحية، أخذ بعضهم في خلع معاطفهم، بينما تلتهم النار ببعضًا من أخشاب أوزيس.

في البداية لم أعرف بعضهم فقد تركت فرنسا منذ سنوات للإقامة في القالة ولا أعود إليها إلا أيام. تبادلنا أحاديث عن مسرح بوردو وقد اكتمل، مسرح أوديون، المكتبة الجديدة في قصر فرساي، والفنادق الحديثة، ومدرسة الجراحة في باريس. كما تحدثنا عن الصحف الجديدة التي ظهرت.

قال جيوم وقد قرب مقعده من المجتمعين:

- نابليون يفاوض الباشا، ماذا تُريدون للمناسبة يا سادة؟ خمرة جيدة؟ مُعَتَّقة؟ أم ...

أخذ يتلو أسماء الأنبياء العاجزة للتقديم. رصّ الخدم المزید من الكؤوس المصنوعة من البلور النقى. ردّ البارون رونولت بحدة لقليل سماعه، وهو يُحدّق فوق نظارته بينما تجاوز المدعوين بوجهه العابس نحو مقعده:

- نابلیون؟ قلت نابلیون؟ بلي، لكن، ماذا؟ مَاذَا قلت عنه؟

- ذهب ديواناً فليل ليتفاوض مع الباشا باسم نابلسون!
 بينما تتعكس النار على وجهه المُحمر، يُدخّن غليونه.

- لماذا يتفاوض، أليست المجاعة فرصة للانقضاض؟
تأملت خاناته المشعرة. كان ستينياً أنيقاً متوسط القامة، ممتهلاً

الجسد والآدرينالين

أطلق جيوم ضحكة رنانة:

- لاستحالة الغزو بحراً، كما أَنَّ الباشا لن ينخدع بوفد يُفْاؤِه بينما يُبَيِّنُ الحرب. حسناً، كيف حال أذنك؟ بلغني مرضك، تنتظِرُ نوبة، هكذا تقول الشائعة! أسعدي تعافيك وقدومك، أيّ يوم جميل هذا الذي اجتمعنا فيه بعيداً عن صخب الحفلات الرسمية والنساء. كانت الرغبة في غزو الجزائر قد شاعت بين العسكريين. لم يعقب البارون بشيء. نظر الجنرال ماكوبسيق وترم وعينين ناضحتين بالدهاء. ولم يلق بالاً لرغبة جيوم في اللّهُو. نزع قفازيه بخفة وجلس. كان والده موظفاً في القنصليّة الفرنسية، كثيراً ما يطلب خدمات من الباشا باسم الحكومة. وقد تبيّن لاحقاً أنها كانت لفائدةهما الشخصية. وقد حضر دون بذلته العسكرية، دون أوسمة. الجميع يدرِّي أنه لا يسمع بأيّ مزحة عن نابليون أو حكومته، وأنه ألقى عدداً من الرجال

في السجن بعدما وشى بهم. همهم بصوت خفيض بينما رفع عينيه
قليلًا إلى السماء:

- احم... احم... أنت لم تُشارِكْ في غزو بلاد إفريقيَّة قطّ يا جيوم
فلا تتحدَّث. من جوان إلى أوت، حين توقف العواصف الشديدة
عن الهُبُوب، ننطلقُ من مارسيليا وطولون. ننزلُ غرب البلاد. بعد
أن نُوَهِّمُ بهجوماتٍ كاذبة بتوزيع قوّاتنا التي ستبدو وكأنها تشنّ
هُجومًا من الشرق أمام رأس ماتيفو. ننسحب ليلاً إلى الغرب، لإتمام
إنزال الجندي والعتاد. ثُمّ نهاجمُ على حين غرة فالحيلةُ نصفُ الحرب!
تبادل الجميع النّظرات؛ ردّ جيوم غير مبالٍ.

- فعلاً يا صديقي! حُروب أوروبا تختلف عن حروب إفريقيَّة.
لكن لا تُفسِّد مرحنا بجديتك، هاهاهَا، نحن في عطلة، احتفظ برباطة
جأشك للحرب القادمة، هاهاهَا...

ثم أخذ قنينةً وراح يشرب من عُنْقَها. لم يجب الجنرال ماكو
واكتفى بالنظر إلى الكولونيل بيرج الذي يُلقبونه بالمشعوذ وهو يسأل:
- كيف؟

واصل الجنرال خطته بحماس بعدما دفع مقعده إلى الوراء:
- سأحول قاعة الطعام هذه إلى خيمةٍ لقيادة العامة، هاهاهَا.
انحنى على المائدة يرسم بيد خُطة الهجوم، بعدما أعاد رصّ
الأطباق والأكواب والملاعق والسكاكين وكأنها أرض لمعركة. بينما
ظلّ مُحتفظاً بكأسٍ في يده الأخرى.

- نزَحَ بفرق المُشاة والمدفعيَّة، نضرب حصاراً على المدينة
عندما لن يصدوا. نجتاحُها فتنقلُ مدافعاًها إلى هنا. تُؤسَسُ حكومةً

لنا هناك، بعد إيهام الباشا بالتفاوض. إنه الوقت المناسب الآن، لا رعایا فرنسيين في الجزائر ولا سفن لنا في موانئهم!

تساءل جيوم وهو يهُزّ كتفيه:

- وأين يُنزل نابليون قوّاتنا حتى نظر؟

قال الأميرال جورج بكلمات متّزنة وهو يُصلح من ياقه سترته:
- لو وجب علىّ فعل ذلك بدل نابليون لأنزلتها في سidi فرج.
تماماً كما هو في عشرات التقارير القديمة وما أطعّمتُ الجنّد غير
الخبز والنبيذ؛ حتى أتّى لن أهتم بتغيير أحذيتهم أو ملابسهم، لثقيتي
بأنّهم سيجعلون من قصر الباشا إسطبلًا لخيول نابليون خلال أيام
معدودة!

كان الأميرال رجلاً يستقبلُ الأسرى الفارّين من المدينة عبر
القوارب أو السباحة ويبحرون بهم مقابل الكثير من الفرنكات. لديه
أصدقاءٌ وحلفاءٌ ينشطون مثله في تهريبهم؛ فللأسرى كامل الحرية في
التقلّ بعد فرات العمل.

أضاف بخفة:

- نلتّفّ، ننزلُ، بعد أربع ساعات عبر السهول نصل إلى جنوب
المدينة، إلى حصن الإمبراطور، نحفّ به ألف فرسان ومئات
المدافعين...

قال الجنرال ماكوا:

- كلاً، قرأتُ ذلك في تقارير قديمة لضباط لم يختبروا
دروب الجزائر. ما زلت كما كنت أيام المعهد داًبك القراءة بصوت
مرتفع، ما يجعلك لا تنتبه إلى كثير من الأشياء. لا يمكن لجيشنا قطعُ

تلك المسافة في عدد ضئيل من الساعات بل نحتاج إلى أيام قد تصل العشرين يوماً!

تساءل جيوم وهو يحملق:

- آه يا عزيزي، أحيانا القراءة ليست كل شيء. عليك أن تدرك ذلك قبل أن تلتحق بمركز الجديد. ماذا عن مدافعهم؟

قال الجنرال ماكو:

- الربوة الجنوبيّة المقابلة له ستحميّنا منها. نُشن هجوماً بعدها على الحصن، فجدرانه لا ترتفع أكثر من ثلاثين قدمًا. خبرتُ الكثير بعد أربع سنوات قضيتها هناك.

همهم بعضاً:

- وكيف كنتَ تتحرّكُ بينهم!

- قال لي القنصل مرازاً (لا تبعد، الحاميات في كل مكان والفرق والحرّاس!) خرجت مرتين، ثلثاً، متنكراً في هيئة تاجر، لم يتعرّضوا لي بالاعتقال أو التّحقيق أو السؤال حتى، هاهها، لقد حالفني الحظ!

قلتُ:

- لكن يا سادة نحن لا ندري بعد تعداد جيشهم البري بين مشاة وخيالة؛ فلم تخضِ الجزائر أيَّ حرب بريّة.

قال الأميرال جورج:

- لن يملكون أكثر من أربعين ألف جندي. تسليحهم سيء، مجرّد مفرزة من الخيالة من هنا وهناك. وافدون وهاربون ومرتزقة لا يجيدون فنون الحرب. يحشدتهم العثمانيون، لصوص ومرتدون

لـا مدن لهم ولا ثروة، يبحثون عن الاغتناء. يكفي أن نضرب حصاراً على المدينة لأيام قليلة حتى يفقدوا القوت ويستسلموا.

قلتُ:

- أنسىـت قوـاتـ كلـ بـايـلـكـ؟ـ لـقـدـ تـمـ اـسـتـدـعـاـءـهـاـ لـمـحـارـبـةـ الإـسـبـانـ.
قالـ جـيـومـ وـهـوـ يـذـرـعـ الـغـرـفـةـ بـحـثـاـ عـنـ جـرـيـدةـ الصـبـاحـ:
ـ لـقـدـ اـخـتـفـيـتـ هـنـاكـ لـسـنـوـاتـ يـاـ فـيـكـتـورـ،ـ أـنـتـ تـاجـرـ مـرـجـانـ كـبـيرـ
ـ لـوـ أـنـكـ وـجـدـتـ مـنـ يـُـزـكـيـكـ لـأـصـبـحـتـ مـنـ رـجـالـ نـابـلـيـوـنـ الـمـهـمـيـنـ...ـ
ـ هـاـهـاـهـاـ وـلـنـسـيـتـ أـمـرـ إـفـلاـسـكـ!

قالـ الـأـمـيـرـ الـجـوـرـجـ مـتـبـاهـيـاـ بـخـبـثـ:

- حـسـنـاـ أـنـاـ سـأـزـكـيـهـ،ـ هـاـهـاـهـاـ...

ضـحـكـنـاـ،ـ أـجـبـتـهـ:

- رـأـيـتـكـ قـبـلـ خـمـسـ سـنـوـاتـ فـيـ مـأـدـيـةـ عـلـىـ شـرـفـ الـقـنـصلـ،ـ لـعـلـكـ
ـ نـسـيـتـنـيـ،ـ أـنـتـ وـالـضـابـطـ رـيـشـيلـيوـ.

قالـ الـأـمـيـرـ الـجـوـرـجـ وـالـضـابـطـ رـيـشـيلـيوـ مـعـاـ:

- فـعـلـاـ،ـ فـعـلـاـ مـاـ عـدـتـ أـذـكـرـ..ـ

كانـ الضـابـطـ رـيـشـيلـيوـ مـبـعـوثـ نـابـلـيـوـنـ الـخـاصـ لـزـيـارـةـ الـأـسـرـىـ
ـ الـفـرـنـسـيـنـ وـتـسـجـيلـ أـسـمـائـهـمـ اـسـتـعـداـدـاـ لـاستـبـدـالـهـمـ.ـ رـجـلـ مـتـقدـدـ
ـ الـذـهـنـ،ـ يـُـقـنـ الـتـرـكـيـةـ وـالـعـرـبـيـةـ وـكـانـهـ مـنـ بـنـيـ عـمـانـ.ـ يـُـحـكـيـ أـنـ الـقـراـصـنـةـ
ـ قـدـ أـسـرـوـهـ مـرـةـ فـخـدـعـ سـجـانـيـهـ وـأـقـعـهـمـ بـأـنـهـ عـمـانـيـ أـسـرـهـ الـفـرـنـسـيـوـنـ
ـ فـأـطـلـقـوـاـ سـرـاحـهـ.ـ قـلـتـ:

- السـنـوـاتـ الـتـيـ أـمـضـيـتـهـاـ فـيـ التـجـارـةـ عـلـمـتـنـيـ الـكـثـيرـ،ـ لـكـنـ لاـ
ـ أـصـلـحـ لـلـسـيـاسـةـ أوـ الـحـربـ.

جيوم:

- وماذا تعرفُ عن الجزائر بعد كُلَّ تلك السنوات؟

- أعرفُ كيفُ أميّز بين الفطر السام والفطر الصالح للأكل، الأنهر التي يجب انتظار انحسار الماء حتى عبورها، والأنهار التي يمكن عبورها وثبًا من حجرٍ لآخر. أعرفُ متى تُمطر السماء، متى تترجح الأنهار، متى يفيضُ البحر، كما أعرف الأرض الجافة والموجلة. أعرف الأدغال والبساتين والطرائد وأماكن اختباء الأسماك. أعرف أين تقع الحُدود ومتى يجب اجتيازها. كما أعرف الرجال ومعادنهم! الأهم من كُلِّ ذلك أنني أعرف أنَّ الباشا سياسِيٌّ ذكيٌّ، لكن ذكاءه لم يبلغُ ما قيل عنه، أما كل ما قيل عن نابليون فلن يبلغ شيئاً مما هو عليه من عظمة وتفَرّد!

- هَاهَاها، لو آنِك كتبتَ رحلتكُ أيها الساذج لِكُوفِتَ بوزنها ذهباً وأراضِي وأوسمة، ولِنَلْتَ أحد ألقابِ الشرف، يا الحظُّ العاشر!

نظر الفارس دار فيو إليه مليئاً.

كان رجلاً شيقَ الحديث، ينحدرُ من عائلة يُشاعُ أنها من بني فندق السفراء في طولون، حيث يُقيم سفراء الجزائر عادةً.

قال:

- السلطان حلِيفُ لنا، قد نصل إلى تسوية ما بعد الحملة، لكونه غارقاً في حُرُوب أخرى. ثم آنه لم يكن من عيّن مصطفى باشا، فهل ما زلت واثقاً من آنه رجلٌ ما زال يحكمُ أرجاء إمبراطوريته؟ ما عاد الرجل يُمثل ذلك الخطر المحيق يا سادة!

أردف قائلاً بصوٍت عسكري خفيض:

- وكم قد يصل تعداد قوات البایلک حينها؟ ستون ألف؟ سبعون ألف؟ ثمانون ألف جندي؟ لن يزيدوا عن هذا، العرب والقبائل حتماً لن يقاتلوا إلى جانب العثمانيين. لا تنسَ آتهم للله يخدمهم كل من يستطيعون شرائهم، لكن لا أحد يحميهم أو يواليهم. ثم آتنا سنكون قد سيطرنا قبل وصولهم، لا تنسَ آتهم غارقون في الثورات، الجزائر مُترامية الأطراف، لم يتسع فيها العثمانيون جنوباً، بل آتهم لم يصلوا إلى الجبال حتى!

قال البارون رونولت:

- لا سيل لصدىنا، لكن لن يقدم نابليون على الحملة هذه السنة، فقد رفض مُخططاً آخر قدّمه فرانسوا فيليب ماي، قبل أسبوع.

قال جيم بتهكم لبق:

- لقد هرمت أيها البارون. لا يعدو الأمر سوى أن يكون مجرد إشاعة للمحافظة على سرية الحملة.

قال الأمير الـ جورج:

- احتمال وارد!

ردّ الـ بارون:

- أما أنت فما زلت ذكياً كعهدي بك!

قال صهره، الطبيب لومير:

- بونبارت، أخشي أن يكون مُخبروه قد أوقعوه في الحيرة والعجبين!

نهض الكولونيـل بيرج واقفاً وفي يده سكين.

- يا سادة، تُريد من قُواتنا أنْرولا سريعاً شرق المدينة وغربها، ثم الاستيلاء على بُرج مولاي الحسن، على قمة كدية الصابون. بقيادة مُحنكة تكونُ المدينة خلال يوم واحدٍ في أيدينا. وما إن ينبلج النهار حتى تكون راياتنا الفرنسية ترتفع عالياً!

ثم غرس السكين في قلب التفاحة.

- هاهَاها، جائعون فمتي بدأ الطعام يا جيوم!
صحيحاً البارون وابتسم البقية.

- فلنأكل يا سادة، لدينا ما يكفي من الوقت للحديث لاحقاً.
ضرب جرس الطعام فأقبل الخدم لرصه. لحم مُدخن، بط مشوي، أرانب محمّرة، أرز، حساء بالخضر، نيد وفواكه. لم ينقطع الحديث. قال الأمiral جورج وهو يتلع شريحة من اللحم نصف نية:

- هاجهم صيفاً، بأربعين ألف جندي...

سألني الضابط ريشولي:

- حدثني عن فرسانهم في البرّ يا سيد فيكتور؟

- يعتمد الخيالة الكرّ والفرّ، يركضون دون انتظام، يطلقون النار ثم ينسحبون إلى الوراء. يلقمون بنادقهم القديمة الطراز، ثم يهاجمون من جديد.

قال الفارس دارفيو:

- رغم ذلك يقاتلون ببرavery، فما إن تأخذ مدينة حتى ينبع لضعافهم أنياب ومخالب!

تمخط الكولونيال بيرج ثم قال:

- ماذا عن المُشاة؟

- المُشاة عُثمانيون وفلاحون من المور، مدفعة الميدان التي تجرّها الخيول تُربكهم.

سؤال البارون:

- وسلاحهم؟

- بندقية ويطغان أو سيف طويل، يحمل الخيالة الأسلحة نفسها.
قال لوفيردو مُتهكّماً:

- أتدرى؟ السنة الماضية استولى قراصتهم على حصن في سواحل نابولي بعد هروب من فيه. هناك عثروا على بعض البارود فأئى أحد الشواش وأطلق ناراً من بندقيته على الأرض بعدها نشب خلاف بينهم... هاهما، اشتعلت النار وأحرقتهم، لم يكن له علم بالبارود!

ضحك الجميع.

- فلاجون لا يعرفون شيئاً عن حياة الجنديّة. أغلبهم بلا بنادق بلا دروع، يتم الاستنجاد بهم. حتى مطياتهم يأتي عليها الوباء فلا يتُرك منها ولا مطية. كيف لهم أن يكونوا نذراً لآلات الحرب التي نصنعاً!
قال الكولونيل بيرج:

- نعتقد ذلك الخزير الوديع.. البasha، إن فشلنا في إضرام حرب ضروس بينه وبين إيتاليا تونس. نطرده أو نقتله..

احتدم النقاش، تسائل جيوم محترماً:

- يا سادة نأكل أم ننزل في سيدي فرج أم رأس ماتيفو أم التنس أم خليج تمانفوست!

ضحكنا، وضع الخادم على المائدة المزيد من الرُّجاجات الملفوفة بالساتان الأبيض. رغم تظاهرنا بسهولة الغزو إلا أنَّ الخوف والشك ينهشنا نهشاً، فمرارة الهزائم القديمة ما زالت غصة في حلق الفرنسيين والأوروبيين. أفرغت كأساً في جوفي مرَّة واحدة حتى لا أفكر كثيراً. لا أحد يُريد للهزيمة النكراء أن تتكرر.

أصدقاء قدامى

رفع الخدم المائدة، غادر الضيوف مقاعدهم بالترتيب نحو صالة أخرى حيث نصب موائد القمار والشطرنج. قال الضابط ريشولي و هو يضرب المائدة بيده بينما يلعب الورق:

- في سidi فرج يا سادة، هيا العب... بعد أن نتأكد من ضعف التحصينات. نلتف، نهاجم حصن باب عزون، نعسكر في أمان بين قلعة مولاي الحسن وقنصليات السويد وإسبانيا وهولندا، فتحمينا الوهاد والمنحدرات. من ناحية أخرى نحرق الخنادق ونقطع الأشجار لمنع تقدم فُرسانهم. نضرب حصن الإنجليز بالمدفعية، نستولي على حصن المراقبة لافيجي، نُرسل فرقاً للاستيلاء على طريق البليدة، جسر العرّاش، وقسنطينة. عندها لن تقوم لهم قائمة، هاهاها... هاج الرجال صائحين رافعين كؤوسهم وكأنها أنخاب لنصر.

قاطعه البارون رونولت:

- وكم قد يتطلَّب الاستيلاء على التّيطري، وهران، وقسنطينة؟ رد الكولوني尔 بيرج:

- نحن بحاجة إلى خمسة وعشرين ألف جندي!

تساؤل الطیب لومیر:

- مَاذَا عَنِ الْحَصُونَ الْمُنْيَةِ يَا سَادَة؟

- سيدمر أسطولنا بعدها حصن رأس ماتيفو، حصن برج الكيفان، وحصن لا بوانت بيسكاد. أما تحصيناتهم البرية فضعيفة جداً كالقصبة، أسوار هشة تخفي ملائين الفرنكات.. الملائين هاهها...

انقسم الضّيوف، عُزفت الموسيقى، طاف الخدم بالشّمبانيا والجرائد المطبوعة، شعرنا بالاعتداد. أمسك الكولونيل بيرج أوراقها بيده، حرّكها يميناً ويساراً وكأنّها مروحة، ثم ألقاها في وجهي وقد ثمل قائلاً:

- ستسقط الجزء اثر هكذا، هكذا... هاهاها...

* * *

ليودوريك ألونزو والمدفع البرونزي
كافيه دي باري / 28 ديسمبر 1801

صرفت امرأة استبقيتها للرقص وغادرت. بلغني المراسل العسكريُّ الرسالة لاهثاً.

- وقع ديبوا تانفيل معاهدة الصلح، وأرسل تقريراً يُسهل الغزو.
نابليون مشغول بعوده جنودنا من مصر، بينما خرج الرئيس
حميدو للغزو، رافعاً علماً يحمل رمز الفرس. اقترب من الفرقاطة
البرتغالية حتى دخل مطاف الفرقاطة في مطاف الأخرى. عاد بالغنيمة
وكأنهما مركب واحد. أعلن صاحب الناظور عودته فذهب الناس
لملاقاته ولم يبق في المدينة غير الشيخ والعاجز.

يومها في القالة كما في الجزائر سار حامل الطّبول العسكرية وهو يتقدّم فريقين من الجنود، أُعلن الصلح على أن يدُوم السّلم مئة عام. عاد السّلم قبل سنة، في اليوم ذاته الذي خسرتُ طفلًا. نسيتُ حُزني، احتفيناً. ستعودُ التجارة والملاحة والأرباح. أمر الباشا بتعليق الزينة احتفالاً بالسّلم سبعة أيام. صحوتُ باكراً لاستلام رسالة قد تصلني من إيزابيل. تغيّر في حلقي طعم المرارة الذي لازمي لأشهر. ما زال يسكنني شرف أن أكون عيناً لبونابرت، وقد مرّت ستة كاملتان على تقلّده منصب القنصل الأول بينما مرّت سنوات على تقلّدي مهمتي. في فرنسا كما في إنجلترا صار ثمة قوّة أخرى تسود العالم أقوى من نابليون الذي جعلته الجماهير معبوداً لها. ثمة إلهٌ جديدٌ يُسمى البخار، أمّا صوتُ نابليون الذي يُدوّي في الأعياد والاحتفالات والخطابات فقد ارتفع فوقه صوتُ آخر أكثر وقعاً ودوياً، إنّه صوت الآلات الذي صار يُشّقّ صمت المدن الكبيرة.

الليلة وجدتُ نفسي أكتبُ لبونابرت نصاً فيه نفحّةٌ من الأبوة رغم أنّي أكبره بسنوات قليلةٍ لا غير. أخبرهُ وحده أنّ اسمي الحقيقي هو سيمون، مسحته ثم كتبَ ثيودوريك ألونزو، بينما أتحلّ اسم تاجر المرجان فيكتور دي أوغو الذي قضى قبل سنوات. أمّا أنا فمهندسٌ عسكريٌ له معرفةٌ بسواحل إفريقيا، بعدها تنقلتُ بينها وكأني بحّار حيناً أو تاجرًّا حيناً آخر. ها هي ذي هذه الأوراق تأخذني إلى هناك، تروح بي سطراً بعد سطر إلى سنواتٍ طويلةٍ قضيتها في مهمّتي السرية. فاللوّشاة من المسلمين واليهود الذين يبيعون أنفسهم نظير المال قلّما نستعين بهم. بعد أسابيع نلتُ الثقة وسمح لي الجنرال بالإطلاع

على جُزءٍ كبير من المخطوطات المحفوظة أكثر سرية. قضيت فترةً كسامعي بريد حكوميّ دأب على تسجيل نسخ من المراسلات. وفترةً أخرى أستجوب الأسرى. أعيد فتح رسائل الدبلوماسيين، وأغير أذنا صاغية لما يدور بين الوفود والقادة الذين أرافتهم. عملت في آخر أيامي في حفظ السجلات وتنظيم الوثائق الملكية والحكومية.

عندما غادرت فرنسا أول مرّة تركتها مريضه بالملاريا، تكثر فيها الأرضي البور ومستنقعات الماء والمراعي الوعرة والعصابات. لاحقني القراصنة فدافع عنّي قرصان البحر أبراهام. قام بيابوائي وحماية مخطوطاتي. ما كان على سفينته من يُجيد القراءة. حرص على سلامتي ظنًا منه أنّي إما عالمٌ كبيرٌ أو هرطوقٌ مسكونٌ لأحمل كل تلك المخطوطات والكتب في رحلتي. كنت يافعاً، قصير القامة، أخف وزناً، مثل المعجّنين الذين يحشدهم نابليون، طولي خمسُ أقدامٍ وبوصتين.

جاء نابليون من أجاسيو، وروبيسيار من آراس. وبابوف من سان كويتين. هذه البلدات نفسها التي أتت منها أنا وخرج شباب الثورة الفرنسية العظيمة! وأنا طفل كبرت في سفينة جدي، ألعب بالحبال والأشرعة، بين البحارة أراقب عمليات القرصنة. أحببت البحر وصرت تواقاً للمغامرة. أستمع بهم لأقصاص جدي عن الحرب. كنت في الخامسة عندما لم يتمكّن أبي من السيطرة على سفينة عثمانية فأحرقها، التهمه الحرير قبل أن يُلقي بنفسه. كبرت يتيمًا بعدما فقدت أمي وهي تضع مولودًا ميتاً. جعلني جدي أحصل على حذاء ومعطف، وأرسلني إلى المدرسة. شيئاً فشيئاً ازدهرت صناعة الحرير، فرأى

أن يتَوَسَّع فيها بشراء سفينة تحمل الحرير والأقمشة المطرّزة إلى السواحل القريبة. يذهب المرسيليون إلى الجزائر بأسهل مما يذهبون إلى إكس بروفانس المحاذية لهم. أُسند إلى صيفاً قيادة إحدى سفنه التَّلَاث وأنا في السادسة عشرة.

أخبرني لأول مرّة وهو يتبااهي بغليونه الألماني أنه قبل أن يكون بحاراً أو تاجرًا كان صعلوكاً مع أبيه رُفقة مجموعة من البحارة، يخدمون في مراكب غير فرنسية. ضاحكاً يروي لي:

- حين وقنا في الأسر، طالبت الحكومة بإطلاق سراحنا باعتبارنا فرنسيين، بينما رفضت الجزائر، لأننا نخدم في بواخر غير فرنسية، هاهاها. المجد يجلبه أولئك الذين عجن الموج ضلوعهم يا بنى، لا أولئك الذين خدموا في المدفعية وحسب. ذكر مرّة أتنى دبرت مع البحارة ورجال الجمارك والشرطة أمر احتجاز سفيتين جزائريتين في ميناء طولون، واتفقنا مع الإسبان على أسر طاقمها. ألقينا القبض عليهم وخالقنا المعاهدَة، هاهاها، خشية أن يصل الخبر لللباسا تم إجبار السفينة على المغادرة في وقت نحدّده نحن حتى يتمكّن الإسبان من أسرها لمجرد مغادرتها مياهنا بقليل. أبحروا بعدها بأيام وقعوا في الأسر تماماً كما وقعت.

- وكيف نجوت يا جدي؟

- الأوّل أغاد أرغمنوني على تنظيف المراكب والتّجذيف بقوّة. مرّة ضربت الأمواج السفينة، كادت تنقلبُ بنا، أخذت تهتزّ وتهتزّ ثم تعود إلى حالها فُنْرخي العبال. بدأ الماء يطفو على السطح. مالت بنا. أرخينا قلوعها خشية أن تسحبنا إلى الشّرق. فتحنا الأشرعة وتركتناها

لتبسط بتأنٍ، ثم سلّمنا أمرها إلى الرياح. سرنا يوماً آخر في الاتجاه نفسه. استفقنا في الصباح على صراغ أحدهم، عندما انقض الضباب كنّا وسط ثلات سفن فرنسية انقضت على الرئيس. تركنا التجذيف، تمرّدنا فهزّناهم شرّ هزيمة. حجزوا المؤن والأسلحة ثم حربونا. كان جدي يقضي الصباح متقدلاً بين سفنه التجارية الثلاث. حين يغضب يُهدد بيعها ثلاثة وشراء فرقاطة حربية يُهاجمهم بها. أمّا في المساء فيأخذ في سرد مغامراته. مرة أمرني باللحاق به، رفع باباً يُفضي إلى أسفل الباخرة. نزل عبر السلم، اختار مكاناً له، خلط النبيذ بالماء في كأس ثم قال:

- حدث هذا قبل ربع قرن يا صغيري. بعد عقد الصلح، انفصل مركب عن سفنهما، اعترضته باخرتنا. وقد أطمانوا إلينا طلبوا أن ننقلهم إلى فرنسا، لكن بعدما صعدوا قمنا بـ^{يَقْتِيلِهِمْ} هاهماها. بيدي هاتين صرعت أربعة أو يزيد. بعد أيام صادفنا باخرة أخرى، قُدناهم نحو سواحلنا وألزمناهم بالبقاء لأيام طويلة قبل أن ينزلوا حمولتهم، خوفاً من أن يحملوا الوباء. عندما كادت المؤونة تنفذ خرجوا واستغاثوا، أسرناهم وبعناهم في سوق الرّقيق في إسبانيا، هاهماها. قطع القُنصل وعدا لهم بمعاقبتنا ونعتنا بالقراصنة الفرنسيين، هاهماها... لكن أفلتنا، فالقنصل نفسه عندما كان عائداً التقى بياخرة يقودها الرئيس محمد عوجية، فاستولى عليها وأسر رجالها كما أسر الرئيس هاهماها. قمنا بشنّ هجوم بقيادة الأميرال دوكين، كنتُ سأسميك دوكين احتفاء به، لكنه ليس أكثر من أحمق لا يستطيع أن يتزعّم منهم مدفعاً من البرونز حتى! آهكم... أردت أن يحمل أحد أحفادي اسم سيمون دانسا، ذلك

الفرسان الفرنسي الشجاع، لكنَّ أباك الأحمق احترق قبل أن ينجُب
غيرك...
(أبيات من قصيدة لـ جان بول فيلار)

اشتغل سيمون في صفوف الرياس بعدما ارتد عن المسيحية وشاركهم الغزو في مراكبهم، حين فر إلى فرنسا سرق معه مدفعين من البرونز كانت الجزائر قد سلحت بهما الباخرة. سرقة المدفعين أثارت استياء المدينة. طالب الديوان بارجاعهما ومعاقبة السارق، لكن ملوكنا القوي لم يُعر ذلك اهتماماً.

- أعدك يا جدي عندما أكبر، سأحضر لك الكثير من المدافع البرونزية.

- هاهاها، شجاعُ أنت مثل جدك يا سيمون الصغير، هكذا
سأناديك منذ اليوم !

* * *

رودولف ألونزو

كان جدي رودولف رجلاً شجاعاً، ضخم الجثة عريض المنكبين، سباحاً ماهراً يندفع الماء من فمه وأنفه ولا يختنق. يصفونه بالرجل الذي لاتهم حقوق الرجال. نبذته المدن واحتضنه البحر. لقب بالحوت الأكبر. رغم أن الفرق التجارية بمارسيليا كانت تعتبره رجلاً بلا ضمانات كافية لإبرام صفقة معه لكنه ظل ذا سطوة. إلى أن مات في إحدى المعارك.

في عمر السابعة عشرة شاركت في صياغة كتاب الشكاوى، حاولت الانتقام له وسرقة مدفع برونزي. تم بيعي، ثم اشتري القنصل حُرّيتي وأرسلني إلى الجيش بعدما أبديت مهارةً في الرسم

ونقل صور للمدن والمحصون التي مررتُ بها. صحبني معه لأسابيع وجعلني ألزمته كقريب. ترددنا على القصور والمدن لتقديم الهدايا ثم طلب مني إعادة رسم ما مررنا به من تحصينات وطرق وبوابات ومنافذ وقنوات وأبنية ومزارع ومعابد. ذهل لموهبي فأرسلني إلى الأكاديمية العسكرية، بينما كنتُ أحلم بأن أكون صحفياً في جornal دو لا لياري، ثم أطلق صحيفتي الخاصة من أجل الحرية والمساواة. بعد انتهاء الخدمة تمت ترقتي. بعد مهمّات كثيرة تم اختياري لمهمة أكون فيها عيناً لنابليون. تعرّفتُ على زوجتي جيزيلا من عائلة ثرية تدعى آل لاريوك.

زُرتُ الجزائر مرات عدّة، كلّما رأيتُ الرئيس عائدين تذكّرتُ جدي الذي نهبو حمولته وأعادوا بيع أشيائه هنا. ما زال الرخاء يعمّ المدينة تماماً كما تركها منذ نصف قرن. يُمارسُ المسلمون واليهود والنصارى التجارة جنباً إلى جنب. غنائم الرئيس تعود كلّ حين فتملاً أخبارها الشوارع وتضجّ البيوت. تُقبل القوافل، تزدهر الأسواق، حيث يعرضون فيها انتصاراتهم سلعاً سلعاً.

المراسلات

نزلتُ إلى كافيه دي باري للمرة الثانية، بانتظار أبناء يحملها صديقي ديغيو. وقع الصلحُ بينما لا زالت المعاركُ تنشبُ من حين إلى حين بيناً. غاب ضوء الشمس وأنا أرتشف كأساً من الجمعة. أتذكّر ما يقوله المحليون هناك عنّي. لستُ سوى تاجر يرتابون من أمره، عينُ من عيون العدو، وتلك إشاعةٌ عادةً ما تلاحقُ أغلب الأجانب!

تنطلق من مقاعد مجاورة أخبارٌ عن غنائم استحوذت عليها الجزائر. نابولية، بندقية، برتغالية، مالطية وحتى بيروسية وأمريكية. غاب ديهغو عن موعده فأدركتُ أنه لن يصل اليوم أيضاً ربما غداً. انسحبتُ عائداً. جلستُ إلى ما نسخته وبدأتُ التدوين، ثم غفوتُ. استيقظت باكراً وواصلتُ الكتابة بانتظار أن تصحو جيزيلاً لأنخبرها باقتراب رحلتنا إلى القالة.

أكملتُ عدّ ما أعرفه من بساتينها. تركتُ على الحواشي أسماء الشوارع والhommes والقبائل.

ترى كيف يُمكّنني تدوين أصقاع من العخيرات في نصّ؟ وهل سترى العجزائر فرنسيّاً آخر يكتبُ عنها أحسن مما أفعلُ اليوم؟

أصفي إلى وقع خطوات جيزيلاً قادمة. بدت خائفةً من تجدد الحرب فلا نجُو هذه المرأة. هي امرأة صالحة، دائمًا ما يحتاج الرجل إلى نساء صالحات كجيزيلاً.

وأنا جالسٌ سمعتُ طرقاً للباب وإذا بخادمي فيتالي يُوقف عربته مقبلًا هائجاً كحصان ثم هداً وهو يفتح حقيقة البريد. مدنبي برسالة من السيد ديهغو بينما جلستُ على كرسيّ خشبي مقابل له أتأملُ انسياقه لأحلام الفرنسيين. كاد يدفعُ ثمن إخلاصه كمواطن صالح احتفى بسيطرة نابليون على إيطاليا. تمّ أسره، حرّرته واتخذته كخادم. أمسكتُ الرسالة، فكررتُ في إيزايل التي ظلت مخفيةً كل هذه السنوات ازدراءها لباش المُكافحة وإعجابها بالنقيب ونابليون. ربما هي لا تُحب سوى نابليون، ذلك القائد الذي تدينُ له بالولاء.

أستعيدُ رسائلها التي تصلني طافحةً بالمرارة، وقد تلقتْ نبأ الهزيمة بينما انتظرت النّصر المُظفر. حتى ذلك اليوم كنّا مُنقادين بأحلامنا الكبيرة، انكسار نابليون وكلير ودوماس ومينو كسرنا جميـعاً. رغم كلّ هزيمة ما زلنا نحلم بالقصبة، حيث قلاعٌ من الذهب تقع في المنتصف بين سبطة وخليج بونـة، كما ما زلتُ أحـلم بأن أحـمل إلى جـدي مدفـعاً بروـنزيـا. في سـريـ، كنتُ مـُـتـذـمـراً لا أـدرـي ما الـذـي يـفـعلـه نـابـليـون كلـ هـذـا الـوقـتـ بـجـمـعـ الـعـارـفـ والـمـعـلـومـاتـ، بـعـدـ الـمـلـكـ. يـكـوـمـونـ الـمـشـارـيعـ الـتيـ صـاغـهـاـ التـجـارـ وـالـبـحـارـةـ وـالـقـنـاـصـلـ وـالـدـبـلـوـمـاسـيـوـنـ؟ لـقـدـ صـارـ عـلـيـنـاـ أـنـ سـقـطـ قـصـرـ الـجـنـيـنـةـ تـامـاـ كـمـاـ سـقـطـ سـجـنـ الـبـاسـتـيـلـ !

طـوـيـتـ الرـسـالـةـ لـقـرـاءـتـهـاـ مـُـنـفـرـداًـ. صـرـفـ فـيـتـالـيـ، الرـجـلـ الـطـرـوبـ وـالـمـغـفـلـ أـيـضـاًـ. هـزـ كـتـفـيهـ وـهـوـ يـقـولـ :
- كـلـفـنـيـ السـيـدـ دـيـغـوـ بـأـقـولـ لـكـ مـَرـزـ الرـسـالـةـ عـلـىـ الضـوءـ قـبـلـ
أـنـ تـقـرأـهـاـ !

فيـتـالـيـ أـمـيـنـ أـيـضـاًـ، لـذـكـ اـحـفـظـتـ بـهـ، رـغـمـ أـنـ جـيـزـيـلاـ لـاـ تـحـادـهـ. تـزـدـرـيـ كـمـاـ تـزـدـرـيـ باـشـ الـمـكـاحـلـيـةـ. شـغـلـتـنـيـ الرـسـالـةـ الشـفـوـيـةـ الـمـاـكـرـةـ وـأـثـارـتـ مـخـاـوـفـيـ. غـادـرـتـ جـيـزـيـلاـ نـحـوـ الـمـطـبـخـ بـعـدـمـ أـثـارـ حـنـقـهاـ. ظـلـلـتـ نـظـرـاتـهـاـ تـحـوـمـ حـوـلـيـ. تـشـمـمـ الـطـعـامـ قـبـلـ أـنـ تـطـعـمـهـ لـلـجـرـاءـ الصـغـيـرـةـ، ثـمـ تـلـقـيـ بـهـ أـرـضاـ. أـسـتـعـيدـ رسـالـةـ إـيـزـاـيـيلـ الـأـوـلـيـ، بـعـدـ أـكـثـرـ مـنـ سـنـةـ مـنـذـ اـفـرـقـنـاـ فـيـ الـقـالـةـ. حـينـ رـاحـتـ تـسـرـدـ فـيـهـاـ رـحـلـتـهـاـ نـحـوـ قـصـرـ ذـكـ الـعـثـمـانـيـ.

عامٌ تعسٌ على الفرنسيين

يومها... بقيت إيزابيل بمحاذاته حين انبعث صوت طلقات قريبة. أوقف باش المكافحة عربته. سحب الحوذى الصندوق المرافق لها نحو البساتين وأخفاه بين الزرع. انتفضتْ ورفضت السير. طلبت منه العودة وإخفاء الصندوق جيداً عن الأعين. عاد أدراجه، أخذ برص حزم من الخطب والأغصان فوقه. يجمع أعواذاً من الوزال الشائك ويُضيفها. شدّها باش المكافحة غاضباً ثم رمى بها على مؤخرة بغلة أخذها عنوة من فلاح بعدهما ألقى إليه بثمنها. سارت البغله ببطء وهي تلقي بنظرة الأخيرة على الوادي الذي قطعته فصارت الرّقوق وحدها هناك في طرفه الثاني. كانت تدرّي كيف تجعله يلين لاحقاً لذا لم تكتِر لفورة غضبه. تبادلت النّظرات مع الحوذى الذي كلف بياصالها، بينما غادر باش المكافحة متوجهاً نحو قصر الباي. قبل أن يفترق الثلاثة تبادلوا النّظرات.

توعد الحوذى بقطع رأسه وهو يدفعه من ذراعه إن فشل في حمايتها.

مرّ الوقت، بلغت القصر، بخفة طلبت من الخادمة أن تدلّها على مخدع سيدها، حيث عثرت على سرّة من النقود منحتها للحوذى وأمرته بإحضار الصندوق وإلا ستجعل زوجها يقطع رأسه. مرّ نصف النّهار قبل أن يعود الحوذى التّعس حاملاً الصندوق فوق ظهر البغله، بعدما أظهر شجاعةً كبيرة.

وقد بدا له أنّ هذا الصندوق الثقيل يُخفي كنوزاً، وخرّ البغله مغيّراً اتجاهها. قام بفتحه وإذا بداخله قطعٌ حديديّة وخشبية مرصوصة،

وعلبةٌ من الإبر وكتبٌ منتفخة الأوراق مبتورة الأول، ألقى بها أرضاً. فكر في أنَّ بيع تلك القطع الحديدية لن يجلب له ما قد تجلبه مكافأة سيدته، فهي دائيرية لا تصلح حتى كأسلحة. ثم أنَّ بيعها سيتسببُ في قطع رأسه. حمل الكتب وأجزاء المخيطة من الأرض مجدداً ودسها في الصندوق وأعاد إغلاقه.

ملأت إيزابيل ساحة القصر بالقهقات بهجةً. دست الكتب داخل صندوق للثياب بعدما نفضت ما علق بها من تُراب. التفت حول نفسها ووعدته بكيس آخر مملوء بالفرنكات. عادت إلى غرفتها وفتحت الصندوق على مهل. أخذت تُرْصَ قطعها. ثبتت رأس الآلة، ثم العين التي تحمل الخيط والبكرة ثم الإبرة وذراعها الذي يُدار باليد ليجعل الإبرة تُدخل الخيط في القماش ثم تُخرجُه، بعد أن تصنع سلسلة من الغرز التي لا يمكن فكها. أخذت في النظر طويلاً إلى الآلة التي تحيط ثياب جنود نابليون، والقادرة على خياطة قفاطن الباسوية أيضاً! أحكمت إغلاق الغرفة ثم غادرت لتكتب أولى رسائلها. لم تنجح في إرسالها إلا بعد مرور سنة ونيف. سكت الحمي عظامها وقد بلغتها أخبار معركة أبو قير البحرية في أغسطس. زاد انكسارها عندما صار نابليون وجيشه سجناً في مصر، من سيحرر نابليون؟ نابليونُ الذي صار مثل السيد بلاشار يرتدي ملابس شرقية وعمامة، يحمل اسمَا شرقياً، يحتفل بأعياد المسلمين ويرعى قوافل حجّهم! فكل ما أحرزه في مصر هو بعض النصر. تماماً كما كان غزوه لليافا وحيفا والناصرة وعكا. وقد أدرك جيشنا الطَّاعونُ والجوعُ في الصحاري، شاعت أنباء موته. فجُنت إيزابيل، كما شاع نبأ موت

العلماء الذين صاحبوه، فكانت الفاجعة في مدرستي القديمة. مئات العلماء والرسامين والتّقنيين والمخترعين والكيمائيين والرياضيين والفلكيين والأطباء الذين أنجبتهم الأمة الفرنسية. اليوم يصل آخر جُندي مهزوم سمح له الإنجلiz بالعودة. يا له من عامٍ تعسِّي رغم الصلح مع الجزائر!

ليلاً شرعتُ أقرأً وحيداً ما جاء في رسالتها الجديدة. جفتْ حلقي، وحظت عيناي. طويتها وغفوتُ. في الصباح الباكر قام الجنرال باستدعائي، بدا أكثر أناقةً. قال:

- تغادرُ إلى القالة بعد ثلاثة أيامِ.
- ثلاثة أيامِ!

صبَّ عليّ شواطِ غضبه.

- جهز نفسك أيها الضابط!

صديق الإسباني ديفو

كُنّا قد تشاركنا شؤون التجارة لسنوات. كلفته بإيصال رسالة إلى إيزايل، ابتي في المعهودية التي أسرها باش المكافحة، وتزوجها عنوة. جعلته يكتم السر بعدد كبير من الفرنكات وكلفته بإيصال رسالتي. يتظاهر بحمل الهدايا لهما، تتفطن هي، فتردّ وكأنها تكتب خطاباً لوالدتها، السيدة ماغدالينا. بقيت المراسلات سرية، مثل يوليوس قيصر أبدل كل حرف بالحرف الذي يليه لجعل المراسلات أكثر سرية. منحتها أول الأمر عنواناً وإشارة وختمت بالديك الغالي. جاءني الرد منها، عثرت على مفتاح النص ثم شرعت أقرأ بلا عناء.

في المساء عدتُ لقراءة رسالتها الأخيرة. رفضتُ تناول العشاء
بعدما شاهدتُ طاولة المطبخ ملوثةً بدم لحم نيء كان فيتالي يقومُ
بتقطيعه. حمل سكين المطبخ بيده ورأس الخنزير في يد أخرى. قذف
به على النار ثم وضع عليه الخل والنبيذ وشرائح الخضار.
- نظف هذه القذارة حالاً!

نهرته بحدة ودخلتُ إلى مكتبي. أحكمتُ إغلاق الباب وأعدتُ
القراءة بعدما أدركتُ أنّ في الرسالة إيعازاً بأن يقتل حاملها. ولو أنّ
ديغو علمَ ما تحمله الرسالة ما طلب مني تهكّماً قراءتها بعد تمريرها
على الضوء بل وما حملها إلىّ!

مثل الرسائل القديمة وضعتُ ثقباً بدبّوسٍ على الأحرف التي
يؤلّفُ تسلسلها الكلمات المقصود إيصالها. تظهرُ الثقوب بسهولة
عندما يوضع خلف الرسالة ضوء أو نار. نقلتُ الحروف المحددة
إلى ورقة أخرى، سقطت الدوامة أرضاً دون أن أنتبه وأنا ألتقطُ (أقتلُ
حامل الرسالة الإسباني). وقد كانت العبارة هي المعلومة السرية
الوحيدة التي تحملها الرسالة هذه المرة. لم أنم الليل مفكراً في طريقةٍ
استدرجه بها، دون أن أثير شكوك أحد. لكن كيف أفعل ذلك بعدما
كُنا نتسلّى معًا في القالة؟ كيف أفعل ذلك دون أن أعلم لماذا؟ وقد
يكونُ الأمرُ مجرد فورة غضبٍ.

حاولت جيزيلاً ملاطفتي ليلاً بعد نوم الفتاتين. لاحظتْ تجھمي
واستغرافي في التفكير. يصلّني صوتها خافتاً.
- حسناً يا فيكتور، ألا تلاحظ أنّ إيزابيل تراسلك كثيراً؟
- هل... هل قلت شيئاً؟

تهمنُ دموعها.

- آه، لا أصدقُ كيف تفضلُ تلك الجنوبيّة، الريفية، علىي أنا!

- جيزيلا، أنت امرأة صالحّة. هل تكتُمِين سرّاً إن أخبرتك؟ أنقدَ والدُها السيد ديتريش رقة والدي من مقصّلة الثوار. لذا سأساعدُ ابنته الوحيدة عرفاناً، وما أكتبُ لها إلا بشيءٍ من الأبوة. وكما تعلمين، أنا رجلٌ لا يجدُ في الخُدُع الدّنيئة أية لذائف، ولا أرتادُ حفلات اللّهُو. عليك أن تكوني سعيدةً مثل زوجة بونابرت، فهو مثلّي لا يجدُ وقتاً للّمُتع الصغيرة. أنا مسكونٌ برغائب المجد والشرف والسمو ولا يمكنُ لأمرأة تعسّه منحني تلك الرّغائب. إيزابيل ديتريش امرأة تعسّه، قد تنتهي بها الحياة إلى مصير مُظلم. لذا عليك أن تفضّلي الخير على الشر والنّبل على الوضاعة والوفاء على الخيانة. أنا وصيّ عليها. إنه الواجبُ والقدر وإن كنْتِ امرأة صالحّة عليك مساعدتي في تأدّيه. حسناً هذه رسالتُها بإمكانك قراءتها لتطمئّني.

- لن أقرأها، قرأتُ غيرها ولم أجده فيها شيئاً سوى خطاباتٍ تُرسلها لوالدتها ماغدالينا، وعناوين لكتبٍ تطلبُ منها إرسالها فترسلها أنت. يا لحظي العاشر حتى باائعُ الخردّاوات الذي دفعتُ له ليخلّصني من مكتبي اختفى!

- هل كنْتِ من أرسل ذلك العَطِينَ الذي يتمخّطُ على أصصِ الزهور؟ بئس ما فعلتِ! كان عليك أن تثقي في سموّ نفس فيكتور دي أوغو!

ثم غادرتُها، أدرتُ ظهري وحاولتُ الخلود إلى النوم. لم أستطعْ. غادرتُ نحو مكتبي، حيثْ بدأتُ أقلبُ في أشيائي القديمة. عثرتُ

على لباسِ قديمٍ لي عندما كُنْتُ مجرّد طالبٍ في مدرسة في باليزو وغير بعيد عن مدرسة البوليتكنيك. أتفقدُ البنطال والسترة والحذاء الأسود طويلاً العنق ثم أضعهُ جانبًا.

هل أطلق النار عليه غدرًا؟ أم أستدرجه وأطعنه؟ أم أعطيه دواءً مُنهلًا ينتهي بالموت؟

الإمبراطور شارلكان ومدن المرجان

أعادتني الذاكرة إلى الصوت الرّخيم لـ ديبغۇ وهو يقول لي قبل ثلاثة سنوات في إحدى مقاهي العاصمة.

- تعال مرة إلى وهران لنشرب كأساً...

- في القالة خمور اللّذ من خمور النورماندي، اللّذ من نيزد بوردو الأبيض والأحمر، فالقطاف هنا أجود والأرض أكثر طيبة.

منذ أربعة قرون والإسبان يحلمون بسواحل الجزائر. ما زال ديبغۇ يتباھى باستيلائهم على المرسى الكبير ووهران بعد أربعة سنوات فقط من ذلك ثم مستغانم بعد سنتين وتلمسان بعد سنة واحدة فقط، بينما تطيرُ بنا عربته في طريق الميناء. يستحدث جواده فيشتدّ صوت قرقة عجلاتها؛ أمّا حين يملأ مُترنّحا يقول:

- على نابليون تشکیل تحالفٍ للقضاء على أسطول الجزائر وإلا عاد إليكم كما عاد شارلكان إلينا وهو يجّر أذیال الهزيمة رغم أنه شکل تحالفًا مقدّساً. يا الله من إمبراطور تعسٍ!

- اطمئنّ، ستفعلُ ما عجزتُ عن فعله، هاهاها...

يردّ بلكته الإسبانية وهو يتحفّصُني بانتباھ.

- أهكذا تُخاطب إسبانياً، نابليون أنعش غُروركم، لكنّ الوقت
مبكرٌ جدًا فانتبه!
وكاننا دِيَكَانِ يستعدان للقتال.

- آه يا دِيَغُو لو تنضمُون إلينا لتعلّمُوا، هاهاهـا...
- لم نعدْ راغبين في الجزائر. نملكُ من المستعمراتِ في أمريكا
ما لن تَمْلِكُ فرنسا في إفريقيا. لكن لن أعرض على انضمامنا إليكم
تمامًا كما لن أعرض على دعوتك للعشاء الليلة.
وأصلَ بصوتِ لاذع ساخرٍ:

- عندما يتلقى الفرنسيون أيّ جوابٍ على تقاريرهم التي يُرسلونها
لا تنسَ أن تدعوني إلى العشاء أيضًا، هاهاهـا...
لم أُكُنْ أدرِي وقتها هل أسعد بوجود هذا الصديق الذكيّ أم
أجزع؟ هل يُصْرُّ على صداقتي من أجل تجارتة وكراء السفن أم لأنَّه
يبحثُ عن فرنسيٍ يُفْشِي الأسرار؟ فكل تلك الكؤوس عاجزةٌ عن أن
تفقدَهُ صحةً.

أخفض صوته درجتين واقترب من أذني قائلاً:
- نحو هذه السواحل هرب الأندلسيون جياعًا، مسلمون ويهدود،
طاردناهم، أنقذ العثمانيون الآلاف منهم. اشتَدَّت شوكتهم، حصلوا
على مراكب هاجموا بها إسبانيا ونابولي وصقلية وسواحلكم.
يطاردوننا، هاهاهـا، يعتبرون أنفسهم في حرب مقدسة ضدنا. أما نحنُ
فقد غادرنا إفريقيا نحو حرب مقدسة في العالم الجديد، هاهاهـا.
إذهبُوا إليها أنتم وساكون إلى جانبكم بسفينتي، هاهاهـا.
يُضم شفتهُ السفلى إلى شفته العليا، يضع يدًا على ذقه.

- يقولون إنه لا عهد لنا، يُجاهدون لرذ العُدوان ولا يقصدون السَّلْب والنَّهَب. شيئاً فشيئاً صرنا جميعاً ندفعُ الضَّرائب للبرابرة منْ يُصدِّق؟ أمريكا تدفع، هولندا، البرتغال، نابولي، السُّويد والنرويج. المال، الأسلحة، وعتاد السفن مقابل حُريَّة الملاحة! خمسة ألف لوبيزة سلطاني يحصلون عليها كلَّ سنة. هيَا، هيَا، فلتتعاون، هاهاها... ولنقتسمْ!

انطوى وعاد إلى مكانه. انشغل بالسؤال عن الطعام.

- لابد أنك تحملُ رتبة عسكريَّة يا فيكتور!

- كلا، لكنَّ الذي خدم في البحريَّة.

وهو يتفحَّصني مُشدَّداً على لفظة البحريَّة.

- إذن تحملُ رتبة في البحريَّة!

تجاهلت تحاذفَةُ البعيض. أدرتُ ظهري مغادراً مُكفَّهَ السُّحنة. بينما ظلَّ يرمقني خفيةً. ديعُو صديقُ ماكرُ ذو نباهةٍ. قد يكونُ أيضاً عيناً من عيون الإسبان أو الإنجلiz، لا مجرد تاجرٍ كبير. أغلب الموظفين في الحامية مثلَي مُرتَابون من أمره. غادرتهُ تاركاً للآيام مهمَّة حلَّ لغز ذلك الرجل الذي دائمًا ما كنَّا معَه وكأنَّا أصدقاء وكنَّا فقط دون أن تكون تماماً!

قبل سنة من إعلان الحرب، هاجمت ثلة من الرجال عربتنا بمحاذة الحامية بعد مارفوا رائض الشكوى للبَّاي والباشا واتهمونا بالنهب. لمْ يبقَ ديعُو مكتوف الأيدي وحاول الدُّفاع عن نفسه. وقع تحت العصيَّ والهراوات. كان عددهم يربو عن الثلاثين رجلاً. هرع إلىَّ ليُساعدني فغرس أحدهُم حربتهُ في جسده فأصيب ذراعه. أدركتنا

اليُولداش وقاموا بتفريق الغاضبين. عُدنا إلى المستشفى حيث عالج الطبيب يده المُصابة. تلك الحادثة أكَدتْ ظنوني، دِييغو تاجرُ ذو حنكةٍ ونباهةٍ يحب دسّ أنفه في كلّ شيء. ليتلها ارتفعت حرارته، لكنه لم يغب عن وعيه. حدّثني ساخراً بينما أحَاوْل مساعدته.

- صار العشاءُ جاهزاً، يا دِييغو.

- أخطاڑُ كثيرةٌ تحقق بكم يا فيكتور، لكن أتدرى، كلّما زادتْ ببربرية الشعوب وجهلها كلّما تعاظم ما يُمكنك أخذُه منها، هاها..

لا.. لا أستطيع الضحك... أتألم!

ضغط بشدة على السرير وهو يحاوُل الجلوس والاعتدال لتناول العشاء، لكن ما تناول سوى الدواء.

- لماذا حاولت مُساعدتي يا دِييغو، كدت تفقد حياتك!

- لأنني أحب باريس يا رجل. هناك باريس واحدة والإسبان يحبون باريس يا فيكتور، يُحبونها مثلكم!

كافيه أنغليه

في الغد سرتُ إلى مقهى كافيه دي باري، حيث أقبل بعد لحظاتٍ دِييغو ثم غادرنا نحو كافيه أنغليه، حيث يُفضلُ الجلوس بعد شارعين من شارع أدرسون.

- أنا مُنهكٌ يا فيكتور مثل حصان بريدي، هاهاها...

ثم راح يسردُ حوادث الطريق التي صارت مألفةً بعد كل إبحار. لكنه كاد يفقدُ رسالة إيزابيل هذه المرة. بعد خروج سفينته نحو ميناء أليكانتي، أوقف الرئيس السفينية ونزلوا على ظهرها بعد مقاومةً ضعيفَةً

ورفضِي رضخ القبطانُ لأمر تفتيش حمولتها. فقدوا أسماء الرّاكبين
وتصاريح التجارة والتزام السفينة بدفع ضرائب الملاحة. دفع أحدُ
الرياس ديغُو المُتذمِّر. بصوت أَجْشَ راح يسأله:

- من أنت؟

- تاجرُ حرير إسبانيّ.

وهو يغرسُ فوهة البندقية في صدره.

- لقد طردناكم قبل سبع سنوات ونيف شرّ طردةً بعدما حملتم لنا
الموت، فماذا تحملُ غير الحرير لستوفي الضرائب منكم.

- أحملُ بعض الكتب ليبعها للقناصل وعائلاتهم والأجانب
المقيمين هنا من مُحبي الفلسفة واللاهوت والشعر.
ضحك الرئيس والجنود.

- سُلُّقي بها في جوف البحر وندعك تُمَّ بسلام أيها التّعس
فالمعاهدةُ تحميكم. تحاول أن تكون تاجراً صالحاً. لا يهمّني من
الذي سيشتري منك هذه الكتب، إدفع ثلاثة فرنك إجبارية بسبب
السلع المُخالفَة للحمولة المسموح بها لك.

- هذا ليس عدلاً، أحملُ كُتبًا، أوراقاً لا أسلحةً!

- إن لم تدفع بعد يومين نسحبُ منك إذن التجارة ونصادر
السفينة.

ثم راح يسأل:

- ما هذا؟ ماذا تخفون في هذه العلبة الحديدية المُحْكَمةِ
الإغلاق؟ أهي ذخيرة؟ أم مُتفجرات؟ اعترِفْ!
إنّها مجرّد طعامٍ مُعلَّبٍ يا سيدي.

- طعام؟ مُعلَّب؟ ماذا تعني؟ هل تسخر مني أيها التّعس!

- كَلَّا، كَلَّا يا سيدِي. نحن نُعلَّب الأغذية. كل السفن الأوروبيّة تحمل أغذية مُعلَّبة، حتى الفرنسيّون أصدقاوْكُم يجيدون تعليبيها. نابليون نفسه يأكل منها. إنّها تملأ سفنه في كل حملة يقودها. إنّه مجرّد طَعَام، طَعَام جيّد لا يتلف ولا يتعرّض بعدما تم حفظه. أنظر... سأفتحُها، إنّها بازلاً طازجة... سأكلّها أمامك...

- ابتعد.. ابتعد! ماذا تقوله؟ عُلب حديديّ لحفظ الطَّعَام! افتح

غيرها لأنّي!

- هنا ثمار طازجة وأسماك وخضروات ولحم بقر. كنا نحفظها للجنود على متن السفن فتراتٍ طويلة. ثم صرنا نبيعها لكل المسافرين الذين يحتاجون إلى مؤونة في رحلاتهم.

ثم قال ديهغو مُتنهداً:

- آه يا عزيزي فيكتور. لو كنت أحمل سلاحاً لأفرغته في رأس ذلك الرئيس التّعس المدعو حسن أو حسين، ودافعت به عن الكتب التي كانت إيزابيل ستدفع ثمنها بسخاء.

- والرسالة!

- أمّا الرسالة الجديدة فنجزت، حملتها في كعب حذائي العريض الذي صنعته ودهنته ليحمل بعض المال دون أن يتبه أحد. حتى عندما خلّعه القرصنة ليقتشوّه لم يجدوا شيئاً... غمغم:

- يالله من رجل غليظٌ صلبي، ما كان لأحد أن يشرح له ما يعنيه طعام مُعلَّب... مُعلَّب!

- وكيف جمعت مبلغ الضريرية؟

- قبضتُ ثمن شحنة كتبٍ سابقةٍ وزّعتُها على القُنصليات وكبار التجار واقتصرتُ ما بقي.

فرك يديه كمن يتنتظر مكافأةً. قفز من الكرسيّ، راح يمشي مشيةً عسكريّةً، تقدّمَ نحوّي، أخذ بيدي ثم جلس ملاصقاً لي. خفّض صوتهُ، قال:

- لن تجد أحداً بذكائي يوصلُ الرسائل، ادفعْ بسخاء. أنت الفرنسيون تملكون دائمًا ما تدفعونه، حتى الباشا يعلمُ ذلك لذا أصبح يهدّدكم بتسلّيم امتيازاتكم وتجارتكم إلى الإنجليز ما لم تدفعوا ما اشترطُه كمقابلٍ رغم الصلح.

لمَ آخذ تلميحاته مأخذ الجدّ رغبةً في التغلب على شوكوكى وطرد مخاوفى. أىكونُ قد اكتشف أمرنا، ولذلك طلبتُ مني قتلُه؟

- دعني أقصّ عليك يا صديقِي قصة قديمة روتها جدتي آنا، ما غابت عنّي يوماً، قبل ثلاثةٍ سنة تنّجّر لورانزو دي باديا بأمرِي من الملكة إليزابيث، التي كلفتُ بمهمة التجسس على مملكة تلمسان، فتنّجّر في زى تاجرٍ عربىٍّ ومكث فيها أكثر من عام، ثم؟ ثم؟ ... هاهاهَا نسيتُ بقية القصة! أندري ياسينيور فيكتور، ملابسُ إيزابيل الشرقيّة جيّدةً أيضاً. آخر مرّة نزعتُ حُليّها كلّه ووهبته لي، دفعتُ بسخاءً هناك فكم ستدفعُ أنتَ هنا؟

وهو يسدّدُ إلى نظراتِ قاتلة، واصلُ مُحرّكَاً أطراف شفتيه:

- لا تخف من العثمانيين، قد يعترضونَ الرسائل لكن لن يتمكّنُوا من فك رموزها. يُفضلون حرقها واستجواب الرّسل وقتلهم جلودهم. لقد حملتها إليك كما يحمل الجندي السلاح لذا أنتظّرُ أن

تدفع بسخاءً يا فيكتور أو أيًا كان اسمك الحقيقيّ. وطالما أتاك تخدم الجمهورية عليك أن تكون الاحترام لي، لأنني أفعل أيضًا دون أن أدرى، هاهاها...

بقيت صامتًا، أستعيد دفاعه عنّي. كنّا رفيقين سفر، خرجنا من القالة سالمين بعدما أعلن النّفير، واليوم لا أدرى من مَنْ سيعود سالما إليها!

في المساء أخذت له المال ليطمئن حيث نزل. أرسلت رسالة عاجلة إلى الجنرال أطلعه فيها على الأمر. داهمت دورية من الشرطة الفندق. رافقهم عنوة ثم اختفى أثره مع خطوات عسكريّة قادته في الممر مُكبل اليدين. ربما قُضي عليه برصاصه، أو رصاصتين. ربما قُبض عليه والسلاح في يده أو وهو يهم بحمله. يا له من رجل ذكي وأحمق بالتساوي، وباللي من رجل وفيّ وخائن بالتساوي أيضًا. هل أنا بحاجة إلى أن أعرف كيف مات؟ هل خاف؟ هل بهت وجهه؟ هل حاول النّجاة؟ هل سخر منهم كعادته؟ هل سخر من الموت، مني، من الفرنسيين؟ ومن باريس التي أحبّها؟ هل ما زال يحب باريس وترابها الذي يرقد فيه الآن؟

الفصل الثالث

الليلة الأولى

بالصلاح انتهت أحاديثُ الحرب، وعادت مجدداً الأحاديث عن الديون الفرنسية، أحاديث أخرى عن خوجة العيون الجديد الذي يشرف على صيانة العيون والخزانات وإيصال الماء لقصور الباشا وجنانه. لا شيء كان يشي بما سيقُمُّ من مصائب بعد.

مرّت ثلاث سنوات مذ دعا باش المكافحة إيزايل إلى سريره وأخبرها أنّ اسمها سيكون سلطانة، وهو يضع يديه على عنقها البعض، ثم مال السرير كما تميّل العربية به عندما يركبها. يومها بكت زوجاته، لطمنن ولو لأنّ:

كانت الخادمات قد عطّرن الغرفة وقمن بتزيينها من أجل العروس الجديدة. حضرن المياх والزّهور وجددن الستائر وفرشن السجاد ورتّبن المناضد والخزائن والدواليب.

سرعان ما انتبهت إيزابيل إلى ما يرضيه، فغادر زوجة تركية وأخرى من المور والجواري اليونانيات والشركات ولزمها. ضاقت بخشونة حرثه ولهاته وجذوته التي لا تنطفئ. لكن مثل شهرزاد ظلت تسرد الحكايات المدهشة كل ليلة. سألها مرة عما تحلم به ليجلبها في ذات:

- أريد.. أريد.. أن أحصل على حق إبداء الرأي داخل هذه الغرفة.
- أتراك لا تريدين بذلك شيئاً أم كل شيء؟
ضحكا.

قال لها:

- يطيب لي أن أهديك كل ما تريدين فتحدثي.

- أود لو.. لو.. أقصد الميناء من حين إلى حين لشراء الأقمشة والكتب النادرة التي يتاعها التجار الأوروبيون من الأكشاك والمكتبات ويعونها هنا.

دُهش لطلبها الغريب الذي لم تطلبه قبلها امرأة. مدفوعة بفضولها تقدمت بخطوات بينما ظل خلفها. سألته عن شبابه، رد:

- قضيت شبابي كجندي تعس قادم من الأناضول. اغتنمت فرصة سانحة، خدمت هذا وذاك حتى أصبح ما أنا عليه. دائما تحتاج إلى قليل من الخسارة والكياسة والحدِّر لتضع نفسك في مقام أفضل. بلغت القالة مشيا على الأقدام هربا من إالية تونس بعد خصومة مع القائد أركان باريش أوغلي، انتهت بشج رأسه وقتله علي يدي. توأرت فترة، غيرت اسمي إلى باربجي زلال يلدرم، وأنا أكتب في دفتر الجندي. أظهرت الشجاعة فعُيئت باشا للمكافحة.

كم يزيد إغلاق باب فتح فجأة راح يداعبها. أخذت تستدرجه بينما تقرأ له الأهازيج الغنائية التي وضعها الشاعران وردزورث وكوليриج، أو كلمات لغوطه وجان بول ونو فاليس، لكنه لا يكترث يلقط الكتاب بين يديها ويقذفه على طرف السرير تماما كما ما عاد يكترث لتعلم نسخ الحرف الفرنسي أو اللاتيني. تسأله عن يومه الطويل ثم تُحده عما بلغها من أخبار عن السيمفونية الأولى لبيتهوفن، ومعزوفتي الخلق وقصول، لهايدن، وأوبرا الموت والصبية لشوبرت وأوبرا الناي السحري لموزارت..

- ليتك تنصت يا سيدى لسمفونية البطولة العجيبة، إيرويكا التي
أهداها بتهوفن إلى نابليون وريث ثورتنا...
توهّج ويهوّج، يدعوها لترك الحديث وإطفاء قناديل الغرفة.

سلطانة

أدّار ظهره مرّة وقد هبط الليل، سأّلها بعدما وقع فريسة أفكار
عاصفة:

- أخبريني، كيف هرّبت آلة الخياطة إلى القالة؟ الفرنسيون
يمعنون شحن الآلات في كل الموانئ!

- في بلدي ظل الكادحون يُحطّمون الآلات الجديدة. يؤمّنون
أن المخترعين يدمّرون سُبُل الحياة. بعض المُزارعين وأصحاب
العامل صاروا يتّرون آلاتهم خارجاً، حتى يدمّرها المشاغبون
دون أن يخرّبوا المخازن. أعلنت الحكومة عن قانون يحمي الآلات،
شأنها شأن الأراضي والممتلكات والمواشي والعربات. دفعت بعض
المال لتمريرها، حسناً دفعت الكثير. لا أستطيع الرحيل نحو مدينة
دون الكتب وماكينة الخياطة، الآلة الوحيدة التي تبقي من كل ما
ورثته.

- حسناً حدّثيني أكثر عنك، عن أهلك؟

- فعلت ذلك مراراً، أنسّيت؟

- أتخدعني أيتها الجميلة؟

أخذت تفتعل الضحك، شعرت لوهلة بالخوف والسلام من غزله
المُبتدئ.

- ولماذا قد أخفي قصّة أهلي عن رجل وهبني من الحيوانات أجملها.

- هل تحبّيني؟

- كان يمكن أن أرتد وأصبح على دينك، مثلما يفعل الكثيرون من الأسرى، لكنّك قطعت لي عهداً بحرّيتي، ولو لم تقطعه ما كنتُ لك، فكيف لي ألا أحبّ من جعلني حُرّةً!

- على أنّ سُلْمِي أمّا الآخرين أنك سُلطانة لا إيزابيل.

- سَلَّمْتُ، ولكن.. يعزّ عليّ أن يجعلني حُرّةً ثم تمنعني مراًوا من سوق الميناء، من القراءة والكتابة. ثور ثائرٌ لك، فتلقي بكتبي إلى لهيب النار!

- كيف ترينني؟

- وتمتحنني الأمان؟

- أراكَ... أراكَ بآيا لقسطنطينية، أو خزناجيّاً أو كعُضوٍ في الديوان، أراكَ.. كـ... باشا لهذه البلاد!

- في شبابي حلمتُ أن أكون الخزناجي، كبير البلاد بعد الباشا. أقودُ الحملات على المُتمردين، أسلّمُ الخزينة، أكسب ودّ رجال الديوان بعدها سيكون سهلاً أن أكون الباشا.

- أساعدُك... وتكون... الباشا..

- ليس الأمر بالهين. هنا... كل إنكشاري يحلم بأن يصبح آغا الهااللين، فيكتسب صفة أول عضو في الديوان بعد الّدّاي. لكن حتى ذلك لا يحدث. منعني القلافُ مراتٍ من ترك القالة نحو الجزائر. وهو هو الباي يُلمّح إلى عزلِي. عليّ توسيع تجاري ليعلو شأنِي. لا

أريد أن أصبح آغا الهلاليين، في البدء أخذ ما يفوق ثلاثة ألف فرنك،
بعد شهرين تنتهي سلطوك ونفوذك بعد أن تتخلّى عن عضويتك في
الديوان.

- لن يطول بك الأمر حتى تكون الباشا.

انقبض قلبه، شخصت عيناه، زمّ شفتيه، حرّك بسبابته أنفه الكبير... الـ

- هنا... لتكون الباشا عليك الحذر من الخزنجي وخوجه
الخيل وبيت المالجي وكيل العرج وأعضاء الديوان، والبوايات، قبل
أن تحترس من الثنائيين وإيالة تونس والإسبان والسلطان!

- يَا سْتَكُونَ الْبَاشَا ..

- يُلوح الباي لي بالعزل يا إيزابيل. هنا مجرد الشك، يُعرض لك للغضب، للنفي والقتل، قُضي الأمر!

* * *

ایزابیل والسپد فولتا ولافوژیه وجالیلیو!

- أُفجّرتني الملذات، فحدّثني عن أهلك الليلة أيتها الفنساوية
المدهشة، وأخبريني ما الذي حلّ بزوجك الفرنسي؟
الصقت ركبتيها ببعضهما، انزوّت وكأنّها تودّل لو تحتمي من ماضٍ
عاد لينقضّ عليها.

- يقولون إنني امرأة جميلة، لكن حتماً لست امرأة تُؤخذ بالمدائح أو المال. كان زوجي توماس من أثرياء مونتيليه، صديقاً للرجال البنوك والشركات. اشتغل في صهر الحديد، تكبد الكثير وقد صار في أوروبا كلّها أكثر جودة وأقل سعراً. أدرك متأخراً أن صناعة

الآلات والأدوات أكثر ربحاً. بعد شهر من زواجنا أصدر في غيابه حُكْم بالسجن فهرب.

ترك لها جسده المتعب...

أخذت تُدَلِّكُ ظهره ببطءٍ وتروي له:

- كان جدي ولIAM من كبار النبلاء. تاجر فحم حولته الدسائس إلى مهاجر مطارد. قبل سنوات وصل إنتاج الفحم وال الحديد حداً عظيماً وصارت الماكينات حديدية، والفحم قواد للمحركات، حينها ازدهرت تجارتُه. بسبب شاشية وضع اسمه على منشور المطلوبين أيام الثورة. انقطعت أخباره وما عدنا نعرف عنه شيئاً.

- ماذا عن والدك، السيد ديريتتش؟

- رفض الحصول على جوازات سفر للعائلة وقرر البقاء حتى آخر رقم. أخذ يعمل بجد، جعل عربات البضائع تسير على سكة حديدية مثبتة فوق قطع خشبية، بعد عمل استمر لأشهر كلفه الكبير. ذات يوم كان قادماً من باريس حين بلغه أنها تعرض الألواح الخشبية والسلكة الحديدية للتخريب على يد جمهورين أشاعوا أنه ملكي مت指控. بعد يومين قتلوه... فترت رغبة شقيقتي جورج في الحياة رغم حبه للعمل. منذ صغره ينعته أقرانه بالمجون الذي يُحب تربية دودة القرمز. حين بلغ الثامنة عشر حول القبو إلى مختبر! مرّة ساعدته في مزج المطاط بالكبريت ليُصبح أقوى. (يمكن استخدام عصارة المطاط في صنع أشياء أكثر متانة) هذا ما أقنعني به يومها. فمنا بحسب الخليط وصنعنا الأنابيب والإطارات والعوازل. لم نتمكن من بيعها لأحد لارتفاع ثمنها. مرّة قام بتسخين المطاط ومزجه بالقطران

والقار، خطأ انقلب القذر، صرخت انتبه عيناً، فقد ملا المطاط أرضية القبو. رغم تلك الفجيعة ظل يحلم بامتلاك مزارع للمطاط مؤمناً بأن ما يصنعه خفية سيجد سوقاً له، كما ظل يحاول صناعة مركب سريع دون مجاديف، ثم هاجر واختفى.

- كيف للمراتب أن تحرّك دون مجاديف!

- صانعوا الآلات وحدهم يدركون كيف ذلك، بدل الرياح والمجاديف والقلوع التي تُرفع على الصواري.

- ألم تبحثي عنه؟ قد يكون مُجدفاً على إحدى السفن.

- صارت الحاجة إلى المال تقض مضجعي، فسافرت مع عائلة السيد فيكتور. قبلها عملت كمدبرة منزل عند رجل هجرته زوجته يدعى ألبير دومير. رسام خمسيني وحيد أشعث وكأنه مجنون. ظل يُحاول تطوير الغرفة المُظلمة للحصول على صورة حقيقة مُطابقة للوجوه التي يرسمها! توقف عن تهريب الآلات من إنجلترا إلى فرنسا عبر الأرضي المُتحفظة. حصل على آلية للغزل وحاول فتح معملٍ خاص. حاربته النقابة لكونه غريباً عن المهنة. عاد إلى تجارب عامضة، قيلَ آنه يُجريها على مركبات الفضة التي تتأثر بالضوء. غادر الرسم وحاول التصوير بتعريف لوح خاص للشمس مدة ست ساعات، مُحاولاً اختراع التصوير الشمسي هكذا قال! سخر منه الكثيرون، ينتونه بالمعتوه رغم أنه كان رجلاً طيباً. راقبته، تبيّن أنّ ما يُثار عنـه مجرد إشاعات، فقد كان يكتب ويقرأ كلّ ما يقدحُ الفكر ويثيرُ العقل. عكس السيد فيكتور، كان تعسًا لا يملّ المال الكافي ليدفع أجرى فغادرته.

- قلتِ... التصوير... الشمسي !
- هو.. رسمُ لك، آلة عجيبة ترسمك، حسناً لا أفهم كيف يحدث الأمر لكنه يقول ذلك. يريد لفت انتباه نابليون تماماً كما لفت السيد فولتا إعجابه حين اخترع أول بطارية بعد سنة من حملته على مصر.
- وما هي هذه البطارия يا إيزابيل !
- بطارية... كهربائية.. حسناً لم يحدث وأن قرأتُ عنها لكنهم يُسمّونها هكذا. حتى أن نابليون دعاه إلى المعهد لعرضها ومنحه وساماً.
- بطارية... هاهاها... كهـل... وـبـائـيـة... هـاـهاـها... لو سمع أحدُ غيري أحديك هنا لنعتوك بالـعـتـهـ والـجـنـونـ وأـكـادـأـفـعـلـ !
- الكهرباء هي.. هي البرق... البرق يا سيدي، تلك القوّة ما يُسمى كهرباء في الطبيعة. لا تسخر مني، كلّ ما أسرده قرأته في الصحف والجرائد، بعضه بلغني من التجار الأوروبيون في سوق الميناء.
- ما أمنع حديثك. ماذا إن عاد أخوك وصار صانع آلات، هل تغادرني ؟
- قد يقتله الفرنسيون كما سبق وقطعوا رأس السيد لافوزيه، وكما قتل الإيطاليون جاليليو !
- من لافوزيه هذا؟ ومن جاليليو !
- عالمان كبيران مثل... مثل لـأـبـلـاسـ الذي ذاع صيته هذه الأيام، أخباره تملأ الميناء.
- ومن لـأـبـلـاسـ هذا... سـتـجـعـنـتـيـ !

في ليلة ما ...

سألها: «هل تؤمنين؟»

- أجل يا سيدى، أؤمن بأنه... سيذهب إيمان الكثير أدراج الرياح بعد أن يتوقف رجال الدين عن التفخ فيه ويعشه من حين إلى حين بالوعظ أو الأكاذيب. أتدرى... في هذا الكون كل شيء يرى الله بإيمانه، إلا الإنسان يظن أنه يؤمن أكثر كلّ مرأى كفر الآخر. كيف لمؤمن أن يكون قادرًا على البقين؟ كيف لمؤمن أن يخلو قلبه من رحمة الشك؟

- لا تعيدي قول هذا الكلام في الأُنْتَلِيَّةِ. أتدرى، تتحدىنَ ببطءِ كما لو آنِكَ تخيطينَ جرحاً، وأحياناً تتحدىنَ كما لو آنِكَ تفتحينَ آخرَ رغائبُكَ غَرَبِيةَ، غَرَبِيةَ جَدَّاً. سعةُ إطلاعكَ، لباقةُ تعاملكَ، كياستك تمنعني متعةً لا تشبه ما مرّ بي قبلكَ من مُتعٍ.

أخذت فنجان قهوة وراحت تقرأ بدلالي وغنج المستقبل.

- عليك أن تفكّر في تجارة محاصيل جديدة مثل الذرة البيضاء والبطاطا... .

أدارت الفنجان مرتَّةً، مرتَّتينَ، حدقَت فيه ثمَّ أخذت تبحثُ وتُفكّرُ، سألتهُ:

- أوَ تُصدِّقُ نبوءتي؟

بأنفِ مُتفاخ بالغبطةِ ردَّ:

- حتماً سأفعل.

- ستحتاج فرنسا إلى فحم الكوك، سيسْتَعملُ في كل المحرّكاتِ البخاريَّةِ ولأغلب المصانع السّنوات القادمة. سيبدأ عصرُ الفَحْمِ في

العالم كله، لذا تشتري هنا أرضاً غنية بالمناجم، توسع تجارتكم، يزداد
ربحكم، تشتري ولاء الرجال وتُصبح البائساً!
ثم ألقتم الفنجان فوق السرير وأطلقت ضحكات متابعة.
- مجنونة، مجنونة!

ما كادت الأيام تمضي حتى شاعت شهرة الآلة التي تصنع الغرز
المُتقنة. في البدء كانت النساء حذرات يرمي إيزابيل بنظرها حادة،
يرفقنهما بوشوشاً. شيئاً فشيئاً نجحت في كسب ودهن ورفع الكلفة.
في يوم خريفى غادر باش المكاحلية نحو قسطنطينية حاملاً
الضرائب رفقة عشرين رجالاً. بعد يومين وصلت أخبار تعرضهم
إلى كمين نصبه المتمردون وشاع نبأ موته. غادرت إيزابيل نحو سوق
الميناء، حاملة رسالة إلى دييغو، تُخبرني فيها بمقتل باش المكاحلية.
بلغه أمر خروجها بعد عودته سالماً، حاملاً عمامته بيده وبندقيته بيده
أخرى. أخذ يرمي بها بنظرات الريب والشك. جذبها من يدها وأجلسها
بمحاذاته. راح يسألها عن سبب ذهابها إلى الميناء.
- لتقابلي رجلاً آخر أم للفرار؟
- كلا يا سيدي... كلا...

راحت تفكّر في خديعة ما بينما تتساءل في سرّها، من الواشي؟

العودة إلى القالة

بعد يوم من وصولي وقفْتُ أناَمْلُ هزيمتنا هنا قبل ثلاثة سنوات.
أمعنتُ النظر إلى الفرنسيين العائدين بخوف دفين. عادت التجارة
في فوضى لا مثيل لها. في الطريق بلغتني شائعات مارسيلية تتحدثُ

عن إنجلزي يُدعى ريتشارد تريفثك، ابن أحد مديري المناجم في كورنوبيل، استطاع تحويل محركه البخاري إلى قاطرة قطعت تسعين ميلاً نحو مدينة بليموث ببخارها الخاص!

تمشيت فلا حقني النظارات، ما زال الخطر يحيط بنا رغم الصلح.
سريعاً عدت إلى الحامية. ألم الصّيق بجيزيلا.

- لن نرجع عن احتقارنا لهم لذا لن يرجعوا عن عدائهم لنا! ما زالت القالة تستهويكم، لكنها لا تستهويوني يا فيكتور.

لم أجادل، لا شيء تغير في القالة منذ ثلاث سنوات، بينما بدأ الفرنسيون يحولون المراعي إلى أراضٍ زراعية، انتشر المحراثُ الحديدِي والمعرفة اللذان يجرّهما الحصان. كما انتشرت محاريث ميكانيكية وساحقات حديدية وألات البذر وال收获 والدرس. اختفت الأعشابُ الضارة. بدأ المزارعون يحسّنون أجناس الحيوانات الداجنة، والحرث العميق وتصريف المياه وبناء المجاري. يعالجون التربة التي أنهكتها الزراعة. يقومون بتسميدها وتغذيتها بفوسفات الجير وأملأح التّشادر المفيدة. اشتري صديقي جيوم مصنوعاً لسوبر فوسفات الجير، يبيعه وفضلات الطّيور المستوردة لكتاب المزارعين. امتلأت عناوين الجرائد بأخبار الصناعة بينما لا جرائد حتى هنا!

- القالة جميلة يا جيزيلا، جميلة لأنها أرض فرنسية.

- هذا ما يرددُ الجميع هذه الأيام دون طائل!
ثم انسحبت نحو غرفة أخرى. في الليل أخذتُ أحدهما عن ورشة الخياطة التي فتحتها سلطانة، زوجة باش المكافحة. سلطانة التي لم تكن سوى إيزابيل!

باكراً جلست في العربة وأخذت طريقها نحو ورشة الخياطة مُحملةً برسالة إلى إيزابيل. وقفَتْ أتأملُ المدينة، لقد حصل اليولداش على قمchan وأخذية جديدة، ما زال الأغنياء يستورون أحذية إيطالية. يتداولون الحديث عن نابليون الذي صار قصلاً أولًا. لم يتغير شيءٌ، التجارُ العثمانيون والعرب أقل مهارة من اليهود الليفورنيين، بعضهم يحترفون حتى تسويق البضائع الرديئة، ومُخادعة رجال الجمارك الأكثر يقظة.

في المساء بعد عودة جيزيلا حملت رسالة من إيزابيل، تُؤكّدُ لي فيها أنها رأت السيد بلانشر في القالة منذ أيام. وقد ظننتُ أنه هالك، بعدها تركته سقيناً على فراش الموت. مما نقلت لي من أخبار، أخبار باش المكافحة الذي حاول جاهداً أن يعرف أي شيء عن ديهُو بعدما ارتقى من أمره. دفع لمترجم يهودي وأوكل إليه مهمة حل لغز آخر رسالة حملها. أسرّ في أذنه بأنّها مجرد رسالة بين ابنة وأمّها.

في الغد، مُحملًا بالهدايا الباريسية غادرت نحو قصره أتودد إليه. لم تكن إيزابيل ترافقه، حين سأله عنّها أحمر وجهه غضباً وقال أنّ زوجته تدعى سلطانة.

وضعني أمام مائدة عامرة. حاولت إرضاعه، حملت إليه زجاجة من نبيذ بوردو الفاخر وتركّت جداله. تقدّم بنا الليل فهممتُ بالمعادرة بعدها ثمّل، وإذا بالباب ينفتح لتتقدّم إيزابيل التي انقضت الليلة في انتظاري لها.

ورشة الخياطة والحسناوات

كانتْ ما تزالُ امرأة جميلة بفم ورديّ ووجهٍ نظرٍ. تُخفي ملابسها العثمانية جسدها الرشيق. بكىاسةٍ راحتْ تُحادثه دون أن تنظر إلىّي وحين تأكّدت من غياب عقله أضافت قطرتين من مشروّب بيدها أخرجهُ من طرف فستانها. جعلتهُ يتجرّع منه رشفتين. أغمض عينيه كمالو فقد صحوه. أمسكتْ يده وقالت:

- هل يتكرّم سيدِي بمراقبتي؟

ظل غائباً عن وعيه. أستدّتُ إليها، وقف متّنحًا يميل يميناً ويساراً. بعد خروجه نحو مخدعه عادتْ. انفردتُ بها فكادتْ تقفز إلى صدرِي بهجةً. أخذت تتمسّح بذراعي وكأنّها تتمسّح بذراع يسوع، سألتها:

- أين الرّقوق؟

صرختُ الخادمة خارجاً:

- لقد وقع سيدِي أرضاً!

هرعتْ إلى مخدعه، مدّتْ يدها إلى جيئنه، بدأ سقيماً. جسّتْ نبضهُ وتقدّمتْ تدفق الدم في شرائينه. بصوتٍ مرتفعٍ قالت:

- أفرط في الشربِ، كعادته. لكنَّ هذا العرق المُتصبّب يؤكّد ظنوني. منذ يومين كان في الميناء بينما تضع سفينه قادمةً من قبرص حمولتها. لعلّها حملتْ الوباء أيضاً... الوباء.. الوباء!

خرجتْ وهي تُعطي فمهما بطرف غطاء الرأس، بدّت متحفّظةً تُبعد كل من يقترب منها. أمرتُ الخدم بالانعزال خشية تفشّي الوباء لنصرفهم عناً.

- غادروا القصر بسرعة، لا يبيّن منكم أحد أو يعود قبل أن يقدم

طبيب الباي غداً ليتبين مرض سيدكم، ثم يتبيّن المريض منكم من السليم.

غادر الجميع هلعاً. غابتْ لتعود بعد لحظاتٍ وفي يدها زجاجة دواء. أضافتْ جُرعتينِ منه إلى ماء يغلي ثم تركته ليبرُد فيشربها فاترةً بعد أن يفيق. قالت:

- لقد زادَ ولعهُ باستنشاق مسحوق التبغ، فماذا أفعل يا فيكتور؟
قلَّتْ أن الرجال لا يخضعون إلا للنساء، باش المكاحلية يخضعُ للتَّبَغ
والبنيز أيضًا.

- قد يفيقُ بعد لحظاتٍ، أين الرّقوق؟

- لن يفعل. تناول جرعةً كبيرةً من المُخدّر.

- صرفتِ كلِّ الخدم؟

- إنه الوباء، الوباء!

صحيحنا..

- ما كُلُّ تلك الصناديق التي تملأُ مجلس الضيف؟

- قبل قدومكَ استقبل تجاراً من قسنطينة. حملوا له العسل والجلود والنطرون لإِعداد التبغ والبخور الأسود والعاج وأنابيب الفيلة التي تستورُدُ، وسلاماً من الكُورو...
الكُورو؟

- فاكهةً مالحةً يستخدمها القسنطينيون والأفارقة كالقهوة.
يشتريهَا الأعيان بعشرة فرنكاتٍ بينما تباع في إفريقيا بفرنك.

- ماذا عنك.. إيزابيل؟

- يُمكن للحسناوات أن يخدمن الجمهورية تماماً كما يخدمها

الجنودُ والقنصلُ الأول بجدارة، لكن أحشدُ الرجال لأنَّ الأمة تذكّرهم أكثر. لا يمكنُ لأحدٍ أن يدركَ ألمَ امرأة فرنسيَّة اضطربَتْ الواجدُ للزواجي من عُثمانِي بغيضٍ، لا وطني ولا قريتي ولا حتى أمري قد تفعل، حتى الرب الذي لجأتُ إليه لَمْ يمنعني سوى الواجب !

- نخدمُ الجمهوريَّة فتذكري. أخبريني كيف تسير الأمور في الأتلبيَّة؟

- ترددَ النسوةُ علىَّ، تبادلُ الأحاديث، نتسامر، من بعضهن عرفتُ الكثيرَ عما يستوردهُ أزواجُهنَّ من الرصاص والحديد والأقمشة والكتان والورق والسكر والقهوة والتوابل. جعلتهنَّ يثبنَ بي، لكن بقائي في القالة لا يخلو من المخاطر.

سألتُ فجأةً:

- كيف تخلصتَ من ديهُغو؟

- تولى الجنرال المهمة.

- أمَّا الخطُّ الآخر فهو هذا البغيض. لَمْ يعُد ذلك الرجل الذي يلتهبُ صدره بالراغب. صار يشكُّ في أمري بعدما اكتشفَ أنني أراسلُ أحدهم خفية.

- وكيف تجمعين الأخبار؟

- أسترق السمع كلَّما وفَدَ إليه الضيوف. قبل أيام، اقتربت من شقَّ الباب، رأيتُ تاجرَ تبرٍ عائدًا من السودان. رفضَ قبضَ المال الذي دفعهُ باش المكافحة مقابل حمولته. حادثُ بسخرية قائلًا: (ترفعون من سعر التبر بمقدار ما يبتعدُ عن موطنِه، فيُباع لكم كتجار أجانب بالسرقة والوزنة والمثقال). تنقلونه في رقيباتٍ أو تقلونه في المزاود.

وَحِينْ تَصْلُونْ هَنَا تُضَاعِفُونْ سُعْرَهُ، لَأَنَّكُمْ تَعْلَمُونْ أَنَّنَا نُرْصَعُ كَثِيرًا مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْتَّبَرِ وَنَبْيِعُهَا بِأَسْعَارِ أَغْلَى، يَا لِلْجَشْعِ!) اسْتَلَ سِيفَهُ بَعْدَمَا كَبَّلَهُ جَنْدِيَانِ وَكَسَرَهُ عَلَى رُكْبَتِهِ مُتَهَكِّمًا. سَلَبَ مَا حَمَلَ ثُمَّ أَمْرَ بِرْمِيهِ فِي السُّجْنِ. فَعَلَ ذَلِكَ بِتَاجِرِ الْحَشِيشِ الَّذِي صَارَ يَتَابِعُهُ كَلَّمَا قَدِمَ مِنْ أَرْضِ إِفْرِيقِيَا الْبَعِيدَةِ. يَجْلِبُونَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِيْ حَمْوَلَةٍ بِعِيرٍ كُلَّ سَنَةِ. إِنْ لَمْ نَسَارِعْ فِي تَهْرِيبِ الرَّقْوَقِ وَالتَّخْلُصِ مِنْهُ سَيَفْعُلُ هُوَ ذَلِكَ. لَقَدْ انْطَفَأْتُ جَذْوَتُهُ، وَمَا عَادَ يَهْتَمُ بِي إِلَّا لِيَرْتَدِدَ عَلَى وَرْشَةِ الْخِيَاطَةِ. يَتَلَذَّذُ بِاسْتَرَاقِ النَّظَرِ إِلَى نَسَاءِ الْأَشْرَافِ وَبِنَاهُنَّ، حَتَّى آتَهُ قَبْلَ أَيَامَ لَاحِقَّ اِمْرَأَةً مِنَ الْمُورِّ وَقَادَهَا إِلَى مَخْدِعِهِ.

- أَمَا زَالَ مُرْتَابًا مِنْكَ؟

- بِلْغَهُ آتَنِي شَغَلَتْ قَلْبُ التَّاجِرِ الإِسْبَانِيِّ دِيْسُغُو. وَقَدْ رَأَهُ مَرَاتٍ لَا يَحْوِلُ بَصَرُهُ عَنِّيَّ بَيْنَمَا يَعْرُضُ عَلَيَّ سَلْعَهُ الْبَارِيسِيَّةَ وَبَعْضُ الْكِتَبِ لِشَرَائِهَا، عَدَّا مَا يَحْمِلُهُ لَنَا مِنْ هَدِيَايَا.

سَرَعَانَ مَا غَادَرْتُ إِيزَابِيلَ مَعَ الصَّنْدُوقِ الَّذِي يَخْفِي الرَّقْوَقَ. بَيْنَمَا كُنْتُ عَائِدًا إِلَى الْحَامِيَّةِ أَوْقَتَنِي فَرْقَهُ مِنَ الْيُولَدَاشِ، طَوَّقُوا الْعَرَبَةَ، احْتَجَزُوهَا مَا تَحْمِلُهُ تَمَهِيدًا لِتَفْتِيشِنَا. أَسْرَعْتُ لِإِكْرَامِ قَائِدِ الدَّوْرِيَّةِ، أَشَاعَتِ الْفَرْنِكَاتُ الْكَثِيرَةُ الْبَهْجَةُ وَالسَّرُورُ فِي قَلْبِهِ. اعْتَذَرَ عَمَّا بَدَرَ مِنْهُمْ، وَانْطَلَقَتِ.

فَجَرَّا سَلَمَتُ الرَّقْوَقَ السَّرِيَّةَ لِلْمَرَاسِلِ الْعُسْكَرِيِّ. حَتَّى لَا تَلْعَبَ الظَّنُونُ بِرَأْسِ باشِ الْمَكَاحِلِيَّةِ عَدْتُ فِي الْغَدِ لِزِيَارَتِهِ وَالْأَطْمَئْنَانِ عَلَيْهِ. أَهْدَيْتُهُ زَجاَجَهُ مِنْ دَوَاءِ بَارِيسِيٍّ يَعِيدُ إِلَيْهِ الْقُوَّةَ وَالْفَحْولَةَ. أَفْقَدَتِهِ الْبَهْجَةُ صَوَابِهِ وَقَدْ أَعْلَنَ طَبِيبُ الْحَامِيَّةِ خَلُوًّا جَسْدَهُ مِنَ الْوَبَاءِ الْخَيِّثِ.

وعدته بجلب المزيد فور عودتي من رحلتي. يومها قابلتُ لأول مرة الرئيس حسين وجهًا لوجه. بدا رجلاً شجاعاً حاد الطّياع، قطّب جبينه بعض الشيء ليشغل نفسه عن إيزابيل وهي تساعد باش المكافحة على تجريح الدّواء. تأخذ بيده، تشدهُ إليها برفق فيعتدلُ أكثر، تناوله الدّواء وتغادر.

سرعان ما استعاد الرجل هيئته وصوته الجمهوري. وما إن مرت ليلة حتى عاد لاستنشاق التّبغ وسخّقه بنفسه، وحين أقبل يوم الخميس من أول شهر يونيو، غادرها إلى زوجة من المور حسناء أصغر سنّاً. رفضت زواجهُ فرفع السّوط عالياً وأسقطهُ على جسدها. وقعتْ أرضاً، ضمّتْ يديها إلى بعضهما وأخذتْ في العويل.

الفصل الرابع

بعد عامين من الصلح
القالة/ الحامية الفرنسية/ 1801

وقفت مُقابلاً للميناء، أغلقتُ الكتاب المقدّس، وحملته بيد واحدة إلى صدرِي. كان البحر يقلبُ السفن ويرسل الأمواج عاليًا. لقد تبدّلت العداوةُ بيننا كما تبَدّل الغيمُ أمام الرياحِ. ازدادَ وقعُ أقدام الحرس والتجار الذاهبين والقادمين. أستعيدُ آخر لقاءٍ لي بالمراسل العسكريّي. (اجمع الأخبار عن الرئيس حميده، والقاضي الحنفي محمد بن عبد الرحمن والقاضي المالكي محمد بن مالك ورئيس طائفة التجار).

أرسلتُ العيون والعسس في المدينة، في المساء وصلت بعض الأخبار، خرج الرئيس حميده والرئيس محمد وعلى والرئيس شلبي مع سبع سفن. علت أصوات عابرة: «لقد طرد الباشا القنصل الإنجليزي!»، «ستُعلن الحرب!»

ضحكَتُ، رفض الإنجليز تغيير القنصل القديم فأمر البasha بتحضير سفن اللنجور والتأهب. عمّروا الأبراج بآلات الحرب، فصارت السفن تخرج كل ليلة للحراسة؛ وقيل إنّه أمر بإعطاء المحاربين الأرز واللحم كل ليلة.

في الحامية انتشرت شائعات وأخبار سرية عن مخططات جديدة للغزو، قدم السيد جون بون سانت أندرئيه إحداها. بلغتني أخبارُ أخرى عن مخططٍ تيدينا، هولان، والقططان بيرج؛ لا أحد يدرى ما الذي ينتظره نابليون!

نظرت ملياً، بدت المباني التي تركناها كالخرائب، فارغة مُداعبة
مُظلمة مهجورة منذ زمن بعيد، تعبث بها ريح الشمال. نبت العشب
الكثيف في ممراتها وجدرانها، اختفت الأشجار المُشدّبة بعناء،
ويبيست أخرى بعدها رمت أوراقها الميّة أرضاً. طوقها اللبلاب
ممتدّا نحو نوافذها المكسورة وأبوابها الحديدية المخلوعة وشقوقها
المُتصدّعة وحجاراتها المتباude. أتلف العليق والعوسج حدائقها
القديمة. طيور كثيرة حملت القش أعشاشا على سطوحها. لم أحسن
إخفاء احتفائي بعودتنا رغم هول ما آلت إليه منجز أتنا القديمة. أرسلتُ
هتافاً لدى رُسُوْلُ سُفنتنا العائدة، أغدقُت على عُمال الشحن ثم تمالكتُ
نفسِي ولجمت عاطفي.

مررت الأيام، حذراً لم يخرج الفرنسيون من الحامية. ليلاً اقتحم
رجل منزلِي، بدا فارساً رافضاً للصلح. قتله بعد مبارزة. غمرتُ
جثته بالملح السحري، ففصلت يديه عن قدميه، ووضعت كل جزءٍ
من جسده في حقيبة، وأحكمتُ غلقها بحبيل غليظ. أدخلتُ حقائبي
إلى الميناء وطلبت من المراسل العسكري رميها في البحر على بُعد
خمسين فرسخاً من الساحل، حتى لا يكتشف موته فنطالب بالقديمة.
باكراً استيقظتُ لتنفيذ مهمتي الجديدة. أفرغتُ ما كان في
حقيبتي الجلدية في كيس من الخيش وخرجت. مررت بفلاح يقتل
بغله المريض وبخطايبين يكذبون بفؤوسهم، تهتز حولهم الأغصان
ثم تقع الشجرة على الأرض حطاماً. الجميع يراقبني هنا، يراقبون
النصارى لأنهم غرباء، وقد يكونون أعداء، فلا أحد ينسى الحروب
الصلبية، بينما لا يتوجّسون من اليهود.

حتى أنجو من قطاع الطرق والمُتمرّدين المطالبين بإصلاحات اجتماعية مع عربة جيّدة قطعت أميالاً نحو مدينة الجزائر رفقة رجلين من أعيان القالة، إكراماً لباش المكافحة صديقي القديم.

- هل أجدُ الأمان في مراقتكم نحو دار السلطان؟ لي تجارة هناك أتابع شؤونها.

- عثمانى؟

- بل فرنسيّ صديق لباش المكافحة.

- لا خوف عليك في عربتي، عهدٌ وشرفٌ.

طيلة الرحلة ظلّا صامتين بينما سألني خادمهما عن تجاري وأمورها وقد بدا لي واشياً. انفتحَ أنفهُ غبطةً واسعًّا وهو يتفحصني من عالياته ساخراً: «كيف تلبسون في أوروبا هذا البنطلون وتشدّون شعركم إلى الوراء بشكل ذيل الحصان؟ هل يشدُّ نابليون شعره إلى الوراء ويلبس مثلك بنطلونا ضيقاً كهذا؟»

- بل يلبس الإمبراطور بذلة عسكرية خاصة به وحده.

- لماذا يبدو عليك الكِبْرُ أيها الفرنسيّ؟ عُدْتُم إلى تجارتكم! وبدلأتم تماطلون مجددًا في تسديد الديون كعادتكم!

حاولتُ إظهار التقدير له، رغم مكره وفظاظته:

- سنسدّد ديوننا قريباً.

- هذا ما تُرددُونه دائمًا أنتم الفرنسيّون!

امتع لوني خشية أن أكون قد وقعتُ في كمين. قلتُ بفخر:

- لم تشهدُ فرنسا قائداً أعظم من نابليون. يروج الإنجليز عنهُ تلك الإشاعات المقيمة. إنه لرجلٌ شجاعٌ يلتزم بالعهود وسيسدّد ديوننا.

تظاهرتُ بعدم فهم ما يُريده إثارةً من خصومات قديمة. نهره سيده:
- دع اللّغو أيها الخادم الثرثار وإنما قطعتُ لسانك. الجيادُ متعبة
ولا قدرة لها على بلوغ الجزائر الليلة. ستنزلُ بعد ساعة من الزمن في
ذلك الفندق هناك، ستجدُ ما يروي جوعك وعطشك.

توقفنا بمحاذة نهرٍ صغيرٍ يمرُ بين أعشابٍ عالية. قفزت الطيور
عالياً فرعاً، وارتفعَ صوتُ نفقة الصفادي. استمررتَ بينما معركةٌ
صادمةً، بعدما استطاعتُ خفايا نفسه. فقد كان لهُ إربٌ آخر يستهويه
بجدال تاجرٍ فرنسيٍ أعزل. كررَ الالتفات نحو يديه تحت جلدي وفروة رأسِي؟
- هل تحمل دواءً لدیدانٍ تُثيرُ الهرش تحت جلدي وفروة رأسِي؟
- أملكُ زجاجةً فيها دهانٌ من زيت الصبار وزيت اللبلاب.

أخذها ثم رافق سيده بعيداً. انشغل الرجل الثالث بالنظر إلى
نسوة في النهر يُقرفصن ويعسلن الثياب، ينظفن أطفالهن العراة على
الضفة. بينهن صبياً بفساتين معقوفة، تكشف عن سيقان ناعمة بضبة.
ارتفاعَ فحيح الأفاعي بينما يرسل صاحبُ سفري لسانه كثعبان آخر لا
فحيق في صوته. صادفتُ حامل خطاباتٍ، تذكريتُ رجُلَ البريد الذي
هاجمته قبل سنواتٍ واستوليتُ على كل المراسلات. لا شيءٌ تغيير،
ما زالت البغال من يحمل البريد. يومها غرسْتُ خنجرٍ في محجر
عينه اليمنى، أدرتهُ ثم أقتلعتها، غرسته مجدداً في محجر عينه اليسرى.
ألقيتُ بعْلَتَهُ في الوادي وعدتُ بكيسِ الخيش.

عاد الرجل وخادمه ثم انطلقنا قبل دُجنة الليل. بعد ساعة بلغنا
النزل حيث أرحنَا الدواب وقضينا الليلة. باكرًا استأنفنا الطريق.

في دار السلطان

دخلتُ دار السلطان دون أن أدرى ما قد تُخفيه لي هذه المرة. لم تسقط بيد شرلكان فهل ستسقط بيد نابليون؟ تُرى خلف آية بوابة سيف؟ بقيتُ على حذر دائم وأنا أجتازُ بوابتها التي تُفتح نهاراً وتُغلق ليلاً. دارت عجلات العربات، حملتني خطواتي مع الدّاخلين، انحشرتُ بينهم، أبرزتُ أوراق تجاري للجنود وولحتُ المدينة. حمل الهواء إلى رئتي رائحة الصباح مختلطًا برائحة البحر وبارود آخر معركة. كُنست الشوارع باكراً. ما زالت الأزمة غامضة شهية شاهقة شاسعة مُتأتقة. سرتُ على الشوارع المبلطة بأحجار صغيرة مثل فسيفساء. لم يتغير شيء. على الأرصفة يasmine وزهور ونباتات متسلقة ترمي بأوراقها خارج أسوار الديار والشرفات. في طريق قليل من العثمانيين، كثيرٌ من الحضر والبدو. دكاينها الممتلئة بسلع تبدو سيئة الصنع مقارنة بما تصنعه آلاتنا. على يميني قصور مرتفعة، وكالات مكتظة، فنادق ودور وجوامع. في الأرقبة باعة، شياتلون، مومسات، شرطة، حناجر أطفال تكرر الآيات ترفعها عاليًا، شيوخ، يهود ونصارى وأعلام من الأوروبيين المرتددين.

لا شيء تغيير. ما زالت أغلب المناصب تورثُ من الآباء إلى الأبناء. هنا مُفتياً، مالكيًّا وآخر حنفيًّا. أئمَّةٌ من الأسر ذاتها يشتغلُ رجالها في الخطابة والإمامنة والتّدريس بالجوامع وإمارة ركب الحجّ إلى أرض الحجاز. للأغنياء شوارعهم وحوماتهم وللفقراء زنقاتهم وأحواشهم. كما لليهود حارتهم وللنصارى وكالاتهم وفنادقهم. لا شيء يفصلُ بين أرجاء المدينة هذه، لا أسوار ولا بوابات ولا حرّاس.

قابلتني فرقه من اليولداش هناك على مقربة تصطف لإعدام أحدهم. اعتبرته طالع شؤم واخترت طريقا آخر. ككل الرياس لا ينظر البحارة والأهالي إلى الموت على أنه شر. الحياة هبة سريعا ما تزول، القدر يسيّر كل شيء حولنا. رغم كل شيء لن أرجع عن احتقاري لهم، فهم ليسوا مثلنا نحن أصحاب الحضارة الجديدة. أتقدّم حذرا، الوشاة في كل مكان. بلغت ما تهدّم من المدينة بعد آخر هجوم بحري عليها، ثم عدتُ أدراجي. بلغتني أحاديث العابرين: «غنم فرقاطة الرئيس حميدو أول أمس قارباً نابوليما»، «وجد على متنه ألفاً من الأوقية الذهبية للبنادق. وأسر واحداً وعشرين رجالاً».

انصرفت إلى حال سبلي، انحنيت فوق النبع، رفعت يدي المضمومتين وشربت. قصدت دار السفن لجمع الأخبار عن فرقاطة الرئيس وصانعها النجار الإسباني المايسترو أنطونيو. جلت في أرجاء الميناء وقد أنزل منها أربعة وأربعين مدفعاً. دخلت سفينة علي طاطار المرسى بعدها، يقال أنها أقل سرعة لذا لا تجلب الكثير من الغنائم. أسرعت الخطى وانسحبت.

بعدها استأنفت جولتي. اتجهت يساراً عندما عبرت شارع النحاسين، وجعلت الجامع الكبير ورائي. هنا أقام السيد بلانشار أيضا الصلاة مرات. واصلت السير، في طريقي امرأة تضم إلى خصرها ابنها، حلاق يلفُ الحمامات والبيوت مع دلو مليء بددود العلق، يداوي به المرضى، تمُصّ دماءهم الفاسدة فيشفون. خلفه صبي يعلق حول عنقه إكليلًا من الأعشاب، أغلهها كريه الرائحة، سبيع المذاق. عبر رجلان وصلني شيء من حديثهما:

- تضاعف ثمنُ رطل الزبدة وتخطّى ثمنُ اللحم ...

غاب الصوت وارتفع آخر :

- استمرَ جلدُ الآغا في التساقط يومين ثم مات في يومه الثالث.

- أرسلوا إلى الطبيب وقد كان في قسنطينة !

صوت : «أنتَ؟ فيم وقوفك هكذا ترمقُ الساحة؟»

لم أنبس بكلمة، انسحبت بين الجموع بخفة. في الغد حاولت العثور في أسواق المدينة على حذاء مطاطي طويل العنق دون جدو. بعدما أرخي الليل سدوله تسللت رائحة البخور نحو الشوارع. استسلمت الحومات والأحواش إلى النوم. حاولت الوصول إلى بيت صديق قديم حين ظهر فجأة في الرّدهة سبعة رجال كالذئاب، انتظموا في صفين متاليين وأغلقوا على الطريق.

- أنتَ؟ فيم وقوفك هكذا ترمقُ الساحة؟

تقذّدت سلاحي بعدما أدركت أنني الصيدُ الذي يطلبونه. حاولوا معرفة ما أحمله. دفعوني نحو زقاق غربي يتّخذُ البرانية سوقاً للبيع والشراء. جرّدوني من مسدسي وسكنّين صيد، فشقّ الهلع قلبي.

- ما اسمك؟ من أين جئت؟

فكّرت بالعذاب الذي سيحّيقُ بي إن فشلت في إيجاد خديعة.

وهو يرفع القنديل الهزيل إلى وجهي أدركت أنني واقعٌ بين أعداء لا لصوص.

- تا.. تا.. تاجر مرجان. أدعى فيكتور دي أوغو، لا أنكر أنني فرنسي، ولعلّه قد بلغكم خبرُ تعرُض السفيتتينِ الجزائريتين للهجوم في ميناء مارسيليا قبل أيام. ولعلَ العقاب الآن قد وقع بالذين افترفوا

ذلك أيضًا. نالني من ذلك أسى وغمّ عظيمين. فلا تتهماوا الأبراء
بعد اوتكم باطلًا. أطلب الأمان.. الأمان يا سيدى عبد الرحمن، ولكن
ما قد تنفعني الأقوال التي أدلى بها لكم. تريدون الانتقام، ولن تأخذكم
في ذلك هوادة. أقتلوني إذن!

- يبدو ذا شأن، علينا تسليمه لقائد الجند.

- أسرعوا وعلام إبطاؤنا؟

- لا ريب في أنه عينٌ من العيون!

- ما احترموا يوماً صلحاً ولا معاهدة.

قام أصغرهم بطيء مرافقي وأوقعني أرضاً. نالني ضرب بالنعال
ثم رشقوني بالحجارة والعصي وعظام البقر. سحقوا عدستي المكبّرة
مع أصلعى، نتفوا شعري وكادوا يسلخون جلدي. الأمان، الأمان،
صرخت. حين اشتدّ الضربُ أخذت أنادي باسم الباشا، أطلب ملذاً.
كادت تنشق حنجرتي ثم جاءت مشيئة الرب وقضت بنجاتي لحظة
صاح بهم أحد العابرين. مرّ بينهم وهو يشقّ صفوفهم بعصاً، وقد
ثارت ثائرته.

- هو في عهدي، إليكم عنه!

أعطاني شربة ماء. استشاط الرجال غضباً. انسحبت خطوات نحو
الوراء، وقعت على وجهي، حبوت على الأرض ونفذت بجلدي.
كدت أضيع في الممرات المتقطعة. اختبأت في خمّارة الإيطالي،
اكتشفت لاحقاً أن صاحبها عثمانى يحاول جذب الزبائن. أدار الشيخُ
وجههُ ومضى مُختفياً في طريق الحوش. في قراره نفسي، كنتُ أؤمنُ
بأنَّ الرب العظيم يخصّني بالعناية. حاولتُ بعد أيامٍ تبيّن هوية هذا

الراهب المجهول. سأله عنده فقالوا إنه شيخٌ تقى لا ينكثُ عهداً. ما إن شبَّ حتى غادر المدينة نحو الصحراء. هجر المُتع والنساء ليتأمل ويقهر ملذات الجسد. ولا يعود إلى المدينة إلا مرة كلّ سبعة سنوات، يتزورُ منها بعض الطعام والأدوية والجلود. ثم يعود إلى عزلته. ظهرتُ بالاستعداد للإبحار ثم عدتُ خفية. مكثتُ في الرّحبة المعدّة لبيع الهوير من الحمير ونحوها ساعة، اهتديتُ بعدها إلى وجهتي بنور القمر. توَرَّمتْ رجلاً، وترك العناة آثاره على وجهي. كدتُ أتهالك على الأرض، ثم بلغتْ دار القنصل.

في ضيافة القنصل

بعدما فرغ الجندي من مراجعة أوراقي الخاصة، وضعني الخدم أمام مائدة شديدة الترتيب، كثيرة الطعام. في جناح الضيوف أقمتُ ليلتين لأريح قدمي ويفحصني الطبيب.

- لا تُحجم هكذا يا سيد فيكتور. من له شبابك وعنفوانك لا يمكن أن يجعلوا قلبه الفرنسي يرتعد.

حين تعافيتُ، جلست رفقة عدد من الضيوف، معظمهم نالوا ثقة نابليون. فُحول وأبطال ستعرف الأمة أسماءهم لاحقاً. أرحتُ ظهري على كرسي خشبي. كنّا سبعة عشر مدعواً، وست سيدات، بانتظار القنصل الذي أثار تأثيره الفضول بيننا.

مع الأحاديث الخافتة تناولنا العشاء. أقبل صهر القنصل، وراح يتنقل بيننا كرجل حاذق، يُلقي التّحية، يتبادل أحاديث قصيرة دون أن يجلس، ثم يواصل تقدمه وترحبيه بآخرين. سرعان ما وصل أمامي،

رفع الُّكْلَفَة بِيَنَنَا، وَأُرْسَلَ فِي الْحَدِيثِ. وَقَدْ مَضَنِّي جَرْحٌ يَدِي. بِعُنْتِي
مَمْدُودٌ سَأْلَ:

- كَيْفَ أَصْبَتْ سِيدَ فِيكْتُورَ!

- قَبْلَ أَيَّامٍ طَوْقَنِي رَجَالٌ فِي الْمَدِينَةِ، انْهَالُوا عَلَيَّ ضَرِبًا وَيَدَايِ
مَغْلُولَتَانِ.

وَهُوَ يَضْغَطُ عَلَى غَلِيونَهُ، حَاوَلَ شَحْذَهُ هَمْتِي الْخَابِيَّةَ:
- وَ... هَرِبَتْ؟

- بَلْ هَلَكْتُ ثُمَّ نَجَوْتُ بِأَعْجُوبَيْهِ، عَلَى يَدِ شَيْخٍ هَرِمَ مَنْحَنِي
الْأَمَانِ.

- وَكَيْفَ تَهَلَّكُ وَأَنْتَ مِنْ مَغَاوِيرِ وَأَبْطَالِ جَمْهُورِيَّتَنَا الْعَظِيمَةِ
وَوَاحِدٌ مِنْ أَبْرَأِ أَبْنَائِنَا؟

اسْتَدْعَى الْحَارِسُ صَهْرُ الْقُنْصُلِ الَّذِي غَادَرَ وَسْطَ حَرَاسِهِ كَسْرَبِ
حَمَامِ يَنْسَحِبِ. أَقْبَلَ رَجُلٌ فَارِعُ الْقَدِّ، جَمِيلُ الْطَّلْعَةِ، أَخْضَرُ الْعُودِ،
يُدْعَى جَانُ، مَهْنَدِسٌ يَمْلِكُ صَالُونَا ثَقَافِيًّا، مَقْرُؤُ شَقَّةِ الْبَارِيْسِيَّةِ. فَتَحَاهَا
فِي الْبَدْءِ لِأَصْدِقَائِهِ مِنَ الْكُتَّابِ وَالْمُؤْلِفِينَ وَالْفَلَكِيِّينَ، ثُمَّ ارْتَادَهَا
مُتَقْفِقُونَ وَعَسْكَرِيُّونَ. يُشَاعُ أَنَّ وَالَّدَهُ هُوَ حَامِلُ أَسْلَحَةِ نَابِلِيُّونَ. بَيْنَمَا
كَانَ جَدُّهُ مِنَ الْمُشَارِكِينَ فِي وَضِيعِ حَجَرِ أَسَاسٍ أَكْثَرَ مِنْ جَامِعَةِ
بَارِيْسِيَّةِ. عَلَى مَقْرُبِيَّهِ امْتَدَّ إِلَيَّ حَدِيثِهِ:

- بَعْدَ حَادِثَةِ السَّفِيَّيْتَيْنِ فِي مَارِسِيلِيَا، سَطَعَتْ شُعلَةُ فِي الْبَحْرِ
أَوْلَ أَمْسِ، قِيلَ آتَهَا إِشَارَةً لِلْقُنْصُلِ. نَالَنِي جَزْعٌ عَظِيمٌ ظَنَّنَا بِأَنَّ نَابِلِيُّونَ
سَيْحَاصِرُ الْمَدِينَةِ وَنَحْنُ عَلَى أَرْضِهَا.

- شَاهَدْنَا إِلِّيْشَارَةَ مَثْلَكَ، وَنَالَنَا مِنَ الْهَلْعِ مَا نَالَنَا.

- بعد ليلة واحدة احتدمت معركة حامية. هرع القنصل لقصر الجنينية بعد سماعه صرخات عظيمًا، عاد الإسبان، عاد الإسبان!
- أكان هجومًا إسبانيًا؟
- أجل وفشل، شكرتُ الرب طويلاً، إنهم لا يشبهوننا، نحنُ الفرنسيون نتبرّع عن قتل الولد أمام أبيه. نُعاملُ الخصوم بما يليق بهم. حتى آتنا نسلم جُثث الأسرى للدفن لكنّهم لا يفعلون ذلك!
- التفتُ عندما أقبل مُوثق العقود.
- ما أصابك يا صديقي؟
- لا تهتم، نجوت من محاولة سطوة. هل من أنباء جديدة؟
- جاء السيد هولان منذ أسبوعين من أجل التفاوض بعد حادثة السفيتين.

بصوت منخفض:

- ويقال إنه فتح باباً سريّاً وخرج إلى المدينة!
- وكيف يُرسلُ رجلٌ لم يكن يُصيّبُ من الترس ولا حدبه؟ سيطر حون رُمتهُ إلى الثرى بلا رأسٍ.
- أصمتُ، قد يسمعك نابليون. لديه عيونٌ في كل مكان حتى على موظفيه هنا!
- كانوا يفعلون ذلك بي، رغم أنني مجرد تاجر!
- لا أدرى ما الذي يقوم به وزير البحريّة والمستعمرات، ديكري الفاشل. بلغني أن القنصل جون بون سانت أندرى أرسل تقريراً. لا تبتهش، قد تسقط الجزائر فجأةً مثلما سقطتْ جنوة، حتى قبل أن يصلها بونبارت.

- لكن الأخبار تقول أنه يسعى لتوقيع اتفاق آخر.
- بونابرت داهية، يُبرم المعاهدات حتى مع الشيطان.

في تلك الأيام ظلت تجارتنا في فوضى عارمة، أمّا تجارة البنادق فمزدهرة. تُشحن القديمة، تلك المنتشرة أيام لويس الرابع عشر، وتُتابع للمنتحرين هنا بدل إتلافها، بعدما استعيض عنها ببنادق الكبسولة. أما في القنصلية فتغيرت بنادق الطعن ببنادق جديدة ذات سبطانة مُجوفة، وحلّت الرصاصات الطويلة محل الرصاصات الكروية. وقد تم إدخال مغلّف إلى البنادق الجديدة تماماً مثل البنادق الروسية. يُحاول الجيش اختراع بنادق أسرع تطلق أكثر من ثلاثة طلقة في الدقيقة. وممّا بلغني ليتها، أن القنصل يخطط لبناء مصطبة لمنظار في القالة، لذلك يرفض ازدياد عدد الصيادين، يريد مكاناً خالياً.

تسلّل إلى حدثنا صانع أقالٍ محترف. ألقى ابتسامةً وجلةً، يُقال أنه أصلح ساعات القنصل، وأضاف لها عقارب للدقائق فصارت أكثر دقة. غير نابضها القديم بأخر وأضاف النّوابض الجديدة. كما صنع له أخرى صغيرة يضعها داخل صدريته أو جيشه. تبادلنا الغمزات وغيرنا الحديث. ضيوف كثُر يتداولون الكلمات من أذن لأذن بينما غادر الكونت دو فونتيير مكتب القنصل. ليلاً، استدعاني أحد رجاله سراً. تجاوزت الممرّات وانتظرت القنصل مُنفرداً، صرف الرجال، بعد نصف ساعة انتهى اللقاء، وغادرت رفقة المراسل العسكري وثلاثة من المرافقين. توَّزَّعنا بين الممرّات، على أطراف أقدامنا سرنا مُتَكّرين الواحد وراء الآخر.

إيزابيل والرّئيس حسين

مرّت أيامٌ قليلةٌ على عودتي إلى القالة، حين أرسلت إيزابيل رسالةً سرية في قرن ثورٍ تُخبرني أنَّ الرجل الذي ظلت تقلّب تاعسَة بين ذراعيه، قد غادر نحو قسنطينة، وأنَّها ستزور الميناء. ركبت عربتها مرتديةً ملابس الخادمة. شغلَ الحوذى الجنود بالأسئلة. اختلسنا الوقت للاختلاء. رفعت العجار الذي يُعطي وجهها، بدْتَ بَضَّةً، امتلأ بدنُها مررتين ونضر. حدثتني عن الأخبار الجديدة التي حملتها النسوة. منحتني كتاباً عنوانه (الحُلُول السنديسيَّة في شأن وهران والجزيرة الأندلسيَّة) قائلةً:

- هذا نصٌّ عن فتح وهران قبل قدومي بثمانِي سنواتٍ كاملةٍ، نقلته إلى الفرنسيَّة. وهذا كتابٌ آخر «التحفة المرضيَّة في الدولة البكداشية». عساهما يحملان من الأخبار ما ينفعان أيام الحرب.
- وأنت تنقلينها أما فكرت في الهرب مرة كل تلك السنوات؟
- يملك باش المكافحة الكثير من الرّؤساء الأصدقاء. قد يلحقون بأيّ مركب ويعودون به.

مرت الأيام. اجتمع باش المكافحة مع ثلَّةٍ من الرجال. راحوا يسحقون شيئاً من التّبغ لأنفسهم. تحجَّجْتُ إيزابيل بالإشراف على دخول الضيافة، ووقفت خارجاً بينما افتتحت أبواب المجلس. دخل الخدم حاملين الأطباق والصوانِي. تقاطعت نظراتُها بنظراتِ الرئيس حسين الذي امتنع عن الخمر كما يمتنع عن كل شيءٍ يُغيِّب عقله. اشتهر عنه أنه رجلٌ يمُقتُ السُّكر لأنَّه خبيثٌ، يجلب بلادة الذهن والخدر والضعف كما يسبِّبُ تملُّماً في المشي. مرر يده على لحية

سوداء مُهذبة. حين رُفعت الموائد وأقبلت الكؤوس شدّ صدرٍ
البيضاء المُطّرزة، وضع عمامته الحريرية، فبدت جبهة الواسعة أقل
اتساعاً. تقدّل سيفه المرصع وهو واقفاً، بعدما انتعل حذاء من الجلد
الفاخر. مكثت إيزابيل خارج المجلس بمحاذة السالم، استرقّت
السمع مُنتظرة خروجه. وبينما كان يجتاز الباحة أخذت بيده وتوازيها
من باب يؤدي إلى البساتين.

كانت تلك المرة الأولى التي تراه فيها عن كثب، فبدت الزرقة
الخفيفة في عينيه وكأنها بحرٌ يموج. تأمّلته، شعرُ أسود مسترسل. قامة
قائد ونظرة صقرٍ جارح. فاحتب كالحيّة بصوٍت مُنخفضٍ ترجُوه:
- ساعدني أيها الرئيس، أتوسل إليك أن تمنعني عهداً بالأمان..
الأمان.. أتوسل إليك..

- منحتك عهداً فما وراءك؟

راح١ تشکو له ما ألحقه بها باش المكافحة، من أذى بعدما
غادرها إلى امرأة أصغر. أتى الوباء على أرضه وزرعه وبات محصوله
في خسران، فصار يعاملها كفتيات الهوى مُتجاهلاً نبل دمها وعائلتها
المرموقة. فما عاد لها من أمل في الكرامة أو الحياة وهي الممنوعة من
مغادرة القالة أو مراسلة أحد.

عهدٌ من الرئيس حسين

كان الرئيس أميراً للبحر، واحد من حاملي أسرار الرئيس.
رجلٌ غني ذو سطوة ومهابة ووقار. يملك منازلاً في القالة، قسنطينة
والجزائر. كما يملك أراضٍ شاسعة ومزرعة خيل وعددًا من القطعان

والماشية ووكالة تجارية، سفيترين وورشة لصيانة المراكب. اشتهر بفروسيته وشهامته وكياسته كما اشتهر بصداقه قوية تربطه بالبيات والباشا. كان القنصل الفرنسي نفسه يُكنّ له الود والاحترام.

كان له زوجتان لالة مرجة ولالة فاطمة. أنجب أربع بناتٍ لا يعلم أحدُ عنهنَّ شيئاً وخمسة أولاد، محمود وعمر وحسن، علي وعثمان. اثنان تاجران وثلاثة بحارة أشداء. أكبرُهم محمود حامل أسراره. يجوبون معه البحر جيئةً وذهاباً.

حين كان رضيعاً، قضى والداه بينما نجا من يومية إسبانية شقت جدران المسجد الكبير. بعدهما شبّ واشتدّ عوده لم يُشف من لظىاليُّس الذي يتأجّج بين جوانحه. يلتجم مع المحاربين الأشداء يُنازلهم حين يثور النّقْع، ثم يأسى كلّما وقعت يومية على المدينة فيغادر النساء والكلام أياماً. وما كان يخشى انتقاد السلطان أو الداي إن أساء، بينما يُثني على بعضهم كثنائه على محمد بن عثمان الكبير.

يومها أخذه العجب منها كلّ مأخذ، بينما صدرُها يموج خوفاً، يعلو ويهدّط. وقع الشّال من رأسها لتنساب خصلاتها الذهبية على وجهها. اتسعت عيناه. خفض صوته درجةً بينما غشيَّت وجهها حمرةً خفيفة. نظر إلى خاتِم ذهبيٍ ذو فصٍّ من العقيق الأحمر.

واصل:

- تركين خلفك كل ما له، من حلّي وكساء، ثم ثرافقين رحلتي حتى نأتي ميناء مارسيليا.
- ولكن... قد يقتلك.
- لا أحد يملك شجاعة قتل الرئيس حسين مهما قبض.

ظلّت صامتة، خائفة من أن يكون الرئيس مُطابقاً لبلاش المكافحة في طباعه الغليظة. فتحت فمها الوردي، فظهرت أسنانٌ حسنة التّنضيد، قاطعها:

- انتظري رسولاً مني.

ثم اختفى عن ناظرها. أشتدّ بها السرور والعجبُ بعدما حصلت على عهد منه. كان من الصعب أن تُثِيرَ فيه الرّغائب وهي امرأةٌ لرجل آخر هكذا فكرتْ. وما حسمت اختيارها له إلّا لأنّه ما منع الأمان لأحدٍ إلّا وصان عهده.

مقتل باش المكافحة

بعد أيام خرج باش المكافحة إلى قسنطينة رفقة الرئيس حسين وثلة من رجال الباي. أقلعت بهم العربية، نصح الرئيس الحودي بتغيير الطريق، وبدل السير بمحاذة الحقول شقّها. اعترض باش المكافحة خشية قطاع الطريق والمُتمرّدين ثم رضخ. بعد ساعتين من المسير، أخرج قرآن ثور صغير وهزة مرّتين، ليتساقط منه مسحوق التبغ. توقف على جانب الطريق لإضرام النار وارتشاف كأس من القهوة. أنسد ظهره لجذع السرو، ثم أمر الحودي بملء جرة الماء. أحدهم لحق به، لوى رأسه فأرداه قتيلاً. رفع السوط عالياً ودفع بالحصان نحو طريق منحدرة بسرعة فسقطت العربية محمّلةً بثلاثة رجال نحو أسفل الوادي. انقضّ أربعة مُلثمين على الرئيس، صارعهم وقتل اثنين فهرب البقية. التفت ليجد باش المكافحة مقتولاً. تدرج كما تدرج الحجارة في الهواء ووقع أسفل الوادي، مُضرجاً بدمائه، فارجاً ذراعيه

وقدميه للحجارة المتساقطة فوقه. إلى جانبه عظام كثيرة لدواب ألقى بها الفلاحون بعدما نال منها الطاعون البقرى. استجمعت قوته. ضمداً يده بخرقة وهم عائداً.

حين وصل، شاع في القالة أن متمردين قطعوا الطريق وقتلوا باش المكافحة وثلاثة من رجال الباي. بينما نفذ الرئيس بأعجوبة. في الغد جلبوا جثته. وضعوها في قماشٍ أبيض من سبع طبقات، يدعونه الكفن، رشوا رائحته التتنة بالمسك والعنبر ثم دفونه. ليلاً بدأت الإشاعات عن أفاعي سوداء رآها العامة تخرج من قبره.

بعد أربعة أشهر وعشرة أيام انتهت عدة إيزابيل. يمنع المسلمين المرأة التي توفي زوجها من الخروج أو الارتباط مجدداً قبل هذه المدة. تركت زوجته العربية الزينة والطيب ولبس الثوب المصبوغ والاكتحال والمشط ولبس الحليّ ووضع الحناء. أعللت وطفقت تضرب صدرها بيديها، بينما ابتهجت إيزابيل وأخذت تجمع كل ما وصلت إليه يدها من خزانة العamerة. هجم أبناؤه على دارها وأخذوا منها عنوة الخزائن الخشبية الفاخرة، كل ما نسج، الوسائل والطنافس، والصناديق والقدور الثمينة، أخذوا مفتاح ورشة الخياطة وأمهلوها أيامًا قبل أن يستعيدوا الدار. بقيت إيزابيل في مدد وجزر، تعبس لوجهها القمر وغرب. كَرَّت الأيام فأرسلت إلى الرئيس تطلب تأجيل رحلتها فقد يلفت إليها الانتباه. ويُشير الشكوك، وحتى لا يتهمه أحد بأن له يداً في تلك الرحلة المُهلكة التي انتهت بما لم يدر في خلد أحد.

إيزابيل والرّايس

في إحدى الليالي سمع الرّايس طرقات على الباب قطعت حديثة مع خادمه وإذ بها إيزابيل. بعدها نفذ صَبُرُها قصداً خفيةً خشيةً أن يقع بها سوءٌ وعدها بلقاء في البساتين بعيداً عن عُيُون المدينة. في الغد، باكراً أصلحت زيتها وارتدى الحايك وكان قطعتين، وأسدلت على وجهها العجار.

في طريق البساتين تقدّمه فلحق بها. تحت الشمس القائمة اندفعت، وصلت سفح الجبل الغربيّ، على أطراف قدميها مشت، اشتدّ بها الخوف، وأخذتها الرّعدة، وقعت أرضاً على حشائش القرّاص.

طوق الرّايس جسدها بذراع واحدةٍ يساعدها على النهوض. كادت تصرخ حين قال:

- لستُ عنك بغريرٍ.

- أتذكر عهديك أيها الرّايس!

- أصغي إلى أيّتها الفرنساوية، عادةً ما أحذر كل امرأة تضعُها الأقدار أو المؤامرات في طريقي. باش المكافحة رجل وضيع، لم يربح يرسل سهامه نحوّي. بدا له أن يصطعن الخديعة للإيقاع برجالي وتجارتي رغم ذلك لم أغدر به يوماً.

- لقد ذهب بالزهرة اليانعة من شبابي، لا أكتثرُ لقاتلته.

- لم أفكّر في عداوتنا القديمة قطّ، أشفقتُ على حالك، لقد قطعتُ عهداً في البحر بحماية كلّ لاجئ إلىّ، لكن لا أخفى أنّي لا أجزم إن كنتُ بريئةً من مقتله أم... شريكه؟

كان وقعُ كلامه كضربة سوطٍ على جسدها، خلعت العjar.

- يا لنفسِي البائسة التي ابتهجت بعهدك ثم طعنتها وأنت تقذفها
بِتْهَمَكَ الْمُبَطَّنَةِ.

ثم صمتت وكأنَّ على رأسها الطير.

- تحدّثني ...

- أَوْ تُصَدِّقُنِي؟

- أصدق قبل أن أسمع!

- إنْ كُنْتَ تنوِي أَنْ تخلُفْ بعهِدِ قطعِهِ، فلتَفْعِلْ دُونَ أَنْ أَقُولَ شَيْئًا
ولكن فلتَعْلَمْ أَنِّي بِرِيَّةَ.

أخذت فوهَةَ بندقيَّتهِ ووضعتها على جبينها بكلتا يديها، سقطت
الحاياكَ، تطلَّعتَ إِلَيْهِ، انحلَّ رباط شعرها فتبَعَشَرَ حُصَّلَا حُصَّلَا ذَهَبَيَّةَ
وسقطَ على وجهها وكتفيها. لم يحرِّكْ ساكناً، تفحَّصَ شجاعتها،
انسُكَبَتِ الدَّمْوَحَ حارَةَ عَلَى وجنتيها ووَقَعَتْ أَرْضَا.

- ترى ماذا عساي أقولُ أَيْهَا الرَّايِسِ؟ لكنْ ... سأروي لكَ قصتي
ثم لكَ أَنْ تصنِعَ بي ما تشاء.

استرسلت في السُّرْدِ كَانَهَا بِكَثْرَةِ الْحَكَائِيَّاتِ لَمْ تَكُنْ تَوْدُ سُوِيِّ
إِخْفَاءِ حِكَائِيَّاتِهَا مِنْذِ الْبَدْءِ:

- في حِكَائِيَّتي أَوْجَاعٌ وَهُوَانٌ لَوْ أَدْرَكَتُهُ مَا اتَّهَمْتَنِي قَطُّ. ولدت في
دوَقَّيَّةِ مُونْبَلِيَّه. تركَ والدي أوغُست دِيتَريش تجارةَ الْخَيُولِ واشتَرَى
مَعْمَلاً لِلنسِيجِ. ثُوفِيَ لِي ثَلَاثَةٌ إِخْوَةٌ بِالْمَوْتِ الأَسْوَدِ بِينَمَا نجَوْتُ. كانَ
جَدِّي يَسْخُرُ مِنْ مَلَابِسِ أَبِيهِ وَمِنْ حَشْوَةِ الْكَتَفَيْنِ التَّيْ دَائِمًا مَا يَرَاهَا
مُتَفَخَّهَةً بِدَرْجَةٍ وَاحِدَةٍ، نَضَحَّكَ ثُمَّ يَبْدأُ الْعَمَلَ بِنُولِهِ الْيَدُوِيِّ. زَحْفَ

الاصفارُ على وجهه ثم مات. اشتري أبي مندفةً لنفف ألياف القطن وتهيئتها للغزل، وماكينة الحلْج لفصل البُذور. كنت أساعدُه في خلطه بالكتان وغمسه في اللَّبن وتعريفه للهواء لعدة أشهر. أرافقه ليتسع زيت الزَّاج، غاز الكلور والأصباغ. نعود فأشاركه في تلوينه بالأحمر والقرمزي والأخضر والأصفر. بعدما ذهبت إلى المدرسة، صار أبي مولعاً بمدام دُو ستايل ونصالها ضد نابليون، والرسامة أنجيليكا كوفمان، وأراد مني أن أكون مثلهما. أنهيتُ في الخامسة عشرة قراءة عشرين موسوعة، تعلَّمتُ اللاتينية والشعر والعلوم والفلسفة وعلوم الطبيعة. ذات خريف انقطع عنِي المال الذي يُرسلُه أبي، فتركتها وعدتُ أدراجي. دفتره الكرتوني امتلأ بالديون. عملت في جمعيات بائعي الزَّهور لمساعدته نهاراً. بينما أقرأ ليلاً لغوطه وروسو، الفيلسوفان اللذان ولع بهما بونبارت نفسه. مررت أيام، هاجم النساجون اليدويون معملنا، أصيب أبي دفاعاً عن الآلات، أضرموا النار وهردوا. خسر ما في المخازن من الملابس القطنية وأطناناً من الخيوط المغزولة والقماش المطبوع والمنقوش والمُوشى بالأزهار والمصبوغِ ودولاب الغزل وقفص الغزل المائي. استطاع الرجال إنقاذ ماكينة طبع القماش، أما آلة التَّمشيط فتم إتلافها. وقعنَا فريسة للظُّنون والمخاوف. بعد أسبوع التهمت الحرائق المعامل. اقتحم منزلنا فقراء غاضبون يحملون حراباً. أُبرحوه ضرباً لأنَّه يعيش من مصاهرته لعائلة ثرية، أوثقوا يديه كما أوثقوا أساقفة صاروا من النباء. سأله عن إيمانه بهرطقات صانعي الآلات، عن الأرضي التي تحمل اسمه في دوقيَّة مونبلييه، ردَّ بأنه لا يملك سوى قطعة واحدة. لم يُصدقه أحد،

ووجهوا له اللكمات التي توجّه للأشرار والخاطأ. وضع أصغرهم قبضته على عقدة عنقه. سأل، هل أنت يعقوبي أم جيروندى؟ هل أنت جمهوري كاذب؟ أم أرستقراطي مخادع؟

من بين أيديهم نجى بأعجوبة. بعد أيام بلغه خبر الغوغاء. قُتل... لافوزيه.. قُتل لافوزيه.. في ساحة الثورة. ثارت ثائرته قائلا (الويل لنا، كيف نلقى استهزاء الأمم بنا وضحك القبائل علينا؟ كيف يقتلون الرجل الذي أنار شوارع باريس؟) انزوى في غرفته. ركع على ركبتيه أمام الصليب. اقتحم الصابطان الجمهوريان صلاته. في المحكمة أثِّمهم بالتأمر على حياة نابليون.

وهي تذرف الدموع بمرارة قالت:

- وكما قتل الفرنسيون رجالا صالحة مثل لافوزيه قتلوا أبي مهاناً مُساقا إلى جبل المشنقة. يرتابون في أمري وقد يقتلونني إن عدت!

إنزاييل تصنع القطن

- ما أقصاها من حكاية تلك التي تحملينها.. كنت تُجيدين صناعة القطن إذن!

قال الرّايس. وهي تغالب دموعها أجابـت:

- جئت إلى القالة هرباً من تأجيج لظى الحرب، وقد صار الفرنسيون يقتلون بعضهم البعض.

لتشير دهشته راحت تسترسل:

- و.. وأجيـد الغزل بالأـلات أيضـا. لازمت أبي، فرأـيته كـيف يأخذ النـول الـيدويـ، أضافـ إليه نـابـضا زـاد سـرـعة خـيط اللـحـمة في ذـهـابـه

وإياه. مرّة أخذ دولاب الغزل القديم أضاف إليه جهازاً يُدار بالأرجيل مكتنّي من استعمال كلتا يديّ في قتل خيط النسيج وسحبه بسرعة. لا يوجدُ في القالّة هذه الآلات لذا قد يbedo ما أرويه سحراً أو خرافّة. لكن.. أقسم لك أن ما أقوله حقيقة. إنّها... إنّها تُشبه ماكينة الخياطة التي أحضرتها. يمكنك رؤيتها قبل أن أطرد أو تؤخذ مني ولعلّ أمرها قد بلغك فهي حديث نسوة المدينة. مثلها، مثلها كنّا نملكُ ماكينة لقتل الخيوط الحريرية، حتى آتني أذكّر مرّة أيّها الرئيس أن أبي شاهد دولاب غزل أمي ينقلب، ولا حظ أن عجلته مستمرة في الغزل. فكّر في ضمّ عدّة مغازل إلى بعضها وإدارتها بعجلة واحدة، فصنع إطاراً بستة مغازل ثم بثمانية. وابتكر ما يحلّ محلّ أصابع الحائط في إمساك الخيوط وتوجيهها، فصرّتُ أديرُ عجلة واحدة فتغزّل ثمانية خيوط مرّة واحدة. واليوم هناك آلّة تغزّل عشرين خيطاً، ثلاثين، مئة مرّة واحدة. كان أبي رجلاً عظيماً أيّها الرئيس، حصل على وسام شرفي من الملك الذي كان يمنّع المخترعين ألقاباً نبيلةً تقديرًا. تغيّرَ الكثير بعد الثورة، ولم نعدْ نجدُ اللّباقّة أو التّقدّير.

- وكيف صنعها؟

- أنا لا أعرفُ عن آلاته إلّا القليل، منها ما شارك الحدادون والنجارون في صنعه ومنها ما كان غير متقنٍ، لا تُدرّ عليه أيّ ربح.

- ما أكبر خسارتك إذن؟

- لقد سلبوا مني كُلّ شيء. ما زلتُ أذكّرُ وجوه قتلىّه، قاتلاً قاتلاً. هلكت أمي بعدها بأسابيع قليلة، عجزتُ عن المشي والجلوس ولزمت الفراش، لم يخرج لوداعها أحد. قضيّتُ بعدها أياماً تعسّةً،

نمت في المقابر شأن من فقد كل شيء دفعة واحدة. مُنعت من المعامل والرّاعي، ولم أُعثر على عملٍ سوى في قُنْ، أهش الدّجاج بالعصا، أطعّمها، أراقبُ التي لا تبيض منها ثم طُردت، لذا قررتُ الرحيل. جئتُ إلى القالة مثل حمامٍ تطاردها العاصفة. كثيرون مثلّي خوفاً من الثوار هربوا إلى بلاد أوروبا، وسرعان ما أدركوا أنهم واقعون بين أعداء. عكسهم قررتُ الهرب إلى إفريقيا حيث الأم الصديقة، ألا يُسجّيك أن يطالني كل ذلك، ثم ألجأ إليك فتظلمني ظنونك؟ بلغني أنه من الفرنسيين من يسعى للقضاء على بونبارت، إن عدت ساتّهم بالتأمر رغم أنّي أقدس مبادئ الثورة. سيُشعّل بونبارت الحرب في أوروبا كما أشعّلها في مصر والشام، ولأنّي ضدّ أن يُلقى بالفرنسيين في أتون الحرب، ضدّ أن تسعى الحكومة وراء الذهب والمستعمرات، قد أحقرّ حيّة كما أحقرّ أبي يوم أحدٍ بعد القداس، فهل تمنعني عهداً بالأمان؟

- بل أنا عند عهدي القديم...

العم لويس وصناعة الفحم الحجري

- ماذا عن بقية عائلتك أيتها الفنساوية؟

- أملك عَمَّا وحيداً يُدعى لويس. بعدما نذر الخشب وارتّفع سعر المستورد منه، غير تجارتة إلى الفحم الحجري. ساعدَه أبي في شراء خطّة لتهوية منجمة، وضبط جوانبه ومضخات لتفريغه من الماء، ومحرك بخاري...
- محرك بخاري!

- أجل أيها الرئيس. تضجّ أحاديث الميناء بأخباره هذه الأيام ولنك أن تبيّن. إنه.. إنّه آلة عجيبة، يقوم بعمل يساوي عمل ستّين حساناً!

- ألا يملك عمّك عائلة قد تعودين إليها؟

- تزوج ابنة أحد الأثرياء المشتغلين بالمعادن. ظلّ يشتري الكتب والنظريات المُهَرَّبة من إنجلترا وأمريكا، يتابع أخبار نيويورك، الجمعية القمرية في بيرمينغهام، أخبار السيد واط، وشريكه ما�يو بولتون، يحتفظ بمنشورات الجمعية الملكية والأكاديمية الفرنسية والإيطالية للعلوم.

- هل نجا؟

- هم بالmigration، أُلقي عليه القبض بجهالة وقدم للمحاكمة بتهمة التآمر على الشّوار. قيل أنه هرب إلى إفريقيا. اختفت زوجته وأطفاله وما عاد أحد يعرف عنهم شيئاً. يا للثورة التي جلبت وابلاً من الشقاء. انتحلت اسمًا آخر وغادرت به نحو فلورنسا ثم ليفورنو ثم الجزائر. في كلّ مرة أدفع الكثير من الفرنكات للعبور. عملت في تلقين أبناء التجار رسم الحرف ونطقه ثم تزوجت باش المكافحة بعدما حاول ضابط جمهوري خطفي وتسليمي!

رجل لا عهد له

قالت الفنساوية:

- بعدما بلغته أخبار عن اقتراب عزله انقلب أحوال باش المكافحة. جرّني مرة خارجاً، وقد بلغه آنني أقصد سوق الميناء.

مزق ثيابي بصلاحية، وراح يدسّ يدهُ بحثاً عن أية رسالة. كبليد الذهن لم يُصدق المُترجم اليهودي الذي جلبه ليقرأ رسالة حاولت إرسالها إلى صندوق بريدنا القديم علّها تبلغ أحداً من عائلتي. وأنا أخطّ رسالة أخرى سكبت محبري عليها هلعاً وقد داهمني. حين اختفت الكلمات، أوثقني إلى سريره وأخذ يقذفني بـنّحاسيات يُزَينُ بها الغرفة. صرتُ أحصل على العبر سراً، أكتب وأنسخ ما يروقني بعد الخياطة. أمسك بيدي مرّة ورأى آثار العبر العالق بأظافري، كاد يسحق أناملي تحت قدميه، ظنّاً منه أنّي أراسل رجلاً غيره. ثارت ثائرته، سلبني كل الصلبان المعقوفة وراح يطعنني بها. منعني اسمّاً آخر هو سلطانة، وضع عبّداً اشتراه بفرنكٍ ونصف لمراقبي. تغيرت سحتي، وانقطعت عن الخياطة. أحرق كتبى القديمة، وكادت النيران تلتهم جسدي بعدما انتقلت إلى طرف جُبْتي وأنا أحاول إنقاذ بعضها.

- امتلكتِ مكتبة؟

- كنتُ أقصد سوق الميناء خفية وأشتري ما حمله الورّاقون وسماسرة الكتب. أقرأ خفية حين يغيب، أخطّ وأنسخ وأحفظ، إذ لم أعد أجد لذة سوى في معرفة جوهر الأشياء.

- ألم تحاولي الهرب!

- حاولت مرّة رفقة رجل إيطالي يدق الطبلة، بينما تُرسل المغنية في الغناء. دفعت له الكثير من الفرنكات، أخذتها واختفى. فكرتُ في الهرب مرات بعدها، لكن لم أفكّر يوماً في قتله، فقد كان شديد البطش. قبل أن أطلب منك الأمان بليلة، سدد إليّ طعنةً أسفل رقبتي، شقت ظهري.

أدارتْ ظهرها وأسقطتْ ثوبها على كتفها ما يكفي ليرى الرئيس
أثر الطعنة. سقط شريط من الساتان الأبيض لفت به شعرها، قالت
بيدين مضمومتين وكأنها تصلّي:

- ولدَ يُتمي الكبير مع راية المساواة والحرية والكرامة والإخاء.
علقت المقصلة للملك، لكن نابليون خلق نبلاء آخرين، رجال بنوك
وأرباب مصانع وملاك أراضٍ متبعجون. أيها الرئيس... نهيت بيوت
الوجهاء، قُتل محامون ولورادات، اغتصبت نساء الأثرياء وأحرقت
أملاكهم. لستُ حزينةً لأنّه ما عاد لي أحد هناك، بل حزينة من أجل
آمةٍ يقتل بعضها ببعضًا!

نحو دار السلطان

قالت بصوتٍ خفيضٍ:

- في سوق الميناء بلغني أنّ المرعى الذي ورثه أبي صار أرضاً
زراعية. ظهر في البلدة محراثٌ يجرّه الحصان يشق الأرض. في مركز
المدينة ارتفعت مصانع النسيج والمعامل والمصاهير فتصاعدت
الأدخنة. أخذتُ أعلى نفسي بالأمانى العذاب، لكن لا أستطيع
العودة، العيونُ في كلّ مكان.

- وأيّ أرضٍ تقصدي!

أمسكتْ يدهُ اليُمنى بكلتا يديها ترجوه: إلى... قسنطينة أو
الجزائر، أجل الجزائر حيث أنعم بالأمان. أعلم أبناء التجار رسم
الحرف الفرنسي أوأشتغل في الخياطة. أما فرنسا فصارت ممحونة
بيطش الجمهوريين، وما عادت إرادة الرب أن أقيم فيها.

- لن يمسك سوء... رغم أنّي لا أعرف من أنتِ، ومن أين جئتِ
بـ مقصصك العجيبة. أرسلْ غداً حوذياً يحمل متابعاًك، وخدامة تُرافقك.
الطريق وعرة، الحق بكم بعد يوم، أهْبُك داراً تقييمين فيها، ثمنُها دَيْنُ
سُدَّدينه شيئاً فشيئاً.

وهو يتواري:

- تَذَكَّري أنا عند عهدي دائمًا، لآهونُ علىَّ أن أهلكَ من أن أغدرَ
بمن لجأ إلىَّ جزعاً.

فجراً وصلتها عربة يقودها حوذى قوي، بأنفٍ مُدبِّبٍ، وفي غليظٍ
يرتدي هنداماً جيداً. يصاحب رُفقة خادمة. غادرت وقد ضاقت
ذرعاً بأولاد باش المكافحة. في الطريق دوتُ الطلقاتُ فجأةً وأزَّ
الرصاص. ارتفع صوتُ صليل الأسلحة واحتلَّت بوقعِ أقدام الجنود
وصباح جامي الضرائب. أعلن الأهالي النفير وبدأ القتال بالعصبيَّ
والفؤوس، فرت قُطعان الشيران والخراف، وسقط عددٌ من الفلاحين
والرُّعاعَة وكأنهم طرائد. رفعت إيزابيل يدها تسأَلَ الرَّبَّ أن يدرأ عنها
هذا الشر. صاح الحوذى لإيقاف الجياد: حا... حا... حا..

أخذ الجنود من القطعان والغلال حاجتهم كعربان جائعة
وغادروا، تاركين الجُثث مُمددَة على القش. اختفت الشمس وغابت
النجوم ليلاً. لجأ الجميع إلى كهف في سفح جبل صخريٍّ وقضوا
الليلة. فجراً جدّت العربية في سيرها، بعد مسيرة أيام صاح الحوذى
وقد ابتهجت أساريره:

- حا... حا... حا، وصلنا يا سيدتي، وصلنا...

نهاية عين من عيونِ الإنجليز

أخذتُ ورقة مخصصة للمُراسلات العسكرية، كتبتُ: «لقد قتلتُ السيد بلانشار»، حولتها إلى كرة صغيرة، ثم أرسلتها بطريقتي.

بعدما استعدنا الرّقْوَق، أخضعنها للفحص، لفقد سلامتها والعطب الذي لحق بها، تبيّن أنّها رقوّق مُضَلَّة. يومها قال الجنرال

ماديلان وهو يرمي قفازه العسكري، مشعّلاً بقدّاحة ذهبية غلوبونه: - أيها الحمقى... السيد بلانشار ابنُ لمترجم الملك للغاتِ

الشرقية، صحب بونابرت إلى الإسكندرية، لإدارة المطبعة العربية الفرنسية، ثم غادر نحو الشام، ومات أثناء الحملة عليها، هذه شهادة المهندس ريكو. عُذْ إلى القالة أيها الضابط وأحضر رأس ذلك الرجل

الذي يدّعى أنه بلانشار. جد في طلبه، هيا اذهب، حمقى!

على متن سفينة تجارية عدتُ، بحثاً عن الرجل غادرت القالة إلى

قسنطينة. مكثتُ أياماً قليلاً خشية الوباء والهلاك، ثم عدتُ أدراجي. أرسلتُ العيون لعدة أيام، عثرت عليه على بُعد ثلاثين فرسخاً من

الوكالة الفرنسية، بينما كان يشتري عبداً زنجياً، وفي يديه رطلٌ تفاح. لما سمعَ ندائِي تسمّر واقفاً، وهو يستدير تأمّلَ عينيه الغائرتين،

وقد وهن ودبٌ فيه العجزُ أكثر. دفعته برفق إلى العربية. لم يُقاوم، جلس في الزاوية، وضمّ يديه. نزلنا في الحامية جنباً إلى جنب، حتى

لا أثير انتباه مُراقبِ الباي أو الجنود أو التجار. رأيتُ الساحة شبه خالية من جهتها الغربية، فقط بعض الحرّاس.

شرقاً ظهر حشدٌ مُحتاجٌ من أبناء كورسكا، بلغت عدد سُفنهم بعد الصلح ثلاثة سفينات لصيد المرجان. رفضوا أن يُقدّموا للباشا حصّته

السنوية، فأرسلت الحكومة وساطة قبل أيام، لكنّها حتماً لن تتمكن من أخذ فرنك واحد منهم وستولى تعويضها بنفسها وتقدمها نقداً. انتهزتُ فرصة انشغال الجميع ودخلنا إلى مكتبي السري. سألهُ من سبب تزييفه للحقائق عن القالة، عنابة، القُل، جيجل وبجاية، عن جنود وعتاد وحصون لم توجد راح يُخْبِرُ عنها! سألهُ عن اسمه الجديد، وعما إذا كان فرنسيّاً أم إيطاليّاً. وكيف عرف أنّي عينٌ من عيون الجنرال! ألقى نظرةً حولنا، أطرق مليّاً، أخرج منديلاً مُنقطاً وسعل فيه ثلث مرّات. ثم سألهُ من خلف نظارة المونوكول:

- هل حياتي مُؤمّنة؟
- مُكْلَفٌ بتسليمك للمحاكمة.
- حسناً يا فيكتور أو أيّاماً كان اسمك.. تسألهُ عن имени الجديد، حتماً ليس: بلانشار.. هاهاهـا. أتدرى، طالما انتظرتُ الحكومة ما سيعود به القنابل والتجارُ والرّحالة من أخبار، لذا أردتُ أن أوقع بها بواسطة الرّقوق ذاتها التي تستدلّ بها. أنا لا أزيف شيئاً بل أدس بعض الكلمات في الحقيقة. هكذا يا فيكتور تُزيف الكتب الكبيرة، هاهاهـا.

- صالح الإنجليز!
- بل لصالح الفرنسيّين، ولি�توقف المجنون نابليون عن دفعنا لمُكافحة عنااء ضمّ العالم كله إلى الأراضي الفرنسيّة!
- كم يدفعون لك؟

- الكثير، مئات الفرنكـات، لكن لا أقبض شيئاً لنفسي، أُغُول بها رحلاتي وأسفاري، وأجزُل العطاء لمن يُساعدني.
- من ذلـك علىـ؟ الإنجليـزـ؟!

- بل فرنسيون لا يوالون نابليون، وساحرة أيرلندية تُدعى ماريا غلوفر..

ضفت ذرعاً به، أخذ يهرب طق لاستدار عاطفتي. ربح الرجل المال لبراعته في خداع العسكريين، نجح في الفرار مرات. وغير اسمه منذ الصلح، فصار يُوَقَّع رسائله باسم كلوتير. رافق السيد بلانشر الحقيقى إلى الشام، تطابق بينهما الخط والرسائل حتى أن العسكريين لم ينتبهوا للفرق بين الرجلين. وصل الإنجليز إليه وأكرمه، اشتروا ولاعه. شرع بأمر منهم في تزييف الرقوق بعدهما وضعوا أيديهم عليها.

في الغد كنا سنتقد حكم الإعدام، بعد اتهامه بالخيانة العظمى، لكن محاكمةه أو نقله سيُكلِّفُ الكثير ويثير ضجة. دفعته لتجريء سُمّ، عادة ما يحمله الجواسيس لإنهاء حياتهم. تناول رشفة، سرعان ما سقطت الحلقة الذهبية من جيب سترته الداخلية، وشققت طريقها نحو البحر. سقط هاماً بعد قيء شديد، وكأنه قيء مريض بالكوليرا، جحظت عيناه ثم صمتت إلى الأبد.

ليلاً صعدنا على ظهر السفينة، شعرت بقرصنة برد، آخر جنا جثته من شوال القمح، تبادلتُ والراسل العسكري النظر، حلقتُ شعرة وجردتُه من ثيابه، ربطنا قدميه بصخرتين حتى لا يطفو، ثم ألقينا به في البحر.

نمْتُ قرير العين. باكراً داهم الجنود منزله في المدينة، بعد التفتيش عثروا على كمياتٍ من البارود السلطاني الأسود وعدِّ من العدسات المُكْبِرَة، وعلى رسالة بختم أحمر؛ تم تحويلها إلى الغرفة السوداء في مارسيليا لفك أسرارها.

الفصل الخامس

جُوزَنَال
دار السلطان / 1804

لقد صار نابليون إمبراطوراً يُمسكُ كل شيء بقبضته واحدة. أرسى قواعد مُلكه، وجمع الرجال الأشداء حوله. لا أحد بعد سينذكر انقلاب برومير الفاشل. أعدم الدوق دانجييان بأمر منه، فأرهب ملوك أوروبا، أما ذلك الأحمق بتهوفن الذي ألغى إهداء السيمفونية البطولية لـإيرويكا، فلا أحد سينذكره.

أمام ناظري حلقت طيور جذلة في أسراب، انبعثت أبواق من أعلى مدينة الجزائر. انقضع الضباب فظهرت جزيرة التواريس الكبيرة. هل سيلبّي مصطفى باشا على كرسي الباشوية عاماً آخر؟ لا أحد يدري. مَرَقتُ أوراق الهوبيّة حتى لا يستدلّ القراءة أو الأعداء علىّ أو على أقرباء لي.

عدتُ منذ أيام قليلة على متن سفينة تجارية نابولية، ألقتُ مراسيها في ميناء الجزائر.

في هذه المدينة الكبيرة حيث يُقيّم قناصله الدول، بدأت حياتي الأخرى كتاجر، شيئاً فشيئاً حصلتُ من القنصلية على دُفعة مالية أَسست بها شركة للنقل البحري تحت اسم (شركة فيكتور دي أوغو وشركاؤه) إلى جانب عملي في تجارة المرجان. قُمتُ باسم عدد من الإسبان إليها حتى أخفى شراكتي مع الجيش ووزارة الحرب الفرنسية.

في الميناء سُمح لسفينة تحمل مجندين جُدد من الأنضول بالإنزال، بينما تم إيقاع سفيتي أياماً، قبل أن يسمحوا لنا بالدخول والنزول، وقد شاع آتنا نحمل سقىما مصاباً بالطاعون. تم احتجازنا في المرسى خشية الوباء لأيام أخرى.

صعدت على ظهرها، تأمّلت هذه المدينة الجلادة، عُش القراصرة الكبير، أمّا هم فُسّمونها المُعَاجِدَة، المَحْرُوَّسَة. هبّت رياح شرقية في موعدها. بعد يوم آخر من الانتظار تم إيقاف سفينة من ليفورنو، وأخرى إنجليزية تحمل بضائع مصنوعة. انقضت ثلاثة أيام أخرى دون أن يُأذن لنا بالرسو. نظرت إلى البحر الذي صارت تدفع له إنجلترا، فرنسا، الدانمارك، هولاندا، سردينيا، البرتغال، إسبانيا، السويد، النرويج، هانوفر والولايات المتحدة ضريبة سنوية مقابل الملاحة. رأيت عدّاً من البارج، أربعة شالوبات قديمة الصنع، ثلاثة بلاقرات، وتسعة أشبال، وعدّاً من المراكب التي تتشابك وتتلامح في المعارك. رصدت بعديسي المُكَبَّرة ما يزيد عن الخمسين مدفعاً في حالة تأهّب.

بعد عشرة أيام سُمح لنا بالرسو، صعد مُراقبان، طلباني إظهار جواز سفر السفينة، ثم أخذَا يتقدّدان الحُمولة. تم احتجازِي ثلاثة أيام من أجل التّحقيق بعدما عثّرا على جرائد وصحف فرنسية وأمريكية جلبها صديقي ألفونس.

- ما هذا يا سيد فيكتور؟

- جُورنال... صحيفة، جريدة.

- ماذا تقصد بالصحيفة!

- يطبع الفرنسيون الأخبار على ورق زهيد الثمن، ويبيعونها، إنّها مثل الكتب، لكنها تحملُ الأخبار.
- الأخبار!
- كأخبار السلم وال الحرب بين الأمم، هناك صحفٌ في إنجلترا وأمريكا وكل بلاد أوروبا... تطبعُ الآلاف من هذه الأوراق.
- وكيف يسمع نابليون بتبادل الأخبار بين العامة!
- تحملُ الصحف أخباراً عن أممٍ أخرى، عن معركة أو كارثة أو احتفالٍ يعلمه الجميع.
- وماذا تحملُ هذه الصحيفة من أخبار؟
- هي صحيفةٌ بتاريخ قديم تقدم تقاريرَ عن جلسات الجمعية الوطنية، وبعض النقد للحكومة.
- كيف حصلت عليها؟
- قمتُ بشرائها، يوماً تباعُ آلاف النسخ منها.
- تقصدُ أنَّ هذه الأخبار قد وقعت بيد الآلاف!
- نعم يا سيدي، ولكن قبل أن تطبع هذه الأخبار تخضعُ لرقابة وقانون يحترمه الصحفيون.
- الصحفيون؟ ومن هم الصحفيون! حسنا، سَتَتَبَيَّنُ الأمر، وإن كنتُ تُخَادِعُنا سنسجنكم جميعاً.

في القصبة

سرتُ نحو بيتي القديم في القسم السفلي من المدينة، ليس بعيداً عن منزل القنصل وكبار التجار وقصر الباشا. كان مُقاولاً للبحر حتى

أرى كل قادم من جهة الميناء. اشتريت متنلا آخر في قلب الشارع المؤدي إلى باب عزون، قريب من وسط المدينة حيث الوكالات والمؤسسات والفنادق والأسواق الكبرى. أما الدار التي وهبها لي القنصل، فتقع حيث شارع البوزة والسوق الكبير، في شارع ضيق لا يتسع لمرور ثلاثة أشخاص معا. حرصت على انتقاء منازلي، فقد كان علي أن أظل قريبا من المحكمة والكنيسة والمستشفى الخاص بالتجار الأوروبيين.

باكرًا دخلت البيت حذرا، شدّني صوت أزيز عالي قادم من الغرف المغلقة. صعدت، اصطدمت عدداً من الحشرات ووضعتها في علب زجاجية لفحصها بعدسة مكبّرة، خناقل وعناكب وجراد وديدان ونمل ويرقات ذباب. أمرت خادما استأجرته لساعات برص هدايا عبدي آغا في غرفة أخرى. تخلصت من الدعائم الخشبية التي نخرها السوس في غيابي.

صعدت إلى العلية، لا شيء تغيّر في المدينة، ما زال أهلها يوقدون الشموع في عيد مولد النبي محمد، يتزينون ويتعطرون، يُنشدون التّواشيح ويرسلون الموائد والصدقات، يصومون رمضان ويحتفلون بالعيد، يحتفون بالحجاج المُغادرین والعائدين كما يحتفون بعودة الرئيس المتصررين.

دخلت الغرفة، أخذت أتفقد الكتب التي حملتها معه، رحلات وروايات كتبها رحالة أو أسرى في الجزائر وإفريقيا. قلب النظر في كتاب الجاسوس الإنجليزي وليام ليثغاو، وهنري بلونت ونصّه (رحلة إلى المشرق). وقعت يدي على كتاب آخر باللاتينية للفارس الفرنسي

العظيم جون نيكولاس دiron، بذلتُ الكثير للحصول على نسخة نادرة منه، ومن كتاب (مرثية ورسالة حزن على كل رجل مسيحي قراءتها). أغرتني النصوص بمواصلة كتابة رحلتي. سمعت طرق بَابِ، سريعاً قُمْتُ، وإذا به قائداً الزَّبَلِ، وأعوانه يمتطون بغالاً. يسألني إن كنتُ سأضع شيئاً آخر قبل أن يمضي. أرُدّ: كلاً. حملوا ما جمعوه إلى بُرجِ الزَّوْيَةِ، خارج المدينة حيث تحرق النفايات.

بعد الظهر، تخلَّصْتُ من ملابسي الفرنجية وارتديتُ ملابس تشبه ما ترتديه طائفة التجار. طرق أحدthem بابي وإذا به مأمورٌ ذو شعر مجعدٌ، يُبلغني بأن سعر الضريبة قد ارتفع وأنني ملزم بدفع السعر الجديد، وإذا ما تهرَّبت أو حاولت التحايل سيمُكِّن إيقاف تجاري وسحب تصاريح دخول سفني، ثم غادر وهو يستحدث جواده على الحركة والسرعة بالنحسات.

تركَتُ منزلِي وقصدتُ طريق الجامع الكبير، بعدما حصلتُ على إذن عسكري يسمح لي بالتجوال. دلفت الشوارع المُبلطة، بدت ضيقَة لا تتسعُ لمرور العربات الفرنسية الجديدة. في الطريق توقفت عربة نزل منها خمسةُ رياض أشداء عائدين لتوهم. صار بإمكانني تمييزهم من اللباس وطريقة الكلام. عبرتُ بحمامات، كُوش، حوانيت، وبمحابر. من السكون المُخيم على البحر عرفت أن سفن الإسبان والدنماركيين والأمريكيين والإيطاليين، انسحبَت إلى مكان آخر في عرض المتوسط. بلغتُ السوق، حيث رائحة لحاء وجوز الطيب. تغير رئيس طائفة التجار، ارتفع سعر القار والقطران والتبغ والعبيد. ووصلتني أخبارٌ عن المجاعة التي أصابت قسنطينة، عن الرئيس أحمد

الحداد، النعمان، حمدان، الحاج سليمان والرّايس صالح والرّايس حميده. أخبارٌ أخرى تتناقلها الألسنُ بصوتٍ خافتٍ عن الرّايس محمود الذي تهافتَ من عَلَّ ومات. قال أحدهم:

- انقطعت حبالُ سفيته يوم موته، ما ترك ابنًا ولا زوجة، سيستعيدُ بيت المال كل ثروته.

غادرتهما، دخلتُ المقهى اليوناني، حيث يمضغُ الجالسون الدّخان. بعضهم يُدْخِنُونَه في السبسي، أو الغليون، آخرون يستعملون النُّشُوق. يتجاذبُ رجالُ:

- هل يجوزُ صيد الطّيير بالرصاص؟

- صيدُها غير حلالٍ لأنَّها تُقتل بالرمي والكسر.

- الرّميةُ بنار البارود تنفذُ نفاذًا أشدَّ من نفاذ السّهام، الرّميةُ النافذةُ القاتلة بجرح لا يكسر حلالٍ يا رجل، بل يحلّ!

جدالٌ آخر على طاولةِ مقابلةٍ:

- إذا مات الرجل وطلع شخصٌ من الجنّ في صورَتِه يُجتمعُ زوجته، هل يجوزُ حرق الرجل الشيطان كما في بعض بلاد الروم؟

- لا بدَّ من أنا في آخر الزمان يا صاحبي!

دارت أحاديثٌ عن قسنطينة:

- لقد أصابت العائمةُ الزرع!

- نجت السواحل والصّراوية. حصاد السنة في الحركة والنمامشة وأولاد يحيى بن طالب وغيرهم.

أفرغتُ في جوفي كوبًا من القهوة والماء، ثم غادرتُ. سرتُ خلف عجوزٍ يرتدي القفطان اليهودي الأسود، اشتري رطلين من

الزبدة واشتريتُ رطلاً. توقفتُ عند بائعِ برانيس وقنادير وملاءات لفٌ بيضاء، وسُكّرية، اشتريتُ ثلاث صدريات رجالية وملابس أطفال وحایك وعجاري. أقنعته بأنني أبتاعها للتصدق بها وانصرفتُ. توقفت عند القصّاب ثم الجوهرجي الإيطالي. لمحت شاباً بوجهه برونزى جالس بمفرده عند إحدى زوايا الجامع، دون أن يعرض شيئاً للبيع. الوُشاة هنا كالضياع منتشرون. لاحقت مجموعة من الصبية جنوداً يحملون الأبواق النحاسية والطبلول. صرفت نظري عنه لحظاتٍ أتبّعهم وإذا به يختفي. بحدّر عبرت الشارع، زرت سوق العطارين اليهود وسوق السمن، سوق اللوح وسوق الغزل. لاحظت معاصرةً جديدةً لصناعة الخمر في هذا الشارع، ومدبغةً في ذاك، بينما تخلو المدينة من البنوك والمصانع.رأيت النصارى المكلَّف بكنس مسجد خضر باشا، يقفُ ليأخذ نصيبه من وقف المسجد، كم احتقرته ورغبتُ في حزّ عنقه.

اخترتُ طريقاً ضيقاً معاكسة، ظلت النسوة يغلقن أبوابهن كلما مررتُ بإحداهنّ. بلغ مسامعي صوتُ إنشادٍ يشبه أناشيد الدير، ينبعُ من زاوية قرية أو جامعٍ. هنا وهناك أجراءٌ من الزّنوج وعمالٌ من زواوة وبسكرة وميزاب، في المخابز والحمامات والميناء والمصابغ والمدابغ. وقفْتُ عند راوٍ يقصّ سيرة بطل ما، بمحاذاته قزمٌ أحذب في ملابس مضحكَة. يحتفظ تحت لسانه بجوزة الطَّيب، يمتّصها من حين إلى حين. تدافت الجموع فغاب صوته بين نحنّاتهنّ وهمماتهنّ. ليلاً في المكان نفسه يقصّ المداخنون السير. انعطفتُ إلى دكاكين الدخانخنة، اشتريتُ دخانًا، قصدتُ الفاكهانيّ، اشتريت

رطلين من التفاح، ثم جلستُ عند الحلاق أنتظر دوري. مقابلًا له رأيتُ أطفالاً يغسلون الواحهم ويجفونها تحت الشمس، آخرون يستظهرون حفظهم، لا ورق في الكتاتيب ولا حبر.

شدّبْتُ لحيتي، وقصصتُ شعري. مررتُ بشارع البحارة حيث تُباع غنائم البحر من سلع وأساري، لم أجد عبداً جيداً فغادرت. جلستُ في مطعم مقابل للدار الباريسية، كانت الكراسي مكسوّة بالقطيفة المشغولة جيداً، رُضِّ على طاولاته أكثر من شمعدان فضي ومذهب، في الجانب الآخر قُدُورٌ نحاسية تحفظ الطعام. دخنتُ غليوناً، بينما يأكل آخرون بصخب، يشدُّ أحدهم جلدَة من اللّحم ويتبادلُ الأخبار عن ثورة الطّرفة الدرقاوية، التي قادها ابن الأحرش قبل سنة في الغرب. لا فرنسي هنا فتبادل الحديث عن حرّية الصحافة وحقوق الإنسان. الظلّم مؤذنٌ بخراب العمران، ماذا يعرف الباشاعما يقع على العباد من جور؟ يفرُّش الرجل من العساكر محنته في دار السلطان كلَّ سنة، ليعود وبها مئة ريال والرّيالاليوم بألف فرنك!

رفقة القنصل

عدت إلى الدار، شعرتُ أنّ أحدهم يقتفي أثري. أضأتُ القناديل، سقيتُ البغل، ظلّ عطشاً يحوم حول النافورة، أخذت من أمامه الذلو حينما أدار رأسه، وأخذ بعض شكيمة الرسن. تأمّلتُ العلب الزجاجية للحشرات، ألقيتُ إلى بعضها أوراق أشجار، وإلى أخرى لحمًا نيناً مدقوقاً. ألقيتُ بطبق السمك للقطط، ثم غادرت البهو نحو غرفتي. شرعتُ أرسم مخططاً جديداً للمدينة، الجزر التي تقدّمها، المرسى

الصغير الذي صار كثيراً، العمران، جبل بوذرunga في الجنوب الغربي، ووادي الحراس شرقاً، وحدّدتُ الطرق.

في الغد، قصدتُ ضريح سيدي عبد الرحمن الشعالي، حيث تبادلت الرسائل الشفهية مع المراسل العسكري. ملأني الوجل ثم طفت بقبابِ حرص حسن باشا على تزيينها بالبلور. تفقدتُ ثكنات الإنكشارية السابعة، دار المقررين، دار اللبانجية، ثكنة الخراطين، الدار الفوقانية، ثم الدار التحتانية، دار أوسطه موسى، ودار الدروج. مررتُ بالجامع الكبير جائعاً، فأطعموني رُفقة خمسين رجلاً. دخلتُ جامع كتشاوة، تأملتُ عرصةُ المرمرية، أقواسه، الفسيفساء، السجاد المطرّز، القبة، المحراب، أطر النوافذ، والمساحة. سيكون كنيسة عظيمة، بعد أن نُزيل أياتاً من قصيدة البردة، والآيات المنقوشة.

بعد أيام، ارتديتُ بذلتى الفرنسية، جواربَ حريرية وخفين جديدين. قصدتُ أصدقاءَ قدامي في الدار الباريسية، التي صارت مثل دار جيمون ودار بريمان العريقة. وصلتُ، تبادلنا الأخبار عن المناجم، والسكك الحديدية، عن أسرة مورتمارت، أسرة مونتمورانسي، وأسرة بونابرت. تسامرنا، انقضت الليلة، فعدتُ أدراجي.

في الغد لبيت دعوة القنصل، تفحّضتُ المدعويين من الفرنسيين والأوروبيين، والعثمانيين. قبل السابعة، ألقى خطابه أمام ما يقارب الثمانين مدعواً، ثم دعا الجميع إلى المأدبة. بدأ العزف، فرّشت الموائد ثم رُفعت. حين غادر الضيوف أقبل رسول القنصل نحوه، وأمر ببقاءٍ. خلفه قمتُ بشقّ الصفوف. في المكتب، رأيت القنصل مقلباً كرجل جمهوريٍّ مرموق، يرتدي حلةً تشبه حلةً البلاط المُوشأة.

على صدره عدد من الأوسمة، يضع على شعره الأدھان الفرنسية
الباھظة. صافحني بحرارة، دار حول الكرسيّ دورتين ثم قال بنبرة
منخفضة درجتين: «حدّثني عن الأخبار!»

تقارير أخرى

انقضت أيام اعنتي فيها بأصصٍ فأبنت زهوراً وعطرًا. ياسمين،
خزامي، ريحان وإكليل جبلي. أقمتُ في بيتي وكأنني أتابع أمور
شركتي وتجارتي، أغادرُ نحو خمارة أو ماخور أو للبحث عن
إيزابيل، بعد أن أتنكّر بالحايك وأغطّي وجهي باليشمك أو العجار.
أخذت قلماً من القصب وشيتاً من السمق الأسود، يا لهذا المداد
المحلّي الرديء. كتبتُ بعض الأخبار عن موت عثمان باي قسنطينة،
وعن رحلتي إلى مرسي الخرز القديم. لا تشبه الجزائر القالة، جزوها
العلوي جبلي. حيثُ تكثر ديار الموريسيكين، متاهةً من الشوارع
الضيقة الملتوية، أمّا الجزء السفلي، فأرضٌ منبسطة وسهول، هنا
تقاطع الشوارع الكبيرة وتلتقي، مثل باب الواد وباب عزون وشارع
لامارين. على مقربة مني قصرُ الجنينة، حيثُ كرسى الباشوية، حي
للقناصلة وديار شاهقة للرياس، ومقاهٍ عديدة تتجاوز الخمسين مقهى.
توقفت عن تدوين الملاحظات والحواشي وقد سمعت صوت عربة
قادمة، تصرّ عجلاتها صرّا. مضيتُ، تناولت فطيرة ثم رحتُ أعددُ
صفات المزايدين، البسكيتين، القبائل وغيرهم. أتوقفُ، أتفقد الشباك
وقد لاحظت أنّ أحدّهم قام بتفكيك إحدى نوافذ العلية قطعةً قطعةً.
ثم أعادها كيّفما اتفق، كما لاحظت اختفاء قضيب حديديّ، تركته

أمام مربط الحصان، اشتريته لأرفع عرائش العنبر. انظرت على ظهري مفكراً، من الفاعل؟ ثم شرعت في تدوين ملاحظات عن بيت المال، والعقارات والفنادق، وأفران معالجة الجير وورشات السفن. جمعت الأوراق في عصيّ مجوفة، قمتُ بشق بطن البغل، دستتها بين أحشائه، وسلمتها في أطراف المدينة، حيث يتخلص الفلاحون من جيف الأبقار والحمير.

التقيتُ تحت جُنح الظلام برؤساء في الشرطة، وقيادات عسكرية أو بمندوبيهم، أسلم ما أملك من معلومات، أتلقي الإرشاد أو العون أو التعليمات ثم أغادر.

- اذهب إلى دار السفن، قدّم تقريراً عن سفنهما الحربية والتجارية. افعل ذلك بعد عودتك من ميناء سيدي فرج، تفقد التّحصينات هناك وعُذّسالما.

كنت أملك أصدقاء يعملون في مهماتٍ سرية في روسيا، إنجلترا، وأمريكا، لكن دائماً ما كانت مهمتي أصعب. حولتُ نظري إلى الأحواش والدروب التي سلكتُ أغلبها متكتراً. تسألتُ كيف أتسلل إلى سطاولي؟ ثم سيدني فرج لتفقد التّحصينات!

قبل سنوات أرسلني القنصل ضمن وفد إلى باي قسنطينة، لم يُسمح لنا يومها بالتحرك إلا بمعية حرس الشرف. بدأ العزف، بدا سيئاً بسبب تمدد الجلود ورداءة الأبواق. تسلل باتريك وغادرنا ليلاً. الشقيّ، قاموا بتعريةه، قيدوا قدميه ويديه، حلقو شعره بموس رديء، كممّوه وأحضاروه وعلى صدره آثار قيءٍ ودم، لقد صرخ حتى تقياً. دفعنا الكثير من الفرنكات التي تحمل تاريخ صك حديث لتحريره.

مدتُ يدي لأُسنه، ارتحى ووقع أرضاً. ألقى الجندي ما كان بحوزته من فرنكاتٍ وأسلحةٍ، لينفوا تهمة سرقته وقرأ حكم طرده. رأيت ظهره الذي شقَّه السوط، وما أفلت إلا لأنَّه مارس الخديعة قائلاً لآخر رقم آنه ما غادر إلا للصيد!

قبل سنوات احتاج أحد عيون الملك لفُقد عينِ والاختفاء في باطن الغابة ثلاثة أيام كاملة، حتى توقف التزيف، ليُقْنَعُهم بأنَّه ضلَّ الطريق لضعف بصره في العين الوحيدة التي يملك.

وقد غربت الشمس نزلت عن مطيري. أحكمت إغلاق الأبواب، اختليتُ بنفسي وأطرقت مفكراً. اخترت الصيف القادم، حين يخرج الرياس إلى البحر لأيام طويلة فترغ السواحل. أو... كلاً، تبدو خطة سيئة. استعنُ بمخطوط عليه معاقل العثمانيين والمحصون والمفارز الصخرية وطرق التجارة نحو سائر البلاد، سحبُ ساقَي المتخشبين، لزمتُ السكون، أنصتُ إلى خطوات عابر توقف أمام نافذتي. انتهى إلى مسامعي نداءُ خافتُ «أسرع، أسرع»، ما إن همممت بفتحها حتى رفس البغل برجليه. انعطف يميناً ثم هبط نحو أزقة خلفية. تأكَّد شكّي، أحدهم يتعقبني. خرجتُ وراءه، ركضتُ وركضَ، حين بلغتُ المنعطف كان قد اخترى. حاولت أن أهدأ، فكلَّ غريب عن المدينة قد يلاحقه الفضوليون أو اللصوص، وما إن عُدْتُ إلى صحن الدار حتى وجَدْتُ رجلاً يطلب حمايتي كاشفاً عن وجهه قائلاً إنَّه هاربٌ مُلاحقٌ، لأنَّه حمل البنادق والبارود إلى ابن الأحرش. أردتُ أن أتبين إن كان لإنجليز يدُّ في دفع الأحرش للتمرد، منحنه الأمان وأويته.

في الخارج حدثت جلبة بين الجنود وقد أفلت منهم الرجل. ضجر المور من رفع مظالمهم إلى البasha، قبل عشر سنوات وضع آغا الصبایحية حداً لثورة القبائل، قبلها بثلاثة وعشرين سنة كتب القنصل إلى الملك عن حرب أهلية في الحضنة وجبل البليدة، بأمر البasha أحمد خوجه الخيل التّمرد. ما زال العثمانيون يحكمون بقبضة من حديد، لا يأتمنون المور على منصب، كما لا يأمنون جانب العثماني إن كان ابناً لأمرأة من المور. يذهب باشا ويأتي آخر، ولا شيء يتغيّر. لكلّ باشا رياسٌ وأوجاّق يساندونه ثم يُوقعون به.

مكثتُ رفقة المتمرّد ليلةً أقوم على خدمته وتطهير جرمه. سارعت إلى غرفتي، أخفيت الدّواة، الكتب، والحاياك والعجار. بعدما فرغ من تناول طعامه حادثه: أتدرى يا صديقي؟ لا يبادركم العثمانيون الثقة، كما لا يبادركم الإنجليز الودّ. أغمض عينيه ولم يُجب. انسحبتُ لينادل قسطاً من الراحة. حين حلّ يوم آخر كان قد اخترق، دون جلبة وأخذ سره معه.

خدّاوج الفرنساوية

نداءً رخيم يعلو المدينة. في يوم قائظٍ سرتُ لتبديل عملتي. عرجتُ على السوق بينما تهياً الجزائر لاستقبال مواكب الدّنوش التي يقودها البايات كل ثلاثة سنوات. وقفّتُ بين الحشود أتأمل دنوش قسنطينة، أكبرها. لن يُلقوا البasha في السجن، سيدفعُ أجور الجنود هذه السنة بسخاء. يقول الإسبان أن البasha رجلٌ غنيٌ لكنه ليس سيد ثروته، وأنه أبٌ دون أطفال، زوج دون زوجة، طاغية دون حرية،

مالكٌ لعيده وعبدٌ لأتباعه. من يشاهد هذه المواقب يدركُ قِصرَ نظرِ الإسبان. سخروا أيضًا من نابليون، قالوا ملازمُ أول يصبح إمبراطوراً! بذلُّ عملتي، قمتُ بتشحيم عجلات العربية ثم انصرفتُ للبحث عن إيزابيل قبل رحلتي إلى سيدي فرج. قصدت المنازل التي اعتاد الأوروبيون على كرائها دون جدوى. ما من أثر لها. عرجتُ على المقهى التركي حيث يُطلق عثمان الملياني دُعَابَاتٍ سَمِحةً، تصنعتُ الود وقد علمتُ أنه حامل الرأبة في سفينة الرئيس حسين. أخبرته أنَّ رفقه مبهجة، دعوته إلى بيتي ثم غادرت. عرجتُ على عدد من التجار والوراقين، علَّها قصدت أحدهم... ثم اهتديتُ إليها بعد أيام وقد صار اسمها خداوج، تستغل في تجارة الأقمشة وتمتلكُ ورشة للخياطة. أخذتني هزةُ الطَّرب. لقاءً بعد فراق ستين من يصدق.

بعدما بلغت المدينة، انشغل عنها الرئيس بالخروج إلى البحر، بينما اشتغلت في تجارة الأقمشة والخياطة لتسدد ثمن المتزل. مضت الأيام، تدافعت الزائرات على ورشة الخياطة في شارع السويقة، وانتظرن لرقية الماكينة، بعضهن تأهَّب منذ ليلتين، جلسن بعيون واسعة يراقبن، بينما ينزلُ القماش من الطرف الآخر وقد تمت خياطته. تناقلت خادمات القناصل وزوجاتهم الخبر فقصدنها.

كانت خداوج الفنساوية طلقة المُحِيَّا، باسمة الثَّغر، حسنة العשר. نادت مرَّة خادمتها ناظلة أمام الوافدات، أخذت ثوبًا خاطت جوانبه بالماكينة ثم جعلتها ترتديه. استعرضته، دارت حول نفسها دورتين ثم اقتربت منهنَّ. وضعـت أيديـهنـ عـلـيـهـ.

- أُنـظـرـنـ إـلـىـ الغـرـزـ؛ـ ماـ أـمـنـهـاـ!

- إنّه لشيء كالسحر!

ما إن غادرن حتّى خلعت ناظلة الثوب وشقته، حتّى تُعيد خياطته بيدها، خشية أن تنفلت الخيوط فجأة فيقع الثوب عن جسدها ويترّى. ضحكت إيزابيل عالياً بخلاة، جمعت ناظلة الثوب على عجل، خوفاً من غضب سيدتها وتظاهرت ببرّ الشياب.

- هات الزيت والعطر، ها ها يا لك من ساذجة يا ناظلة! ولجمت الحمام، رشت على جسدها أكوازاً من الماء المعطر... ثم خرجت تهبي نفسها للتلبية دعوة رقصي في دار القنصل السويدي.

لقاء فيكتور وخداؤج

انتظرت الليلة التي يُصيّب فيها القمر خسوفاً تاماً. غرفت المدينة في ظلام دامس، وخوف قاتل بعد أخبار عن اقتراب الأسطول الإسباني. بينما أسيّر، اندفع أمام وجهي فجأة سائل بفك مائل وظهر متوكّر، لم يحرك ساكنًا، لعنته وغيّرت الطريق. سرت بخفقة فوق الحصباء عند بيتها، نظرت حولي، لا أحد تعقبني. دلفت من باب نصف مفتوح في حماس متقد، مُرتدّاً العایك والعجار. أليست نظرة، ثم سرت نحو غرفة خداوج. بدت جميلة كمن يتهدّأ لمضاجعة. كدت أصرخ كما صرخ أرخيديس: وَجَدْتُهَا، وَجَدْتُهَا!

تأملتها في ثوب حريري أبيض، دون مرفقين، واسع الرقبة. خلعت أمامها العایك والعجار. لم تصدق عينيها، بعدما انقطعت أخباري. هرعت إليّ، ضمّنتي ضمة من يتمسّح بالخلاص.

- فيكتور، كيف تجري الأمور في باريس؟

- حروبٌ وإفلاتٌ حكومي وأحاديثٌ لا تنضب عن كنوزِ الجماجم.
أخفيتُ عنها أمر والدتها التي ترقد في مقبرة هردنبرج. تأملتُ
جسدها المدهون بالعطر، جدائها الشقراء، تسللت إلى جسدي مثل
قطّة فرنسيّةٍ تائهةً، كمجونةٍ تلثمُ رائحة فرنسا العالقة بي. تأوّهت
متوهجةً كفتاةٍ في السابعة عشرة. وهبّتها كتاباً.

- أشعارٌ فيرجيل، ما أسعدي بكمَا!

- أحضرتُ لك جرائدَ صادروها في الميناء...

- أما من سَيِّل ل تستعيدها؟

- كاد الأحمق يحرّك عنقـي. هذا كلـ ما نجـى، نسخـة قديمة لـ رحلة
القس الإنجليزي توماس شـاو، حين كان مـلـحـقاً بالقنصلـية هنا،
ستـحـيـنـها. أخبرـيـنيـ أـماـزـلـتـ تـكـتـيبـنـ الأـنـشـيدـ وـالـشـعـرـ بالـلـاتـينـيـةـ؟

- كان ذلك منذ وقت بعيد.

قالـتـ ذـلـكـ ثـمـ غـادـرـتـ وـهـيـ تـدـنـدـنـ أـغـنـيـةـ بـذـيـثـةـ. لـصـرـفـ نـاظـلـةـ
مـعـحـتـهـاـ سـلـةـ مـنـ القـشـ المـضـفـورـ لـتمـلـأـهـ بـالـبـيـضـ، وـسـلـةـ لـلـفـاكـهـةـ مـنـ
دارـ العـالـيـةـ فـقـدـ بـلـغـهـاـ أـنـ زـوـجـهـاـ يـعـودـ بـالـسـلـعـ إـلـىـ بـيـتـهـ ليـلـاـ.

قبلـ عـودـتـهـاـ، بـخـفـقـةـ قـمـتـ بـجـرـدـ مـكـتـبـهـاـ، بـحـثـاـ عـنـ أـيـ مـخـطـوطـ
سـرـيـّـ أوـ رسـالـةـ.

حينـماـ عـادـتـ أـخـفـضـتـ إـضـاءـةـ السـرـاجـ، أـخـذـتـهـاـ إـلـىـ وـأـنـاـ أـضـعـ
عـلـىـ رـأـسـهـاـ قـبـّـةـ مـرـيـشـةـ. تـبـادـلـنـاـ المـتـعـ الفـرـنـسـيـةـ بـلـاـ كـلـمـاتـ زـمـنـاـ لـمـ
أـعـرـفـهـ، حـتـىـ انـطـفـأـتـ جـذـوةـ كـلـيـنـاـ. اـنـسـحـبـتـ مـنـ جـدـيدـ تـتـفـقـدـ الـأـبـوـابـ
وـالـخـادـمـةـ.

حينـماـ عـادـتـ قـالـتـ:

- رغم أنّ الرّايس حسين حسنُ الخطّ، كثيُّر السفر إلّا أنّ مكتبةً لا تحملُ سوى بعض الكتب الشائعة.

وهي تصبّ كأسين من شرابٍ فرنسيّ قانِ:

- وماذا رأيت في داره أيضاً؟

- يملك الرّايس عينين مُضيئتين كعيني نابليون، أو الإسكندر. هذا النوع من الرجال لا يمكنُ خداعه يا فيكتور. أحاوُل الاقتراب منه فقط دون جدوٍ...

- ألا تعتقدين أنّ هذا لا يصلح لكتابته في تقرير؟! مع من يجتمع؟!

- مع عددٍ من الرّياض، لكنّهم لا يعقدون مجالس سريةَ أو مُناظراتٍ. إنّه مثل هذه المدينة تماماً، أقوى وأغنى مما يبدو عليه. استدنتُ منه ثمن منزلي هذا وتجارتي، أكتب ذلك وأكتب أنه أفرضني دون فائدة.

- دون فائدة!

وهي ترفعُ الأنفاس:

- أجل، صحةً، صحةً!

ثم راحت تروي لي كيف استدرجته واستعطفته لتتنزع منه عهداً بحمايتها، بينما أتلّوّي من الضحك. أحضرت دفتر الحساب قائلةً:

- اشتريتُ ولاء خادم مالطي، يعملُ في الديوان. أخبرني أن العادة تقضي أن يُعلن المبلغ الذي تم استلامه أو الذي سيتم دفعه بصوتٍ عالي في حضرة البشا والديوان. ليتم تسجيله في حضور الجميع. إليك المبالغ التي دخلت الخزينة آخر سبعة أشهر.

- يا لك من امرأة!

كمن يهديي قالت، وقد أفسد الشّراب صحوها:

- أشتاقُ صوت البيانو يا فيكتور، لا يعزفون هنا سوى بعض
الألحان الشّاز.

أخذتُ الكأس من يدها حتى لا تسرف.

- أمّا أنا فأشتاق إليك.

قربت الشّمعة مني:

- هل تغارُ... من الرّايس؟ اطمئنَ لم يقربن بعد باش المكافحة
سوى الأوروبيين.

أمرتها بكتابة أسمائهم. لعلّها أفضت لأحدهم سرًا في لحظة
سُكُرٍ، فردتْ:

- أضعُ اسمك أولاً ثم طيب القنصل، مسؤول الخزانة، وشاعر
غموم روما، حاول إقناعي بالسفر رفقة...

- لا يروقني خبتكِ!

- ييدو آنك لم تجلب جيزيلا الصالحة!

- في فرنسا، للعناية بمدرسة البنات.

- بلغني أنّ التّقيب صار رجلاً ذا منزلة عند بونبارت.
وقد قرأت ما في عينيها من خوف وشكّ، قلتُ:

- كلّ مَنْ يخدمُ الجمهورية ذو منزلة عنده. كما أَسَس نابليون
مجمّعاً علميًّا في مصر، سينشيءُ واحداً هنا وستنتقلين للعمل فيه...

- أتدرى؟ الشّوق إلى فرنسا ما دفعني إليك اللّيلة. هي كلّ ما
يستهويني فيك، أمّا أنت فلا تثيرُني، وما عدتُ أدرى، هل أهواكَ لأنّك

تُعيّدني إليها أم أكرهك لأنك من قِدْم بي إلى هنا؟ مرّت سَتْ سنوات
وكانَها دَهْرٌ. ياللي من امرأة تعسَّه!
منحتُها أربعِمئة فرنك وبعْض الستَّةِمِائة.

- هل تثقين في خادمتك؟
- بعْتُ خادمة إيطالية، واشتريتها بعد ما عرفتُ أنها ثقيلة السَّمع.
- من أين جاءتْ؟

- كانت ماشطة لزوجة عزيز أوغلي، تاجرٌ من أزمير. من حين
إلى حين تبادل الكؤوس، تتذَّكَر ناظلة أنطاكية، تقوم وتفك صفاتِها،
تُغْنِي، تهَزِّ أعطاها رقصًا، تُعِيدُ على ما تتناقله النِّساء عن الآغا الجديد
وحبه لقرصِ كل امرأة استوت أنوثتها، بأصابع يديه وقدميه. ظلَّ
يتکور بين أسرة المغنيات حتى عُزل.

- وكيف تثقين في ماشطة سَكِيرَة، ثقيلة السَّمع!
- أثارت الْرَّيب مرّة، تتبعتها خلسة وإذا بها تغادرني إلى فراش
رجل يطرق الحديد وينفخ الكير... لحظة، أحدهم يطرق الباب،
لعلَّها عادت.

غادرت بخطواتٍ مُتهادِية للحظات تصرفُ عجوزًا سائلة. منحتها
صاعين من القمح ورطلاً من التَّين المُجفَّف ثم عادت.

بونبارت المجنون

تأملتُ دارها، أغطيةً من تلمسان، زرابي أندلسية من قلعة بني
راشد، أكياس من القطيفة مُدبَّجة بالذهب، رقاع دعواتٍ من قنصليات
وعائلات نبيلة. رثيَت لحالها، أمرتها بعدم الانشغال بغير ما جاءت

من أجله. خشية أن أقع تحت سلطتها استعدتْ حذتي ونزمي، عبست ولم تفوه بشيء، تطلع بفتور، ووضعتُ الكأس جانباً. شرعت سترسلُ في الحديث عمّا حملته من أخبار.

- يخضع للخزنجيّ أجiran من اليهود... أحدهما العيار، للتحقق من النقود المشكوك فيها. والوزان الذي يزن ما يتسلّمه... أمدك بعنوان المقاهي التي يترددان عليها، إن كسبتَ ودهما ستعرف الكثير.

- ماذا عن الكنوز؟

- يُرسل خوجة القصر مع الخواجات، مفاتيح باب القصر إلى قصر البasha عند حلول المساء ويستلمونها مجدداً في الصباح. يمكن استغلال المفاتيح التي تتنقل إن رغبنا في التسلل.

- أحسنتِ صنعاً.

دونتُ منها وأنا أنظر إليها بعينين حانيتين. أمسكت يدها، انحنيت وقبلتها، ظلت تنقل بصرها بين عينيّ، ربّت ثوبها الأحمر المُوشى بالخرز بيد واحدة، قائلة:

- على القنصل إكرام آغا العرب، الخزندار، بيت المالجي، قهواجيّ البasha، وكيل الحرج، خوجا الخيل. وإرسال ترضيات لآغا الجيش وأغا الهلالين، لكبير الطباخين، وأمين السكة والأوچاق. الهدايا التي يحظى بها كلّ رجل ما يصنع لنا الأصدقاء!

وهي تضعُ على وجهها بعض الزينة:

- أتدرى؟ أحياناً يبدو لي الغزو مستحيلاً، وأنّ نابليون فقد عقله! وأنا أضربُ على فخذي، قفزت الدّماء إلى وجهي:

- بل يدلّنا على طريق المجد، ينشر الحضارة التي ستبيد العروش الفاسدة. يا لعظمته وسمّو نفسه. سارت الأمور طيلة سنوات على أحسن حال، وإن قضى أحدهُنا فإنما يقضي خدمةً لواجبه ببُلْ وشرفٍ. وضعَتْ رأسها بين يدها.

- أتصدق؟ تغسل الجواري الكنوز الذهبية والفضية، يصعد بها العبيد على السطوح لتجفيفها، بعضهن يترددن على الأتلية!

الحايك والعجار

حاول رجال القنصل كسب ودّ الأوروبيين المرتدين، وبعض العبيد السود، كحارس الباب الرئيسي للقصر، وحامل غليون البasha، وقائد الطّاسة الذي يحضرُ مشروباته، وقائد المقصورة الذي يعتني بمسكنته. كما حاولوا التّوّدّد لقائد العجيرة، حامل محفظة البasha، وحتى الباش فرّاش الذي يعني بمكان نوم البasha. صُمِّتْ عن الكلام وأبقيتُ الأمر سراً.

- لويس يا عمي العائد، أنت مُتحدّث لبُقُّ، طيب المعشر؟ فكن رجالاً ممتع الصّحبة للرايس حسين!

رغم امتلاكنا التّقاطيع الفرنسيّة ذاتها، لم يكن بيننا شبهٌ بينَ.

- حاولي التّوّدّد إليه. اختلقي أية قصّة أكونُ فيها عتمك العائد لويس لا بأس. وقد فشلتِ في إغوائه، ربّي لنا لقاءً دون أن تسأليه معروفاً أو مِنَّهْ فذلك أدعى للنجاح.

أحضرتْ صندوقاً خشبيّاً، مُطعّماً بالأحجار الكريمة والمرجان، يحمل أدراجاً كثيرة، مُزَينَة بمسامير فضيّة مطلية بالذهب والنقوش.

- جمعتُ عدداً من المخطوطات، تُسخن بعضها عن عائلات اشتهرت بالتألif مثل عائلة بن باديس والمقربي، في قسنطينة. وأخرى في تلمسان وبجاية. هذا مخطوط ابن القنفذ، في الحساب والفلك. مخطوطاتٌ قليلةٌ عن الطّب لابن الفشوش والشّغري والسنوسي. بعضها لا تكاد تُقرأ، أتت عليها الأرضَة.

- كيف حصلت عليها؟

- عن طريق الغلمان، أدفع للواحد منهم مقابل استعارة الكتب ونسخها وحتى سرقتها.

أخذتُ الرّقاع بعجلةٍ وارتديتُ الحايك والعجار. انزوتُ وهي تبحثُ في صناديق الغرفة عن شيءٍ ما. يومها ما كانت تدرِّي أنَّ لي أكثر من عينٍ في المدينة، وقد كُلْفتُ بتتبع أخبار الشّكنات السبع المُعسَّكَة. يدعونها هنا بالفشلات، قشلة باب عزّون، قشلة صالح باشا، قشلة علي باشا، قشلة أوسطه موسى، قشلة دار الدّرُوج، والقشلة القديمة والجديدة.

- أمّا هذه الرّقاع فتضمّن أخباراً عن قهواجيّ الباشا، البرّاح والباش سائس.

في القنصلية، كانت تُرفع تقاريرٌ شهريةٌ للحكومة عن أعضاء الديوان، الخزناجي، آغا الهلالين، وكيل حرج البحريّة، أمير البحر، الريّاس، قائد المرسى، وعن اثنين عشر بلوك باشي يحملون مفاتيح المخازن.

وأنا أسوّي الملاعة اللّفّ البيضاء جعلتها تسدل حتى كعبيّ، لعنتُ الحذاء النسائيّ.

عَدَلْتُ العجَارَ والخنجرَ عَلَى خصري ثُمَّ غطَّيْتُه.

- خُذِي هذه النقود أَيْضًا. أَغْدِقِي عَلَى الزائِراتِ؛ اجْعَلِي الورشة تكْبُرُ مثْل صَالوْنِ بارِيسِي، استَدْرَجِي خادِماتِ القناصلِ؛ أَمَا المخطوَطاتِ، فَأَرْسِلْ بائِعًا مُتَجَوِّلًا يُشْتَرِيهَا مِنْكَ وَسْطَ أَمْتَعْتَكِ الْقَدِيمَةِ، ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَيَّ ...

القتيل المجهول

- فاتَنِي أَنْ أَسْأَلُكَ عَنْ عَامِ الشَّرِّ، هَلْ نَالَكَ مَا نَالَ الْمَدِينَةِ!
- حِينَ أَصَابَتِ الْمَجَاجِعَةَ الْبَلَادَ، ارْتَفَعَ سُعْرُ الْقَمْحِ وَكَادَ يَنْدَمِدُ.
أَدْرَتُ الرَّحْيَ. طَحَنْتُ الْبَلَوْطَ كَدِيقٍ، أَخْلَطَهُ بِالْمَاءِ وَذَرَّاتِ الْقَمْحِ،
ثُمَّ أَكَوَرَهُ. لَا سِمْنَ أَوْ زَيْتَ لِأَبْسَسِهِ، أَلْقَيْهِ فِي جَوْفِ الْكَانُونِ ثُمَّ أَلْوَكَهُ
كَمْعَازَةً. أَتَسَاءَلُ، إِنْ بَقِيتِ الْمَجَاجِعَةُ أَشْهَرًا هَلْ يَكْفِي الْبَلَوْطُ؟ أَمْ أَنَّنِي
سَأَكُلُّ الْحَشَائِشَ وَالْلَّحُومَ الْجَيْفَ؟ بَعْدَ أَشْهَرٍ طَوِيلَةٍ أَمْرَ الْبَاشَا بِتَوزِيعِ
حَصْصٍ مُحَدَّدَةٍ مِنَ الْقَمْحِ ... ثُمَّ ... فَاجَأَنَا الْغَيْثَ ...
فَجَأَهُ وَضَعَتْ يَدِيهَا عَلَى فَمِي لِأَصْمَتَ.

- أَنْصَتْ، عَادَتْ نَاظِلَةً، أَوْ ... أَوْ أَنْ تَلْكَ الْعَجُوزَ السَّائِلَةَ قَدْ
رَجَعَتْ، سَأَتَبَيَّنُ الْأَمْرَ.

بَيْنَما كُنْتُ أَرَاقِبُ مِنْ عَلَى، انْقَضَ لَصَّ عَلَيْهَا، طَوَّقَهَا وَجَعَلَهَا
تَقْدِمَهُ كَرْهِيَّةً. تَبَعَّتُهُ فَوقَ السَّلَالِمْ، تَرَوَيْتُ، تَلْفَتُ كَالْمَجْدُوبِ،
أَمْسَكَتْ جَرَّةً ثُمَّ أَسْقَطَتْهَا عَلَى رَأْسِهِ، بِلَكْنَةٍ عَرَبِيَّةٍ تَحدَّثَ الْفَرْنَسِيَّةَ
بَعْدَمَا رَمَى بِبَصَرِهِ نَحْوِيِّ.

- سَوْفَ تُدْقُّ عَنْقَكَ أَيْهَا اللَّعِينَ!

في خمّارة هوش جلدينيز قضيّت ليلتي دون أن يطرفَ لي جفنٌ.
ذوّيُت في الكرسيّ، وانتظرتُ أخبار الصّباح. تقدّت للرّحيل بعيداً، لكن
كان ما يزالُ علىي أن أمر بداري باكراً لأحمل رسائلَ أسلّمها للمراسل
العسكريّ. حين قابلته، أخبرته ما حدث. أمرني بتأجيل رحلتي إلى
سيدي فرج ثم غادرتُ. كان الصّباح غضّاً، قمتُ بشدّ ركابي نحو
قسنطينة ثم القالة؛ حيث أكون في مأمن.

الاختفاء ثم العودة

انحدرتِ الشمس وحلَّ المساء. كانت الرياح ساكنةً ما جعل
السفن تنسابُ في هدوء نحو الميناء. قضيّت شهراً بعيداً، خشية أن
ينكشف أمرُ الجثة. ظهر في رأسي شعيرات شهباء، كرجلٍ أخنى
عليه الدهر وأهلكه. نظرتُ في أمور تجاريّ، وواظبتُ على حضور
القدس كلّما تيسّر، ثم بلغتني أوامر العودة.

حين بلغتُ الجزائر، انعطفتُ يساراً وقصدتُ داري. في حرّ آب،
ووجدتُ الحشرات مُتعفنةً داخل علبها الزجاجيّة. بينما أتفقد جسدي
الذي أهزله التّرحال، سمعتُ طرقاً خفيفاً، وإذا به حاملُ الرّایة العطن،
عثمان الملياني. أثار قدومه المفاجئ شوكوي، هل يتعرّضون؟ دعوه
إلى السهر مرّاتٍ عدّة، وما لبّى يوماً دعوة. هل جاء لإطلاق الدّعابات
الستّمجة أم لأنّه افتضح أمري؟ جعلته يرتشفُ مع القهوة مُنوماً، كممته،
كبّلته، حين أفاق استجوبته، ثم قتلتهُ ودفنتُ شوكوي. كانت المدينة
منشغلةً عنّا بالعيد الكبير. هل جاء ليُعايدني بسلامة الكعك هذه؟ لكن
أنا لا أحبّ الكعك. أفضّل قطع الكرواسون بالشوكلاتة الذائبة.

أشم رائحة لحم الضأن، إنه كتف خروف، تلوّت أمعائي جوعاً،
أكلت ثم فكّرتُ. أذبّتُ جلده بمحلول كيميائي قاتل، أخفى ملامحه.
قطعتها ووضعتها في أكياس الزبل. في الغد اشتريتُ عشرين خروفًا
أمرتُ بذبحها في صحن الدار وتوزيع اللحم على الفقراء. احتفظت
بأحشائهما وجلودها وعظامها، خلطتها بأحشائهما وألقيتها في باطن
وادي الزوبيا. نظّفتُ يديّ جيداً ثم ذهبتُ للكتابة.

لم أعدْ أتوّجسُ من سكّان المدينة وحدّهم، بل من أصدقائي
أيضاً بعدما عاينتُ الخسّة من أجل الترقية والمال. بقيتُ قلقاً خيفةً
أن تكون إيزابيل قد خانت العهد أو افتعلت أمرها. بينما أدركَ التّبع،
فكّرتُ في الإنجليز؛ قد يكونون وراء من يتعقبني، فليسوا غافلين عن
مساعي نابليون.

شرعتُ في تجهيز فرسي الجديدة، حين أقبلت إيزابيل تدقّ ببابي
مرتدية الحائك والعجار. سرعان ما أغفلتُ الباب وسرتُ يساراً،
بعدما سبقتني نحو مقبرة اليهود. لم تكن المقبرة مُسجّحة، فقط ترتفعُ
الأشجارُ حولها ووسطها مُرسلةً أغصانها الكثيفة. انحنىت خوفاً من
أن تتفقاً عيني. علق الحائك بأطراف بعضها فتمزق شيء منه، جمعتُ
أطرافه، ألصقتها بي أكثر فأكثر. سرنا جنباً إلى جنبٍ، مثل أمّ وابتها.
- التهمت النار جسده فضاع أثره. أغمي علىّ، فأيقظتني ناظلة
بنصف بصلة، ثم سقطتني الماء والسكر.

- ماذا حدث بعدها؟

- مرّ الحرير وكأنّه لم يحدث، بعدما سمعنا أصوات المدافع
البحرية، فصاح صاحب الناظور: لقد عاد الإسبانيول!

- بلغني أن الهجنة الإسبانية فشلت، أجل. أخبريني، هل قابلت الرئيس حسين؟

- بعد أسبوع من الحريق، كان قادماً من الريف وقد فرغ من رحلة صيد. أقبل في كامل درعه، على صهوة جواد يقذف بحواره التراب قدفاً. أقيمت نفسي في طريقه أستجديه التمهّل والنظر لحالى، كاد يرفسني، تكاثر المحتاجون، رفع الجواد قائمته الأماميتين، بعدهما تلقى ضربةً من الرئيس. ترجل، رفع يده وأمر مرافقه بالنظر في حاجتنا. طلبت أن يديننـي مبلغـاً من المال بعـدما احـترق مخـزن الأقمـشـة.

- وأدانـك؟

- أوـمـا لـمـرـافقـهـ بـالـموـافـقةـ.ـ أمرـبـالـمالـلـلـمـحـتـاجـينـ ثـمـ غـادـرـ.ـ منـعـنيـ حـارـسـهـ مـنـ اللـحـاقـ بـهـ،ـ منـحـتـهـ الـكـثـيرـ مـنـ الفـرنـكـاتـ لـكـنهـ أـعـادـهـ إـلـيـ قـائـلـاـ أـنـ الرـئـيسـ يـتـجهـزـ لـلـإـبـحـارـ.

- أـلـمـ أـخـبـرـكـ أـلـآـ تـسـأـلـيـ مـعـرـوـفـاـ أـوـ مـنـةـ فـذـلـكـ أـدـعـىـ لـلـنـجـاحـ!

- وـأـنـتـ إـلـىـ أـينـ ذـهـبـتـ؟ـ وـإـلـىـ أـينـ سـتـذـهـبـ؟ـ

- لـيـسـ عـلـيـ أـنـ أـخـبـرـكـ.ـ أـنـتـ أـكـثـرـ أـمـانـاـ هـكـذـاـ حـينـ تـعـلـمـيـنـ القـلـيلـ.ـ لـمـحـتـ عـرـيـةـ تـقـتـرـبـ؛ـ سـرـّـعـنـاـ الـخـطـىـ نحوـ مـقـبـرـةـ لـلـمـسـلـمـيـنـ بـمـحـاذـاتـنـاـ،ـ رـقـدـتـ عـنـدـ قـبـرـ حـدـيـثـ حـزـنـاـ،ـ تـعـالـىـ ضـجـيجـ العـجـلـاتـ ثـمـ تـوـقـفـ.ـ أـقـبـلـ الـجـبـاشـيـ،ـ حـارـسـ الـمـقـبـرـةـ،ـ مـنـحـتـهـ بـعـضـ الـفـرنـكـاتـ قـائـلـاـ قـبـلـ أـنـ يـسـأـلـ:ـ هـذـهـ صـدـقـةـ يـاـ أـخـيـ،ـ وـقـدـ أـنـسـتـنـاـ مـرـارـةـ الـمـوـتـ سـلـةـ الصـدـقـاتـ.

الطريدة

أظلم المساء بينما كنتُ عائداً. وصلتُ إلى مسامعي نحنحةٌ قريبةٌ
ثم صياحٌ: «أنظروا إليه، إنه هناك». واللّاعب يتطاير من فم أحد هم
قال: «الحقوا به!»

بدأ الصوتُ يتعالي، ظهر أربعة رجالٍ، طاردوني بضراوة. شرعتُ
أركض وأركض. تخلّصتُ من الحایك تحت الظلام. اخترتُ طريقاً
معاكسة. وثبتتُ وثبةً دخلتُ بعدها إلى سوق النحاسين القديم.
ارتفاعتُ أصواتُ الدق والحرف وأصوات الصناع والغلمان والعبيد.
اختبأتُ لاهثاً بين الأدوات المرصوصة وكأنني زبونٌ يتقدّم بضاعة.
خيّأتُ رأسِي بين القدور والصوانِي وقوالب النسخ والتكرار.
قررتُ المبيت في خرابه.

أطلقتُ اللعنات والأسئلة. من يلاحقني؟ يعملون لحساب من؟
فأنا لم أتلّق أمراً بالطرد من الجزائر؟ علاقتي بالعثمانيين ممتازة. من
هذا الذي يريد أن يثبتَ لي أنني تحت ناظريه دائماً؟

أيُعقلُ أن يكونوا على قرابةً بذلك الرجلِ الذي قتلتُه وأحرقتْ
جثته في مخزن الأقمصة؟ أو بحامل الزراعة عثمان الملياني؟ من كان
أولئك الرجال الأربع؟ إخوته، أصهاره أم أبناءه؟ أم أنهم يعملون
لحساب أحد التجار؟ التجار العثمانيون؟ العرب؟ أم اليهود؟ أم
الأوروبيون؟

يومها نجوتُ بأعجوبة. مررت أيام بلغتني فيها رسالة جديدة من
المراسل العسكري. وضعتها تحت العدسة المكبّرة. ثم فرأتُ بأنّ
سفينةً فرنسية تنتظرني على بُعد أميالٍ من سidi فرج، بعد عشرة أيام،

عليَّ التسلُّل خاللها إلى الميناء وتفقدُ التّحصينات قبل العودة بالتقرير الأخير.

التسلل إلى سيدي فرج

مرّ عليَّ أكثر من عشر سنواتٍ هنا، قبل أن أبلغ ميناء سيدي فرج. نزل الإسبان قبل اثنين وسبعين سنةً في عين التّرك. بعدما أرسلوا عدداً من سفنهم إلى خليج أرزيو شرقيّ وهران لتشتيت الأسطول الجزائري. انطلت الحيلة عليهم وتمكنوا من الإنزال. يومها كان الإسبان الذين استولوا على المدينة أذكي من الفرنسيين الذين حملوا لهم الإمدادات والسفن الحرية. فوقع منا أسري وقتلى. فهل ستتمدّ لنا إسبانيا يد العون عندما يقرر بونابرت مكان الإنزال؟

اعتذرُ عن دعوة للرّقص وصلتني مع سادة باريس وسيّداتها. تخلّصتُ من كلّ وثيقة مختومة. في صباح مدلهمَ اختبأْتُ في عربة للقش. «باسم ربِّ الرحيم» طلبتُ الحماية، بينما قادها حوذى يشتغل في تهريب البضائع والبنادق.

كان عبداً أسودَ عاش في المدينة أربعين عاماً ونيفاً. أقنعتهُ آنني مهربٌ جلود له أعداءً يقتلون أثره. أخبرني أنه كان عبداً، إلى أن حرّره سيدٌ كان من أغنياء غراسة النخيل، يُبادل القمح بالتمر،... وأنه على دفعِ الكثير من الفرنكـات ليريوي لي بقية قصته أثناء الطريق... فدفعـتُ! انطلقنا، خلفي تركـتُ الرجال السـاهرين حول الأسوار المستنة والمـتاريس. لم أتبينَ أي طريق اختار، نـكـستُ جسدي أسفل العـربـةـ. أزـحـتُ بعض القـشـ طـلـباً للـهـواءـ. بعد ساعـاتـ توـقـفـناـ فيـ مـكـانـ يـسـمـيـ

الأربعين. رأيت نسوة يغسلن الصوف في الساقية، وجنوداً يجبرون الفلاحين على دفع الخراج لهم. كسر الزنجي سيقان الحشائش، وأخذ يلوكها. سار خطوات أخرى بحثاً عن حشائش غصة. ملأ سلة قائلة: «انظر إلى هذه العصارة الخضراء التي تنبثق من السيقان والأوراق عندما أكسرُها».

تفقدتُ الحقول والبساتين على مدار البصر، وكأنها قطعٌ من رقعة شطرينج كبيرة. تنحنح لتصفية حنجرته.

- لا تنظر إلى هكذا، لست البasha لأجعلك تأكلُ وتشربُ ما للذ وطاب. ألم تُعجبك العصارة الخضراء!

اصطاد عدداً من الأرانب، ووضعها في قفصٍ من القصب، وغطاه بأوراق من بقلة الخطاطيف. سرنا مبعدين. أوغلنا بعد ثلاثة أيام في سطاوالي ثم بلغتُ سيدي فرج. أضاء القمر المدينة الصغيرة والميناء. توّقفنا في كوخ نصف مسقوف، بينما يقضم الحصان العلف ويلوكيه ببطء، تفقد الزنجي قفة طعامه الفارغة، وقص الأرانب الخاوي.

- لقد نفذ اللحم المُقدّد والطري. ولم يبق سوى أوراق بقلة الخطاطيف!

- أهبك ثمن مئة رطل، إن أخبرتني هل المكان آمن؟
- هاء هاء هاء، أيها الغريب الطيب، التلال هنا خاليةٌ من الحراس والمدافعين.

- كيف يصدّون الهجمات البحريّة؟
- عندما يُعلن النّفير يجتمع الرجال من القبائل المجاورة. يحاربون مع المدد. تنتهي المعركة، فيعودون أفواجاً إلى حقولهم. أما

أنت فيهِمْكِ السوق لا البحر. لا تقلق هي آمنة تخلو من اللّصوص،
لكنّ أخبرني، أتبّعُ الجلود أم تشتريها؟ هاهاها. آه، لا شيء في عربتي
سوى التبن وبعض البنادق، لذا حتماً تشتريها!

- أشتريها بثمنٍ وأعيد بيعها بضعفه.

- وكم سعر البنادق؟ هاء هاء هاء، أقصدُ الجلود؟

- لا أدري بعد. أخبرني بكم تعود بي؟

- بمئة فرنكٍ، أنتَ وجلدك الأبيض هذا. ومئة فرنك آخرى
لحُمُولتك. لم تُخبرني هل تشتري بنادقَ أيضاً، لدّي بنادقٌ فرنسية
جيدة وكأنها إنجليزية هاهاها؟

مددتُ إليهِ خمسين فرنكاً ثم همتُ بإعادتها إلىي، أمنعُها عنه. مدّ
يدَه وسحّبَها من بين أصابعِي قبل أن أجعلها أقل. وبين شفتيه ابتسامة
ظفر وهو يتحسّسُ الشّقوقَ أسفل قدميه:

- انتبه لقيّة ما تحملهُ من المال يا صديقي. المال مهمٌ هنا. لو
كنتُ أملكُ ما يعادلُ كرسي الباشوية لاشتريته وأرحتُ نفسي هاهاها،
وما كنتُ بحاجةٍ إلى فرنكاكك. لكن لا أملك غير هذه العربة.

- أشتري المال كرسيّ الباشوية؟

- يقولون هذا هنا وهناك، ويقولون أشياء أخرى هاهاها!

- حدّثني بها ولّك خمسون فرنكاً.

- قبل سنواتٍ كان رجال الدّيوان وغيرهم، يذهبون إلى هناك...
بعيداً، ويشترون منصب البasha، سنةً، سنتين، ثم تمدد إلى ثلاثة أو
أربع أو أكثر. بينما كان جدي لا يستطيع شراء حصانٍ جيد. بل حتى
آنه لا يستطيع شراء التبن لبغله السيئ. كان يملك بغالاً سيئاً مثل بغلٍ

هذا. إنّه حصانٌ نحيلٌ لذا أدعوه بغلًا هاهاهًا. آخْ يا جدي، لم يتغيّر الكثير هذه الأيام. تمرد الوجهُ لأنّهم يملكون المال، ثمّ تمرد رياض البحر وأعادوا البشا الذي أرسله السّلطان من حيث جاء. وصار الرجل الذي يملك المال يشتري كرسيّ الباشوية منهم هنا، بعدهما كان يشتريه من هناك هاهاهًا. أرأيَتْ يا صديقي، الذين يملكون المال مثلّك يثورون أيضًا، لأنّهم ساخطون، في أعماقهم هم مثلنا نحن تمامًا، نحنُ الذين لا نملك شيئاً. نثورُ ويثورون هاهاهًا.

ثمّ قام وأصطاد أربعة أرانبِ، سلّخها بخفة، شقّ صدر الأول، ألقى بأمعائه الخضراء أرضاً ملفوفةً بشحمةها، ثمّ فصل القلب والكبد. شقّ بطون البقية، أضرم النار وأخذ بشويها على السفود. أكل اللحم، التقط كلّ ما تساقط أرضاً، امتنّ العظام ومصّها.

- إنّها طريقة، لماذا لا تأكل؟ آه، ييدو أنّها انتهت، هاهاهًا، ما دمت لا تملك ثمن أرنبٍ. يالك من بخييل، لماذا لم تدفع لتأكل؟
كنتُ جائعاً لكن اكتفيتُ ببعض الخبز اليابس والماء. حين نفذ بدأ يفكّر، شقّ طريقه يساراً.
- هذه بئرٌ قاتلةُ، احترس.

- نتقدّم ونُلقي نظرةً؟ أم أنّك لا تملك شجاعة النّظر إلى الأسفل؟
- من؟ أنا؟ أنا لا أملك الشّجاعة، هاهاهًا، نظرتُ إلى الجحيم
فكيف لا أنظرُ إلى الأسفل!

اقتربنا معاً، تقدّمني، سرتُ خلفه، اقتربتُ منه خطوتين، ثمّ دفعته بقوّة نحو الهُوّة، فانقطعت ضحكته.

في سيدي فرج

قضيتُ الليلة في نزل صغير. في اليوم التالي بحثتُ عن سماكين المدينة وصياديها الذين يعرفون الساحل جيداً. سلكتُ طريق السماكين، حيثُ يتصادرون بملء أشداقهم لعرض بضاعتهم. رأيت صبياً ممسكاً بالحنكليس، مزيناً صدره بصفات بحرية. اشتريت رطلاً من السمك المملح ثم واصلت. قضيتُ نصف يوم أرافق السوق، وأسراب الطيور تحطّ وترتفع. لفتني صياد متقوس الظهر، بصلعة ولحية كثة ومزاج رائق، طرّ عقله، لن يلفت مقتله أحداً. يُشاع أنه ممسوسٌ منذ سنوات بعدهما خرج إلى البحر ليلاً قبل أن يبلغ السابعة. أحرقت أمّه الكثير من الملح وكتبت التمام لتشفيه من الأرواح الشيرية التي تسكنه لكن ذلك لم يجذّنفعاً. رأيته شاكاً خمس سمكاتٍ بخطافٍ كبيرٍ، بينما يحمل الأحجار إلى مكان أبعد. جلس وركبته مثلثان، يتقدّم سنانير الصيد. بدا أبلها بضم معوج. اقتربت أكثر فبدا رأسه كبيراً قياساً إلى جسمه. اشتريت أسماكه ثم قمت بمدّ حديثٍ معه. أصلحتُ رفقة شبكة الصيد، دون أن ينبس بكلمة واحدة. عرضتُ عليه مالاً يكفي لشراء قارب جيد وشبكة صيد مقابل أن يصحبني معه مرّة. غادرتُ حين رفض طمعاً في المزيد. ليتها أضرمت النار في مستودع للذخيرة على بابه حارسٌ خمسيني يغطّ في النوم. تسللتُ بملابس عامل شحن، فالعامل هنا من كل النحل والأعراق. سبب الانفجار هزةً قويةً، أحرقت سبعة قوارب صغيرة وثلاثة بحارة وهشمّت الرّصيف. في الغد عُدتُ إلى ذلك الشيطان المعتوه، عرضتُ عليه الإبحار بي لنصف ساعة فجراً مقابل عدٍ

من القطع النقدية الذهبية فوافق، لأن حريق الميناء سيجعل الأسعار ترتفع!

رغم ما أشيع عنه بدا مُتقدّم الذهن. عرض على قضاء الليلة رفقةه مقابل بضع فرنكات فوافقت. سرت نحو بيته التّعس، لمحت زوجته، بدت تنتظر طفلاً بعد شهر أو شهرين. ثم اختفت عن ناظري. أخذ يسرد لي بلکنة إسبانية حكايات جده الذي كان يدعى على الإسبان فيصير الخبز حجراً في أفواههم. تسقط صواري سفنهم ثم تقلب بهم. ثم راح يتحدث أمام طبق من العصيدة وبوادي سمك مملح عن القوارب القديمة والسفن الغارقة والعفاريت والجان الذين يحكمون النصف الآخر من البحر. يقف برها ثم يواصل السرد وهو يتمطّق بيلسانه. بعد ساعة مدد أصابعه مدمداً، وأطفأ فتيل الشعلة. ثم نام وفمه مفتوح على اتساعه. لم أنم، بقيت أقلب عيني في محجريهما، بصدرِ مُنقضٍ يعتريه ذعر قاتل. أستعيد حكايات قديمة لجواسيس تم ربط أجسادهم إلى المخلعة، تمطّها حتى تنخلع أعضاؤهم.

قبيل الفجر وضع قطرات من السم في القدر وجرار الماء ثم ركبت رفقةه القارب. قفز بخفة ورائي وجلس مجذفاً. هذه هي سيدتي فرج إذن، وهذا هو ساحلها، وذاك هو الميناء. شبه جزيرة تمتد نحو البحر على مسافة نصف فرسخ أو يزيد، لها ساحل رملي، بعده منطقة شاسعة مغطاة بالأحراش. انطلق الرجل بعيداً عن اليابسة، منسابة مع التيار ورياح مواتية. كان ثمة أصوات تتحرّك في العتمة البعيدة. أخذ يروي قصصاً عن بق الماء والطاعون وحيوان السعلاة، ثم يحدّث في سطح الماء بينما أحواهُ تفقد التّحصينات. شعرتُ آنني محظوظٌ

لأصل إلى هنا، ولو أنّ زملائي علموا سيستعر الحقد في داخلهم
وستشتعل نارُ الغيرة.

ظلّ جسدي يرتعش ويترنّح فزعاً. سمعت فرقعة طلقات على
بعد أميالٍ، لم نعلم سببها. قال الصياد: «إن أطلقت السفن القذائف
لا تنظرُ إليها فتغشى عيناك، بل أغلقهما». عكس ما قال فتحت عيني
على اتساعهما. رأيت بعض السفن الكبيرة مغادرة وما يفوق العشرين
مركباً بين مؤخرة المرسى ومقدمته. بعضها للحراسة والصيد وبعضاً
الآخر لإزال البقايا والغنائم. شرقاً أبصرت مع بدايات الضوء
الكثير من الجياد، تحمل الأنقال وتشد العتاد مجتمعةً، بينما لا أثر
للتوصيلات القوية!

بدت لي سفينة باتو ناف، تشحن القمح للجيش. لم تكن أعداد
الرّياس يومها غفيرةً. سفنٌ أخرى بدت لي على وشك الإرساء، رافعة
الأعلام ثلاثة الألوان، واحداً على كل سارية. تمايل بنا القارب
واهتزّ، بعدما بدأت ريح عضوضٌ. أخذ الموج يرجنا من كل جهة.
جلستُ مقابلاً له على مقعد التجديف. ارتفعت الشمس في كبد
السماء. اختفت الأضواء التي تجوب البحر. شرعت الطيور تحلى
أسرايا فوق القارب بشكلٍ مُريب. رفعت بصرِي أتفقدُ الساحل من
جهته الأخرى. أخرجت عدستي المُنكبة. صار بإمكانني الرؤية
لأميالٍ. سألني: ما الذي تفعله؟ لم أردّ. دفعته إلى الاتجاه شرقاً وغرباً
إلى أن ضاع بنا المركب. أخرج المجاديف لتعديل اتجاهه، لكن ذلك
لم يُجد نفعاً.

- علينا العودة من هنا أيها الإسباني.

لم أرّد عليه.

- كنت أظنك رجلاً طيباً!

- أنا كذلك، لكن أشعر بالدوار، لذا لا أقوى على الحديث!
حرّكت العدسة المكبّرة شرقاً فرأيت سفينه من كوبنهاجن وأخرى
من السويد تحاول الرسو. واصلنا الانجراف حتى بلغت السفينة
الفرنسية التي ظلت تتّظرني شمّالاً. فرك عينيه مرتين ثمّ نظر. قمتُ
بحجز عنق السمّاك قبل أن يطلب الاسترخاء أو يحاول خداعي، غرّغر
ثمّ هدا، سقط رأسه في الماء، بينما سقط جسده على أطرافه الأربع
داخل القارب. دفعت بقية جثته، تناهت غرغرته الأخيرة إلى أعماق
البحر فلم يسمعها أحدُ.

أخافني نعيب الطّيور المتزايدة فوق رأسي. أ تكون اللعنـة قد
حلـت بي لأنـي قـتلت رجـلاً طـاعـناـ في الـبـؤـس؟ تـذـكـرـتـ الـواـجـبـ الـذـي
أـمـلـىـ عـلـيـ ذـلـكـ فـهـدـأـتـ. اـرـفـعـتـ الـأـمـوـاحـ، اـنـسـابـ الـمـاءـ بـارـدـاـ نـحـويـ.
غـسلـتـ يـديـ مـنـ الدـمـاءـ. قـلـتـ فـيـ نـفـسـيـ يـوـمـهـاـ، تـنـزـلـ هـنـاـ، ماـ سـيـجـبـنـاـ
مـوـاجـهـةـ مـاـ يـزـيدـ عـنـ اـثـنـيـ وـسـبـعـيـنـ قـطـعـةـ حـرـبـيـةـ كـبـيرـةـ الـحـجـمـ. وـيـعـفـيـنـاـ
مـنـ مـوـاجـهـةـ مـاـ يـزـيدـ عـنـ مـئـةـ وـأـرـبـعـيـنـ سـفـيـنـةـ مـتوـسـطـةـ، وـأـكـثـرـ مـنـ ثـلـاثـيـنـ
أـلـفـ بـحـارـ مـنـ الـرـيـاسـ وـالـرـجـالـ الأـشـدـاءـ.

أـرـسـلـتـ الإـشـارـةـ، أـنـزـلـ سـلـمـ السـفـيـنـةـ وـصـعـدـتـ. مـرـرـتـ كـفـيـ
وـتـحـسـسـتـ سـطـحـ السـفـيـنـةـ، شـعـرـتـ بـضـرـبةـ قـوـيـةـ هوـتـ عـلـىـ رـقبـتيـ.
أـغـضـبـتـ عـيـنـيـ عـلـىـ الـعـتـمـةـ. هلـ رـكـبـتـ السـفـيـنـةـ الـخـطاـ، وـوـقـعـتـ فـيـ
يـدـ أـعـدـاءـ؟

التقرير الأخير

عالجني طبيب القنصل من آثار الصّربة التي تلقيتها خطأً. بعدها ظنَّ أحدُ البحّارة أتني عثمانيّ يحاول التسلّل إلى السفينة. أعطى القبطان العسكريّي أمراً بإزالة السُّلْم، وبقي مُنزولاً في غرفة سرية بعيداً عن الأنظار.

على متن سفينة بلي دو أور عدتُ إلى مدينة الجزائر، وأنا مسكونٌ بسُكّرات المعجزة أكتُم صيحة البهجة. شرعتُ في كتابة تقرير عن رحلتي. فكرتُ، كيف لي أن أرسل الرسالة ذاتها مررتين، لضمان وصول إحداها إذا ما تعرّضت أخرى للتلف أو السرقة، دون أن ألفت انتباه أحد.

أبحرت سفينة رويداً قبل أن أفلح في الوصول إلى المراسل العسكريّ الذي تمت ترقيته. في انتظار تعين مراسل جديد راح أفكّر في طريقة آمنة. اشتريت أسيراً وحرّنته، حلقتُ شعره، على عظم الجمجمة رُحْتُ أحفر الرموز. انتظرتُ ل أيام حتى ينمو شعره مجدداً، ويختفي المخطط. بعد فترة رتبُ للسفر، في عرض البحر اندلعت معركة فقتلته خشية أن أنجو ويقع في الأسر، فيصير عبداً من جديد، يحلقون شعره فينفضح أمر الرسالة. خمدت النيران واضطررت سفينتنا للعودة إلى الميناء. نجينا من القرابنة الإسبانيين بأعجوبة.

بقيت أياماً أبحثُ عن طريقة آمنة. من شدّة التعب غفوتُ.رأيت حلمًا سيئاً، ألقى الريّاس القبض علىي، أخذوا مني التقرير، ووضعوني في سجن القلعة. أفقـتُ من الكابوس أتصبـبُ عرقاً. واصلتُ التفكير،

سرعان ما اهتديتُ إلى نقش الرّسالة على قطعة نقدية، سارعتُ بتسليمها، في انتظار أن أبلغ مارسيليا وأكتب التقرير كاملاً ثم أسلمه. أثناء الرّحلة، أتفق المُراسل الجديد القطعة في غفلة منه. بعدما وضعها مع ماله، حتى لا يثير شكوك أحد. هكذا انتقلت من يد إلى يد، ومن سفينة إلى سفينة حتى ضاع أثراها في مارسيليا أو طولون. استدعاني القنصل، بينما حُوّل المراسل إلى المحكمة العسكرية.

استسلام الرئيس حسين

في منتصف الرّبيع دوّت مدافع هزت الأسوار. اختفت الطيور وارتقت سحابة سوداء تتقدّم نحو الساحل.
- لعلّهم عسكُر النّصارى من الهولنديين أو الإسبانيول أو الفرنسيس أو الأميركيان... يحاولون غزونا مجدداً.

لم تكترث إيزابيل لما يُقال أو يحدث، وما إن توقفت المدافع حتى بلغت دار الرئيس حسين على أطراف المدينة. تسلّلت من باب الحديقة الخلفيّ. رأته وهو يرهف السّمع لتتبع حركة الطّرائد. حيثُ، تهليّ وجهه، ألقى قربة الماء وتحول من مجلسه واقفاً، يتفحّصها وكأنّ على رأسه الطّير. قال:
- من أنت؟ وكيف دخلت إلى هنا؟

كشفت عن وجهها وهي واقفة عند جواهه. استجمعت عزمها وأخذت تداعبه، استكان لها. بعينٍ يقطّأ واصل مراقبتها. ارتفع الثغاء حولهما، ركضت الحملان. مررت يدها على السرّاج، تفقدت قائمتيه الأماميّتين، وبخفة ثبتت على ظهره. ظلت تمسد شعره بيد واحدة

وَتُمْسِكُ بِأَخْرَى الْلَّجَامِ. فِي رُوَيْةٍ تَجْعَلُهُ يَتَقدَّمُ خَطُواتٍ نَحْوَ الْأَمَامِ، ثُمَّ يَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهِ. خَفَضَتْ صَوْتَهَا قَائِلَةً:

- جَئْتُ لِتَسْدِيدِ دُبُونِي الْقَدِيمَةِ أَيَّهَا الرَّاهِنُ. انْحَنَتْ عَلَى رَقَبَةِ الْجَوَادِ وَكَانَهَا تَهْمَسُ فِي أَذْنِهِ. بَقِيتْ تَسْبِيرُ بِهِ الْهُوَيْنَا، ثُمَّ جَعَلَتْهُ يَسْرُغُ بِبَصَرِيَّةِ خَفِيفَةِ. بَعْنِقِ مُشَرَّبَيْهِ رَاحَ يَرْكَضُ. تَأْمِرُهُ فَيُبَثُّ عَالِيًّا فِي الْهُوَاءِ، يَرْفَعُ قَوَائِمَهُ الْأَمَامِيَّةَ ثُمَّ يَنْزَلُهُمَا أَرْضًا. وَقَعَ طَرْفٌ مِنَ الْحَايِكِ جَانِبًا، انْكَشَفَ فُسْتَانُهَا الْمُخْمَلِيُّ وَحْذَاءُ الرَّكُوبِ الَّذِي تَتَعَلَّهُ. اسْتَدَارَتْ ثُمَّ عَادَتْ مَجْدَدًا.

دُهْشَ الرَّاهِنِ لِقَدْرَتِهَا عَلَى تَرْوِيهِهِ. دَعَاهَا إِلَى فَنْجَانِ قَهْوَةِ تُرْكِيَّةِ. انْحَنَتْ إِلَى الْأَمَامِ بِلَبَاقَةِ عِرْفَانَاهَا، وَأَجَابَتِ الدُّعْوَةِ.

- كَيْفَ دَخَلْتِ إِلَى هَنَا؟

- مَعْذِرَةُ أَيَّهَا الرَّاهِنُ، تَسْلَلْتُ حَتَّى لَا يَرَانِي حَرَاسُ مَحْتَاجَةِ تَسْأُلِ الْمَعْوَنَةِ.

أَمْرَلَهَا بِالضَّيَافَةِ، ثُمَّ غَادَرَ لِأَمْرِهِ. دَسَّتْ يَدَهَا فِي صَدْرِهَا وَأَخْرَجَتْ زَجاَجَةَ صَغِيرَةَ، وَضَعَتْ مِنْهَا قَطْرَتَيْنِ عَلَى فَنْجَانِ قَهْوَتِهِ. أَقْبَلَ عَائِدًا وَالْمَائِدَةَ عَامِرَةً. صَرَفَ الْخَدْمَ، وَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَقْبَضِ سِيفِهِ. انتَرَعَهُ وَوَضَعَهُ جَانِبًا.

اَرْتَشَفَ الْقَهْوَةَ ثُمَّ شَمَرَ عَنْ ذَرَاعِيهِ وَرَاحَ يَتَناولُ الطَّعَامَ. مَضَغَ لُقْمَتَيْنِ ثُمَّ تَوَقَّفَ. أَخْذَا يَتَبَادَلَانِ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ رَدْحًا مِنَ الزَّمْنِ. سَرَعَانِ مَا رُفِعَتِ الْمَائِدَةُ وَأَقْبَلَ الْمَسَاءُ.

أَحْسَسَ الرَّاهِنُ بِحَمْىٍ غَرِيبَةٍ تَجْتَاحُهُ. وَهَنْتَ قَدْمَاهُ فَرَفَعَهُ الْمَرَافِقُونَ إِلَى مَخْدِعِهِ. أَرْسَلُوا فِي طَلْبِ طَبِيبِ الْجَيْشِ، باشْ جَرَاحٍ، لَكِنَّهُ رَفَضَ

استقدامه. ثم أمر باستجلاب الطبيب الفرنسي أو الإنجليزي. تغيرت قسمات وجهه، بدأ يتنهد ويئن، جف حلقه وغارت عيناه.

طلبت إيزايل من خادمه أن يجعله يجلس متنينا ليتجرّع دواء فرنسيًا اشتراه صباحًا من الميناء، بانتظار وصول الطبيب. بينما يُجفّون عرقه رأت النّدوب التي خلّفتها المعارك، عضلاته المفتولة وذراعاه القويتان. تجرّع الدواء المر على مضمض، ثم انصرفت. مضت أربع ساعات قبل أن تنخفض حرارته فرقد. تنبه في نومه عدة مرات. وفي كل مرّة يفتح عينيه يرى الخادمة جالسة ممسكة طبقاً نحاسياً، تخلط عليه الأعشاب المغليّة وتصنّع المشروب فيخالُها الفرنساوية.

- التعرق مؤشر جيد دعوه ينام.

في صباح الغد تماثل للشفاء قبل وصول الطبيب. دبت الحياة في أوصاله. حين زارتة إيزايل خصّها بكرمه.

- يبدو أن والدك كان حكيمًا أيضًا!

- كلاً أيها الرئيس. أجيد شراء وصناعة المعاجين والأشربة، ووضع الضمادات والأدھان، لأنني أقرأ لكل من ترك تأليفًا في الطب.

- المعدة بيت الداء. يبدو أنني أسرفت في تناول الأطعمة. لك أن تطلبني ما تريدين كجزاء لك.

- فعلت ما يُ命ّله الواجب. وما أتيتك إلا لأردّ ديني نقداً.

أمر الرئيس لها بخادمة تجيد الخياطة والطبيخ ومخض الزبدة ووضع العلف وربط الدواب وصناعة الصلصال. كما تُجيّد ضفر الصفاصاف والقصب والبُوّص. ثم أعفاها من دينها القديم.

- بل أطّلبي وسيُجاب طلبك.

- عاد... عمّي، السيد لويس ديتريتش وقد نجا بأعجوبة صار يبحث عن يدينه مبلغًا يصلح به أمور تجارته.

حين عادت أرسلت لي خطاباً غامضاً لا يحمل سوى جملة واحدة باللاتينية، «سقطت دار السفن». قرأتُ الخطاب مرتين ثم أدركتُ ما ترمي إليه. أغلاقت عيني وأنا أغالبُ الضحك. هتفت بهجةً، «سقط الرئيس حسين... سقط الرئيس حسين!»

خادمي حسن

قرعت الطّبول، ونفع في الأبواق. نادي المنادي بعودة الرئيس حميدو منتصراً، بصوتٍ رنانٍ مجلجل. علت الهاماتُ وسارت فرقُ الخيالة نحو الميناء احتفاءً بالرئيس العائدين. كنتُ جالساً في أحد مقاهي المدينة. أسمعْ، أتقضىْ، وأنظر أوامر المغادرة. قلتُ:

- لقد عادت إحدى السفن دون رايتها.

- إنما تلك علامه لفقدان القبطان يا سيدِي.

ردَّ حسن. خادم زهيد لا يتعدى أجراً بضعة فرنكاتٍ في السنة. اتخذته كعينٍ لي قبل أسبوعين. فليذهب الرئيس وسفنه إلى الجحيم. لا أريد لحسن أن يذهب إلى الجحيم معهم، فهو خادمٌ جيد. استعنتُ به لمعرفته بالمدينة. يتداولُ الأحاديث مع الجميع. يجلسُ في الحمامات والمcafهي والأسواق.

صار صاحباً لي وقد ألفته؛ فأكاد لا أفارقه، يقوم على خدمتي رغم أنه أحياناً يتصرف كبلغ حرون. أرسله إلى الفرن، إلى السوق، ثم يعود حاملاً الفقة على رأسه. أصرفه آخر الليل إلى داره، بعدما

أهديته امرأة ثانية. يصلُ باكراً، ينخلُ الطَّحِين، يعجنه، يُساعده ابنه السَّاسِي في تقریصه بعد تحmixه. يعود لقش الدَّار، ودعلَ القدور ورصن الأواني. رغم سذاجته ساعدنی في معرفة أسر الأندلسیین ومهاجرين من سرقسطة البيضاء وألمیرية وقشتالة. يجلسُ أمام فنجان قهوة فيسرد لي كيف جلب حسان القشتالي معه حرفة ومهارتة في الزراعة وقضى على أحراش بوزريعة.

من أجل فنجان آخر يبدأ في عدّ عائلاتِ أندلسية استقرت في القُلُّ ودلَّس ومتيبة وعنابة والقالة وقسطنطينة والبليدة. يعود لتسمية عائلاتِ مهاجرة أسست مدناً مثل القليعة. لا يصمتُ، ترتفع رغوة القهوة وترتفع ثم تنسكب. أمنحه فنجاناً واحداً وملعقة من البن في كوبٍ نحاسي ثم أصرفه.

في الغد آمره بذبح ثلاثة خرفان وسلخها، والتحضير لمأدبة على شرف تجّار مرجان قادمين من القالة. يرسلُ دلواً داخل البئر، من سقطة واحدة يرفعه ممتنعاً، ثم يقذف به فوق الدماء ينظفها وهو يسأل: - تُجّار مرجان قُلتَ يا سيدی. تُرى كم صار ثمن الرّطل منه هذه الأيام؟

- لقد ارتفع... ارتفع يا حسن!

الصداقة الوطيدة

عادت السفن محمّلة بالزجاج والورق والأسلحة ومختلف الغنائم. بعضها من نابولي وجنة، أخرى إسبانية، برتغالية وحتى فرنسيّة. قُرعت الطّبول والدفوف، خرج الزرناجية، تراقصت الأطفال

طرباً. ارتفعت الزّغاريد وانطلقت الدّعوات. نحو طريق الميناء ركض الصّغار والرّجال والفتية وكأنّهم ممسوّسون، يرددون: عاد الرّايس حميدو، عاد الرّايس حميدو.

انعقدت الألسن بهجةً. ترك الباعة والمشترون الوزن والقياس والسلع. في المرسى هرع الحمّالون يضحكون ويتصايرون، وقعت أكياس الأقطان والأصوف والحرير.

أطلّت النساء من الشرفات والأسطح. حمل بعض الرجال العصيّ يتراقصون فاتحين أذرعهم، يدقّون الأرض بأقدامهم كالخيالة. يدورون بأجسادهم دورةً، دورتين، ثمّ يعودون للركض في طريق الميناء. وقد شُحّت الأرزاق، سيعود البيع والشراء للازدهار. تسلّلت بين الحشود، أخذتْ أعدّ عدد العربات التي تحركت نحو قصر البasha، تجرّها الخيول والبغال ويحرسها الجنδ والخيالة.

لم تنم المدينة ثلاثة أيام كاملة. أنيرت الأزقة والجوامع بالشّموع والقناديل. في اليوم التالي اجتمع رجال الديوان.
تساءلتُ...

هل ستكون حملة نابليون مثل حملة شارل الخامس؟ مثل حملة أو리لي؟ أم آنه سيقود حملة ناجحة؟

تأمّلتُ بحر الجزائر، حيث تحطمّت الكثير من السفن. اليوم يتهالك العثمانيون، بالأمس طرد الإسبان وقبلهم الرومان. هرب الإنجليز والأمريكيّون، عاد الهولنديّون والدانماركيّون خائبين. بعضهم وطأ شاطئاً هنا أو هناك لأيام، لكنّ الجزائريّين بقوا دوماً هنا. انسحبّتْ وعدتْ أدراجي قبل أن يلحظني أحد.

بدأ يومٌ جديدٌ شرع فيه خوجه الغنائم في تدوين الأموال على دفتره. اجتمعِ الديوان يومين متتابعين. في المساء عبرتُ بمحاذةِ الجامعِ الكبير وكأنَّ شيئاً ناداني. حاولتُ تخطى جواد أشهب مُطهِّمَ عابر حين توقف عند قدمي. رفعتُ بصري وإذا به الرَّأْيس حسين، وقد عاد من رحلة طويلة حتى كاد ذكره ينقطع. حاولتُ التقدُّم والتودُّد، لكنَّه مضى مسرعاً. ما كان الرجل يذكر لقاءنا القديم في القالة قبل سنوات طويلة.

رأني حسن قادماً فهبتُ واقفاً. هرش رأسه، فخشتُ أن يكون مصاباً بالقمل وهو يُصلح الشق الذي ظهر في جدار المدخل.
- انفلق شقٌّ صغير يا سيدِي. في غيابك ثمة من جعله غائراً، حفر وحفر حتَّى فتَّ الصخر وشقَّ الجدار.

تفحصتُ الشقَّ، أشرت عليه بشراء مطرقةٍ جديدةٍ ورملٍ وصخورٍ تُصلحه. جلستُ إلى جانبه نتسامر وهو يعمل، أُجرِّه إلى الكلام. سحب الهواء بمنخريه الكبيرين حين فرغ قاتلاً:

- أمَّا الرَّأْيس حسين يا سيدِي، فقد بلغني أنه بعدما نجى من هذه المعارك بأعجوبة، انسلاخ عنده عقله، فعهد أمر سفينته إلى ابنه. صار كثير الأسئلة والنسيان، يُخطئ أسماء الرجال، يضع الشيء في غير موضعه، وقد يفقد القدرة على العناية بنفسه بعد سنة أو سنتين. لقد عثروا عليه جاماً على ظهر قاربٍ لا ينطق بحرف. بعدما تنشَّقَ البارود واحتنق، وقع من ظهر السفينة وغاب في البحر سبعة أيام!
في الغد قصدتُ المقهى الذي اعتاد التردد عليه. رأيته جالساً، أقبلتُ وقدَّمتُ نفسي.

- السيد لويس يحييك، تاجر مرجان، عم خداوج الفنساوية، أقصد إيزابيل التي منحتها عهداً بالأمان قبل... تذكرها واحتفى بي، ثم دعاني إلى داره. وعدته بتلبية الدعوة ثم غادرته. باكرأ أمرت بحمل الهدايا. توددت إليه بصناديق من الفضة والأقمشة والدروع وحبال السفن والقهوة وسلام من الكعك الفرنسي بالسكر البُنيّ، ومجموعة فاخرة من المرايا حتى أبلغ قصدي وأرسي.

بعد مسيرة ساعة بلغت داراً كبيرة تتوسطها نافورة سدايسية، من ثلاثة أحواض. تطل عليها نوافذ غرف واسعة كثيرة السواري الرخامية. فيها بيرقٌ جديدٌ، مرايا وزرابي وأثاث فاخر، أبسطة جديدة، بوابات منقوشة، جدرانٌ مزينةٌ بالمعلمات والأسلحة، وقناديل من الزجاج المُعشق.

صعدت درجاتٍ ثلاط. عبرت صحن الدار، وقفَت لحظاتٍ أجوِل ببصري بين أقواسه الداخلية، سرتُ يميناً عدة خطواتٍ وصرَت داخل مجلس الرئيس. أمرت بإinzal الهدايا وصناديق تحملها أربع قوائم خشبية ترتفع بها عن الأرض. حمل الخدم أقفاص طيور، سيفاً منقوشاً، أطقم خيول، الجمة وسروجاً فاخرة، أوان لازوردية، مناديل ونعالاً، وثلاث خيول اشتريتها من سوق الدواب. ثم أقبل...

كان الرئيس رجلاً فارعاً القامة، حاد الطبع، حكيناً وقوياً. ولد في المدينة، وما أقام في غيرها. قيل أنه من أصول إغريقية تارة، وتارة أخرى من أصول لاتينية، صقلية، فلامانكية، أو عربية، لا أحد يدري. وقيل من الأناضول، أيضاً ومن روميليا!

أمر لي بشراب الفاكهة المُركّز والمُحلّى.

- أنقذت إيزابيلا... حياتي من سقم مُهلك ألم بي. عرفاناً أدينك ما يكفي حاجتك لتنظر في أمر تجارتك.

- مدین لك أيها الرئيس النبيل. أنا في سفر لا ينقطع، أصلاح أمر تجاري وأردّ الدين إن شاء الله.

الدرويش العارف

أرهفُ السمع وأتقدّم، متى اقترب صوتُ بعيدٌ توّقفْتُ. قبل أن أبلغ بيتي، من جهة الحمام التركي استوقفني عجوزٌ واسعاً عصاه الطويلة في متصرف صدرِي قائلاً:

- ارحل من هنا أيّها الغريب البعيض!

أعادها إلى الأرض. نظفّها مثل مُحارب ينظّف سلاحاً قدّماً ومضى محني الظّهر، يرددّ:

- أغلقوا الأبواب، أغلقوا الأبواب.

لم أحرك ساكناً، تبيست قدماي، بينما تركني واجماً تتقدّافُ الريح جسدي. ظلّت ساقاي واهنتين بالكاد تحملاتني. لعله مجرد كابوس، هكذا قلت في نفسي. هرعتُ إلى الدار، في الغد لأردّ شر ذلك العجوز الخرف عنّي أرسلتُ للبحث عنه. عثرتُ عليه بعد ثلاثة أيام. زرته ليلاً، ثم تذكرته... إنه النّاسك نفسه الذي وهبني الأمان أيام الصلح! كان مُقرفصاً مُنكمساً عند زاوية غرفة صغيرة، يتحبّب بصوّت مبحوح، يرددُ وهو محمومٌ:

- سقطت دار السفن، سقطت الجزاير!

فزعًا وأسنانه تصطك، وجسده يرتعد تنهّد، وقد خفت صوته:

- ويلك، كم نفسا قتلت!

- أصمت أيها العجوزُ الخرف وإلا قتلتُك.

- بل ستقتنلني ويراكَ حَسَنٌ!

لطمَ وجهه فتفصد من أنفه خيط دم. خنقته بيديّ حتى جحظت عيناه. عيًّنا حاول فك يديّ المتصلبين. تركته منقلبًا على بطنه وقد سكب الدماء من فمه سكباً. رفعت صليبياً فضيًّا صغيرًا إلى صدرِي وشكّرتُ الرّب. مات المُشعوذ، بينما كنتُ مغادرًا سمعت صوت خطواتِ تركض مبتعدةً.

- من؟ من هناك؟

لم يُجب أحد. صاح الذيك صياحًا متكررًا، شهقت هلعا. مع طلوع الفجر دلفت من الأزقة الملتوية نحو منزلِي. لاحقاً علمت أن العجوز الخرف كان أحد أشهر دراويش المدينة. منهم من يؤمن بصلاحه وامتلاكه الكرامات. يتبرّكون به، فيعلمهم بما يحمله الغد وكثيراً ما تصدق نبواته!

إنَّه لعجوزُ خرف، بلا مورد رزق، يهيم على وجهه ليل نهار. قيل إنَّه بيع طفلاً في أسواق النصارى. وقيل أنه شارك في فتح وهران، وقتل ثلاثة إسبانيين، برتغاليين وفرنسي. يهيم أشهرًا ثم يعود، دون أن يدرِّي أحدُ أئِين قضى تلك الأيام، أو كيف دخل المدينة والبوابات موصلة!

مالت الشمس النحاسية. انتشر خبرُ مقتله بينما أنتظر المراسل العسكري. تأخر، وتأخرت أوامر المغادرة. أتى مساءً آخر ولم يأت

هو بعد. تأخرَ مِرَّةً أخرى، ليلةً أخرى، بل أشهراً، أين ذهب؟ رُحْتُ أضربُ أخْماساً بأسداس. قضيتُ أسابيعَ في انتظاره. أذهبُ وأجيءُ دون أن أدرِي ما الأمر. هل أزور القنصل وأعلمه باختفاء المراسل العسكري؟ هل أخالف الأوامر التي منعوني من التردّد على القنصلية هذه الفترة؟ هل استولى القرادنة على سفيته؟ لماذا تأخرت الأوامر وانقطعت الأخبار؟ رغم كل ذلك لم يحدّثني قلبي بوقوع مكروه له، فقد كان الرجل يُصاهيني حنكة وحكمة وشجاعة. قضى على الكثير من الرجال، رجالين وراكبين، مُسلحين وعُزل. بقيتُ لا بدًا في داري أيامًا، أنتظر ظهور أي خبر عنه.

في أحد الصّباحات عُلّقت المشانق وتدلّلت أجساد ثلاثة رجال. قال البرّاح آنهم عيون للأعداء. تساءلتُ إن كان الرئيس التالي سيكون رئيس المراسل العسكري أو رأسي. قد يُطالب الجزائريون برأس القنصل المُتآمر أيضًا، إن انكشف أمرنا، فتعلّن الحرب!

الطيب

انتكس حسن، واشتَدَّ عليه المرض. جاءني الأمر، وقد قدّمت قبل أشهر تقريرًا شفهيا للقنصل عن رحلتي إلى سيدي فرج. «ابحث عن رجال يُعرفون بعلمهم لا بفضلهم أو قولهم». طفقت أبحث عن علماء المدينة وأطّبائها، من حارة لحارة ومن حوش لحوش. دلّوني على رجلين أو ثلاثة. أَوْلَهُمْ كان يدفنُ بيض دجاجة سوداء. أمر المريض بالانتظار ستين يومًا. متى تمتَّ يذبح الدجاجة السّوداء بين أربع زوايا. ويرمي البيض المدفون في البحر، بعد أن يكتب على ظهره

بدمها ما سيجلبُ الشفاء. وأمرهُ أن يتخلّص قبلها من كلّ المرايا، لأنّها تجلبُ السقم.

طبيبٌ آخرٌ ظلّ يداوي المرضى بالأحجبة والتمائم والسحر والشعوذة وبصاق الأولياء. انقطع عنّه الناس لقلّة علمه، كاد يُجنب وصار يتبرّز ويتبول في بئره، حتّى لا ينهل منه أحد. ولدت زوجته طفلةً برأسين، قتلهما، فقتله الجنود.

آخرهم رجل رأسه نصف أقرع. عاد بعد رحلةٍ طويلةٍ يرطن بالفرنسية والإنجليزية والتركية. أنجبته أمّه وحيدةً في براح البايدية، رضع من حليب النّوق والماعز، ولم يذق حليبيها. طويلاً عاش على الماء والخبز والرّطب. كاد يموت وهو يصهر في طنجرة موادَ غربية لصناعة الذهب. يُشاع أنه يُحسن استخراج السم من ناب الحية. كان من مؤذبي الصّبيان، مثل جده الذي ضاعت مكتبه الضخمةُ في حرب درقاوة. أمّا والده فاشتغل في التجارة لقلّة جدوى ما يحصل عليه المتعلّمون من مال. زار مصر والشّام والحجّاز، ومقام نبيِّ الله هود، وكنيسة القيامة وبيت لحم وسوق النّاصرة وبيت المقدس. فصار الناس يزورونه مُشاًةً وركباناً، يأتونه عمياناً فيعودون مبصرين، مما يُشاع أيضاً أنه يأخذ الكتب من الجزائر ويقبضُ ثمنها هناك أضعافاً. قصدتُ منزله.رأيته حافياً، يرتدي من الثياب أخفّها وأقدمها وكأنه عبدٌ. سأله عن حكيم أعرض عليه خادمي المريض. أجاب ساخراً:

- هلk حكماء المدينة...

ردّ على سائل آخر، يطلب منه مشروباً يُذهب الوهن.

- الكسلُ جالبُ الداء، متى أهمل الرجل الشجاعة وقع المكروره.
ليس للرجل أن يبقى على رداءة سيرته، وسوء طريقته، قم واعمل
يذهب عنك الوهن يا هذا!

تراجعتُ خطوتين وواصلت السؤال، ظنًا أتنى أخطأت الدار.
سألتُ المارة، رد بعضهم:

- هنا، هنا، لكن ما عاد يعالج الصرع.

- بل يشفي منه، إنه ولّي من نسل آل البيت!
راح آخر يسرد لي قصته:

- قبل سنواتٍ وقعت بومبة قذفها الإسبانيوْل على داره، فأحرقت
رقاعه وكتبه. حين عاد ملأ كفهُ تراباً وأهاله على رأسه حسراً. عندما
ضرب الهواء الأصفر البلاد، ظلَّ يصبح بين الجبانات: «اردموا عليهم
بالجير. لا تستتروا على مرضاكم أو موتاكم أيها المسلمون، أيها
اليهود، أيها النصارى. الجير، الجير، كلّ ميت يجب أن يُعطى بالجير
والتراب. التراب، التراب...»

عدتُ إليه لأنْتَeri علمه. دعاني ثم غاب فلحقتُ به. كانت داره
قديمةً من الطوب والقش والخشب، يحيطها خارجاً التبن والعلف.
تأملته، بيتٌ متهالكُ، لا شيء فيه سوى جرة طينية، جلود، ريش
للأفلام ومحابر، منشأة للذباب، مبصرة نحاسية للمرضى، طاسة
للخضّة. فرش الغرفة بالحصير، بدت كمدرسة يلتحق بها كلّ مساء
الصبية. بعض الذكور هنا يذهبون إلى الكتاتيب ثم ينقطعون. لا
يدرسون فيها سوى القرآن واللغة، فهي لا تلقين الطلب ولا الفلك ولا
الفizinباء.

أظهرت إعجاباً بسعة علمه، فأخبرني أنه قضى طفولته في الدّباغة وتلميغ النحاس. تعلم العلوم الشائعة ثم سافر. بعد عودته درس في الزاوية وأعطي الأوراد والأذكار. بدأ في خطّ كتابٍ عن السماوات وقد درس عن التّلمسانيين الفلك والتنجيم. شد الرحال إلى الإسكندرية ودرس الفلسفة القديمة. ولأنه عاش فقيراً في ضيق هربت زوجته الأولى ومات ولده وفارقه أقاربه. زوجته الأخيرة تصغره بعشرين عاماً. أراد نقل علمه إليها. باع مبادرتها ومكافحتها، فغادرته وتزوجت رجلاً يخصف النعال ويخيطها، فيعود بقوت يومه.

بعد يوم عدت إليه رفقة خادمي السقيم. عصب حسن رأسه وانحنى إلى الأمام قليلاً، شحب لونه بعدما منعت عنه الطعام ليتلذّن. أدخلنا وانتظرنا، أخذ يصبّ الزيت المغلبي على الجرح بينما كان الرجل يرفسه وهو يصيح. قال: من يعيش بعد هذا يُشفى للأبد، ومن يمُت إنما يموت بسبب السقم لا العلاج! عجن الطين بالأعشاب وصبغ جسد طفل حان دوره. أمر والده: لا تغسله إلاّ بعد ثلاثة أيام كاملة. بعدها يأتيني لأضع على جسده كاسات الهواء. اذبح ليلة الغد عجلًا سميناً واجعله يأكل من الكتف الأيسر فقط. وادفن باقي الذبيحة.

وصف له نبتة الشندورة علاج للحمى. حين فرغ جاء دور حسن. أخذ أوراق الكرفس والكزبرة التي تشبه أوراق السيليفيوم ونقعها في الماء، ثم قال: قدم الطعام اللطيف قبل الغليظ، واللّذين قبل القابض. فاللهضم ثلاثة، هضم في المعدة وهضم في الكبد وهضم فيسائر الأعضاء. سقاه الشراب ثلاث مرات ثم قام يدعوه بالسلامة. مررت

اليوم فسأء حاله أكثر. قصدت داره، وسقيته دواءً أحضرته من طبيب الوكالة فتحسّن.

- حسن العزيز، لقد استعذبتُ صحبتكَ، وقد حسُن موقعكَ في قلبي، فكُررتُ ونظرتُ في إرسالك إلى ذلك الطيب، صانع هذا الدواء العجيب، لتأخذ منه علماً ينفعك بعدي، ساءت أمور تجاري وأفلس وأغادر.

- هاهاها، من؟ أنا؟ قصدتُ الشيخ لونيس قبل عشرين سنة ونيف، لأتعلم رسم الحرف. كان غاضبًا، أمسك بأيدينا وقذفنا خارجاً. تمّلّصتُ من يده وهربتُ هلعاً. حرق يومها كتاباً مبتورة الأول وكتاب (الدول) للمالطي، قائلًا أنه كتاب عجيب التأليف حسن الصنيع، لولا أنه محسُوّ كفراً، تزلّ في الأقدام. لم أعد بعدها إلى شيخ قط...
- ندفع إليه بولدك السياسي إذا، يُلقنهُ العلوم والمعرفة، ولنك مني الكثير من الفرنكات.

بعد يومين أقبل عائداً يعيدُ على مسامعي مُحاورتهم العجيبة.

المحاورة

قال حسن:

- لي ابنٌ هو موضعُ سرّي. به أعتقدُ وعليه أعتمد. ولا تني شُفيتُ على يدكَ، أدفعُ لك ما شئتَ مقابل أن تعلّمه. لعله يكبرُ فيصلحُ به حالِي.

- نعم الولدُ ولدك يا حسن. فاجعله عالماً لا ملكاً.

- أو ثمة عالمٌ أحسنُ حالاً من ملكِ!

- العالمُ غنيٌّ عن الملكِ بعلمهِ، وليس الملكُ غنيًّا عن العالمِ
بمالهِ. أرسِله ساعةً كل يوم أعلمُه الطَّبِ.

- والفلك؟ أتلقفتهُ هذا العلم أيضًا، فأجازيك بما أنت أهله
مُضاعفًا؟

- آه يا حسن. نظمتْ أرجوزةً في علم الفلك، ضاع اسمها ونصفها
في الإسكندرية. كنتُ مولعاً بدواران الكواكب ومعرفة الظلّ والوزن
والمكاييل، وميل الشمس وموضع القمر وما فيه من النور. أمدّ بصري
إلى الفلك، أفکرُ في تنقلاته وحركة الكواكب. وقد تلقيتْ علمها على
يد الصالحين، كما تلقيتْ الطَّبِ والتُّشريخ والهندسة.

- وكيف تعلمتَ... فأعلمُ الساسيَّ ابني؟

- بالرَّحلة والإجازة والنقل. نسختُ في سفري مخطوطاتٍ
للرازي والطَّبرى وأفلاطون وهرموس وجاليونس العظيم. لازمتُ
معلمين جمعُوا بين التأليف في التصوّف والطب. كما قرأتُ تأليف
ابن رشد، وابن سينا، وداود الأنطاكي، وابن بيطار، والإدريسي،
والقزوينيّ.

- أدفعُ لك وزنها ذهبًا وأحصلُ عليها.

- هاهماها، يا لك من جاهل طيب يا حسن، إنها نادرة الوجود!

- لا أُغشُّ على غيرها؟

- لا أعرف تأليفاً في الطَّبِ لغيرهم. أتبينُ سوق الوراقين وأخبرك.
وأنت أيها الحكيم، أما خطّت يداك كتاباً قطّ؟

- بلى لكنَّ الكتاب ضاع في أرض ليبيا. كتبتُ فيه عن ملوحة
وعذوبة المياه في كلّ مدينة مررتُ بها، عن أنواع الأشجار والطّيور

والحيوانات. وجمعتُ فيه ما اختصرتُه من كتب الطب في علاج العينين والرأس والطحال والأذنين والأض aras والبطن والسرة والمعدة والكبد والكلى والخاصرة وأوجاع الظهر والحصى وحرقة البول وأرحام النساء ومن يقع عَد بالدم. هجم علينا قُطاع طرق فأخذوه من بين ما أخذوا.

- يا ستار!

- كنتُ قد وضعت ما جمعت من مالٍ في شراء ترجمات قديمة لديوسكوريدس، وأبوقراط وداوود الأنطاكيّ، سرقوها أيضًا. وما عسى أن نبلغ منهم ونحن رجال ضعاف؟

- يا علّمك الغزير أيها الحكم!

- ليس ذاك فقط يا حسن. برعتُ في الحساب لحاجة الناس إليه في التجارة والميراث. درستُ تأليف القلصادي وشرح السنوسي في الإسطرلاب والقانون، والطلاسم لابن سينا. كما ولعت بكتُب المنطق وكتبتُ فيه.

- بلغني أنك أقررت نبوة خالد بن سينان العبسي... أصحِّح ذلك؟

- أقررتُ بنبوته وذلك من فضل الله عليّ.

- فحدثَ ولدي عن نبوته أيضًا. أرسِلُهُ بعد أيام قلائل.

- بل غدًا فأنا مغادرٌ. ما طاب لي المكوث طويلاً في المدينة.

- وما يسوؤك منها؟

- بنو عثمان.

- وما يسوؤك من العثمانيين؟

- أحزنني ما صارت تجري به المقادير، من إملاق الرعية وقلة العلم والاستيلاء على الأوقاف وانتشار الظلم وفساد الأمن. في كل الأمم، لا بد للحاكم أن يُشاور من هو دونه في المنزلة ومن هو فوقه في العلم. الرأي الفرد هلاك للأمم يا حسن، لا يُكتفى به ولا يُنفع منه.

- وما قصتك مع الباشا أيها الحكيم؟

- بلغني خبر مرضه فقصدت قصره حاملاً الدواء، فحملت إلى السجن مقيداً. كيف لحاكم يقتاد جنده عالماً نحو غياه السجن أن يرجع ويجلس في مجلس العدل؟

- وما يسوءك من المدينة؟

- نظرت فيها اليوم ما ساعني. صار في أهل وطننا الغلظة والجفاف وسوء الأدب وعدم إذعانهم للحق. انفرض العلم في كل الأقطار فيما أعلم، إلا ما شدّ. إن في انتراض العلم بوارنا وهلاكنا يا حسن. إن المرء دون علم عذر من الدواب التي لا أنفس لها. لعمري إنها أحب البلاد إلي، لكن ما عادت نفسي تطيب بالبقاء فيها، عذر من الجحّال كل من لم ينصر عالماً، وما نصرني فيها أحد!

- لعمري إنك قلت فأحسنت، وأجبت فأبلغت. لكن تغادر إلى أين؟

- إلى قسنطينة.

- ما عسى أن يكون مبلغ رأيي عند رأيك، وفهمي من فهمك، أرسله غداً.

أنهى الحكيمُ محاورته مع حسن. باعه كتاباً جعلَ الكلام فيه على ألسن الحيوانات والوحش. حينما عاد حسن قال إن السفه ليس من

شأن الرجل، لكن به مسّ من الجنّ حتماً. يريدُ للصّبي أن يقرأ مُحاورةَ
بين بهيمتين!

أظهر تعجّباً، وأحجم عنه وكاد يُتّلفُ الكتاب قائلاً:

- كيف لك أن تشتري مُحاورة بين بهيمتين يا سيدِي!

مات حسن

- مؤامرةٌ تحاك ضدّ الرّايِس!

- لا توقفُ المكائد هنا ولا في فرنسا يا حسن.

- ماذا بلغك أيضاً؟

- قد يَتّم نفيهُ وأبناؤه حتّى لا يرثوا ما امتلك.

- ماذا يملك غير دُوره وسفنه؟

- الكثير من الأراضي والبساتين يعملُ فيها الخامسة. أراضي
يحرثها مئتي زوج من الشّيران وقيل أكثر.

- أخبرني يا حسن، كيف تبلغك كل هذه الأخبار؟

- أتفتّي أثراها يا سيدِي؟

- هل أتفتّي أثري يوماً؟

- كلاً يا سيدِي، كلاً!

لم أصدّقُ الدّرويش العارف. صرفته عن خدمتي متّحّجاً بالسفر. سار مسافة فرسخين، ثم عاد نحو داري ليأخذ سلةً كانت في يده ونسيها. تركَ الباب نصف مُغلق فدلّفَ منه دون أن يطرقه أو أنتبه لعودته المُفاجئة. عندها رأني وأنا أرتدي الحايك والعجار. وقف مندهشاً، يحدّق ويتملّى. حاولت إقناعه أنني أرتديها خشية

قطاع الطريق واللّصوص الذين صاروا يتّرصدون تجّار المرجان. طلبت منه الانتظار لأمنّه بضعة فرنكات، مكافأة له بعد ما سهوتُ. عدتُ بالفرنكات رُفقة كأسٍ من شراب الفاكهة. أصررتُ على أن يُلقيه في جوفه كلّه قبل أن يمضي. كلّفتُ بتعلّم كتابة العقود ونسخها ووعدته بالعمل في التجارة فور عودتي بعد ثلاثة أشهر. شحب وجهه وغارت عيناه، عاوده المغص فغادر.

امتنعْتُ صهوة حصاني، استويتُ ولجمته. ضرب الأرض بحوارفه وانطلق ثم اختفيت. قلتُ في نفسي: كيفرأيتَ عظم علمي وحيلتي يا حسن، أمام عظيم جثّتك وصغر همتك وعقلك؟ رحمك الله، ورحمتنا منك.

مات حسن الذي صاريقتفي أثري، بعد ساعاتٍ قليلةٍ من مغادرته. أساء السيرة فعظّمت منه البلية. نهش جسده ألمٌ خبيث قاتل. شكرتُ في سرّي الطبيب العسكري لومير، الذي لقنتني أسرار السموم القاتلة.

حامِل سُرّ الرّياس

عدتُ حاملاً الهدايا للرّاييس وللخوجه، كاتبهُ الخاص، وللباش سيّار، الرجل المسؤول عن بريده لكسب ولائهما، حتّى جامع العلائيف حملتُ له مما حملتُ. طردتُ مجنوناً مقرضاً عند بابي ثم خرجتُ في طريقي لمحتُ أغراياً، غير الذين ألغت وجوههم. قد يعرفهم حسن، هاهاما، كنتُ سأرسل في طلبه ثم تذكريت موته. سرعان ما دخلتُ دار الرّاييس، ألقيت التّحية، وقدّمت له التّشريف الكبير بينما أفکر في الأوامر التي بلغتني. أمرت الحكومة القنصلية

بجمع الأخبار عن الأغربة، والفرقاطات، والغيلوطات والشالوبات والبولاكر. وعن عدد السفن الجديدة وعدد المتقاعدة من الخدمة، كيف لي أن أحصي كل هذا!

رفع الخدم الطعام وأحضروا التبغ. تقدّمت ساعات الليل. بقيت منكثاً على نفسي أتأمل انكساره، وقد بلغه تامر الرجال عليه. أمنحه بصمتى مساحة للكلام. أمر بمزيد من التبغ وانزوى في ركن. رحت أمازحه:

- أوَ تذكر طفولتك أيها الرّايس؟

- كنت غضاً حين روى لي جدي الأعجيب عن البحر والمحاربين وأرض النصارى التي تقع في جانبه الآخر. كاد له الأوجاق واتهموه بمحاولة قتل الباشا. أخذوه عاري الرأس حافي القدمين، نهبوه وقتلوه. حال الحال وقتل الباشا على يد الأوجاق لا الرّايس.

- ماذا عن أبيك أيها الرّايس، أتذكري أيامه؟

- صرעהه الوباء الأسود. في تلك الأيام، عشرون ألفاً من الرّايس لم يتبق منهم سوى أربعة آلاف. أصيب الزرع بالعفن ثمّ يبست الأرض وغار الماء وكدت أهلك.

- كنت بحاراً إذن منذ نعومة أظافرك؟

- كنت مجرد نُوتِي، الألزم كوثل السفينة. تعلّمت اتجاه الرياح وعرفت أنواعها، كما تعلّمت تحديد موقعنا بالبوصلة والبصرة. ما عدت أذكر رحلاتي الأولى. قذفت بنا الرياح بعيداً مراتٍ كثيرة، لم نعد فيها نرى السواحل، لكن نجونا. رسوت في مرافع ردئه،

انقطعت بي الحبال، ارتطمتُ بأعداء، لكن لم يحدث وأن أفقدني العدو أو الريح سفينه. في شبابي أظهرتُ الشجاعة وحلمتُ بأن يُسند إليّ البشا مهام وكيل الحرج يوماً، لكنه أسننَ إليّ بعد سنوات قيادة سفينه بعشرين مدفعاً وستين بخاراً فقط.

- وكيل الحرج؟

- تسمّونه وزير البحرية يا لويس.

- كم أودّ لو تقصّ علىّ بعضاً من بطولاتك.

سحب نفساً من الغليون، أطلق الدخان من منخريه ثم قال:

- ما عدتُ أذكرُ الكثير. حسناً، مرّة رأيتُ في المنظار راية جديدة، عجزتُ عن تحديد جنسية السفينة. كانت مخططة بالأحمر والأبيض، تحمل جانبها مربعاً أزرق، مرصعاً بالنجوم البيضاء، ظنتُها راية العدو، دون أن أدرى أنها للأمريكيين الذين استقلوا حديثاً، وأبرموا معاهدة معنا. خضنا المعركة، سقطت صواري سفيتنا، وقد خرقـت مدافعيـهم أخـشابها. يومها نجـوت بأعـجوبة.

- يا للمعجزة! بلغني الكثير عنكم وعن سفن تركـونـها لا عـهدـ لنا ولا للأـمـريـكيـينـ بها.

- في دار السفن كـنـا نـصـنـعـ الشـبـاكـ والـبـلـاـكـ وـالـبـرـيـكـ وـالـفـرـقاـطـةـ، وـغـيرـهـاـ. يـنـحـنـيـ الرـجـالـ عـلـىـ الأـخـشـابـ طـيـلةـ أـشـهـرـ وـلـاـ يـرـفـعـونـ رـؤـوسـهـمـ إـلـاـ بـعـدـ أـنـ تـرـفـعـ. الـيـوـمـ نـرـكـبـ الـقـلـيلـ مـنـ السـفـنـ وـنـسـتـأـجـرـ أـخـرىـ، كـمـ تـغـيـرـ حـالـنـاـ... وـضـعـنـاـ حـدـاـ لـهـجـمـاتـ الإـسـبـانـ، مـاـ عـدـاـ وـهـرـانـ الـتـيـ بـقـيـتـ كـغـصـةـ فـيـ حـلـقـنـاـ، حـاـوـلـ حـسـنـ باـشـاـ تـحرـيرـهـاـ ثـمـ مـحـمـدـ قـوـصـةـ، شـعـبـانـ الزـنـاتـيـ، الـبـاـيـ إـبـرـاهـيمـ، ثـمـ مـحـمـدـ بـكـداـشـ. كـانـواـ

رجالاً أشداء لا تعرفهم أنت يا لويس. في ذلك الزّمن لم تكن الأطماء والأحقاد والدّسائسُ تنخر صدور الرّياس كما هو حال الرّجال اليوم.

- وما ساءك من رجال اليوم أيها الرّايـس؟

- في دار السفن أحشـاب مهمـلة كالبضـاعة الرـاكدة لـسنوات، دون أن يأمر وكيل الحرج بصنـاعة سـفن قـوية بـدل التي نـستأجرـها. بينما يـمتلـع الـبحر بـسـفن لا عـهد لـنا بها. سـنكون لـقـمة سـائـة لـسـائر الـأـمـمـ.

- أمـا صـدـاقـتـنا فـعـهـد غـلـيـظ يـحـمـيه بـوـنـيـارت..

- عـلـمـني الـبـحـر أـنـ الأـيـامـ سـلـمـ وـحـربـ، لـقد اـخـتـلـفـ يـوـمـنـاـ عنـ أـمـسـناـ، حـتـىـ الـغـنـائـمـ تـنـاقـصـتـ، غـنـمـ جـدـيـ ماـ يـفـوـقـ الـأـربعـعـةـ سـفـينـةـ خـلـالـ ثـلـاثـيـنـ عـامـاـ، وـلـمـ أـغـنـمـ سـوـىـ خـمـسـيـنـ سـفـينـةـ.

- كـانـ جـدـيـ يـروـيـ ليـ كـلـ لـيـلـةـ حـكاـيـةـ عـنـ الـقـراـصـنـةـ العـثـمـانـيـنـ، يـُـهـبـنـيـ بـهـمـ كـلـمـاـ أـسـأـتـ.

- هـنـاـعـلـىـ هـذـهـ الـأـرـضـ لـسـنـاـقـرـاصـنـةـ يـاـلوـيـسـ بـلـ نـدـافـعـ وـنـرـدـ تـحـالـفـ الـأـمـمـ ضـدـنـاـ. سـمـحـنـاـ لـكـمـ بـحـرـيـةـ الـمـلاـحةـ، فـرـضـنـاـ سـيـادـتـنـاـ عـلـىـ نـصـيـبـنـاـ مـنـ الـبـحـرـ، أـعـطـيـنـاـ تـجـارـكـمـ اـمـتـيـازـاتـ فـيـ موـانـيـنـاـ، لـمـ يـلتـزـمـواـ بـمـعـاهـدـاتـهـاـ. عـنـدـمـاـ تـعـيـشـ هـنـاـ لـاـ تـجـدـ الـلـصـوصـيـةـ التـيـ يـتـحـدـثـونـ عـنـهـاـ هـنـاـكـ.

- فـعـلـاـ، لـمـ أـقـصـدـ أـيـهـاـ الرـايـسـ. حـتـمـاـ لـسـتـمـ قـرـاصـنـةـ... وـقـدـ تـبـيـنـتـ ذـلـكـ بـنـفـسـيـ.

وـهـوـ نـائـمـ عـلـىـ جـنـبـهـ كـالـسـفـينـةـ الـجـانـحةـ قـالـ:

- لـسـنـاـ قـرـاصـنـةـ يـاـلوـيـسـ، لـسـنـاـ قـرـاصـنـةـ، أـخـبـرـ جـدـكـ هـذـاـ! طـأـطـأـتـ رـأـسيـ مـعـذـرـاـ، وـقـدـ صـارـ عـلـيـ الـحـذـرـ وـالـانتـبـاهـ أـكـثـرـ لـمـ أـقـولـهـ!

- الجزائر، شرشال، جيجل، ووهران، مازلنا نردد عنها الهجمومات إلى يومنا هذا.
- أما نحن فأصدقاؤكم.
- ضحك ملء شديه.
- حتى أنتم أصبحتم تستولون على غنائم مُضاعفة بما امتلكتم من العتاد.
- تنهَّد.
- لم نعد نملك قطعاً بحرية تنافس العدو أو تضاهي الصديق. عزف الرجال عن ركوب البحر، يفضلون الخدمة في الجندية، أما بحارة اليوم، فتنقصهم معرفة بفنون الملاحة. أود لو ألقى العشرات منهم إلى قعر البحر.
- لن يضع نابليون يده في تحالف ضدكم.
- لكن الأمم الأخرى تفعل يا عزيزي لويس.
- وهذا ما يُنقل كاهملك، حال دار السفن؟
- ما يُنقل كاهملي الكثير والكثير، حتى بعض الرئيس تغيروا، في الماضي يُقاتلون لردة العداون وحماية الهاجرين من الأندلس، مسلمين ويهود، أما الغنائم فيملؤون بها خزائن البلاد. اليوم منهم من يخرج ليغنم ويعتني ويسيب النساء والعبيد، ولبيحث عن أسرى مهمّين فيطلب فديةً أكبر.
- لا تظل الأيام على حالها أيها الرئيس ...
- تماماً كما لا يظل الرئيس على حالهم.. جشعٌ ومكائدٌ ...
- شدّتك وحزنك ما يشير مكائدتهم ..

- حتى الأوجاق يا لويس يكيدون لي، وللريّاس خشية أن يؤول الحكم إلى طائفتنا. في الماضي كان الحكام يُعيّنون من الريّاس. عندما ضعفت البحريّة صاروا يُعيّنون من الأوجاق، الأقلّ مثناً شجاعة وحكمة ومعرفة.

أندهشُ لكلامه وهو في عَزٍّ صحوه، فرجلٌ مثله لا يشمل، ولا يفقد عقلاً.

- تألفُ القلوب المحزونة دوماً. مثلك أنا مستاء من تغيير مبادئ رجالنا. حتى نابليون صار أكثر جوراً وجحوداً من الملك الذي ثُرنا عليه.

لا يكفّ عن إعلان تبرّمه. يُقاطعني:

- آه يا لويس، ليتك تدرك ما فعله الريّاس. ردوا الإسبان والجنوبيين، أنجدوا الهاريين من بلنسيا، حطّموا البنيون، هزموا أندری دوريا وحملته على شرشال، كما هزموا النبرادور شارلكان. ساهموا في تحرير طرابلس من قبضة فرسان القديس يوحنا، حرّروا بجاية ووهان، تصدّوا لحملة البابا، وملك صقلية وفرسان مالطا وجنة ونابولي وتoscانيا وسردينيا وبارما ومودينا وجزر البالىار والهولنديين و...

- ما زلتكم تملكون أسطولاً قوياً، فلا تبتئس أيها الّرّايس.

ممازحًا لي رد:

- حتى أنت يا لويس لا يؤمن لكم جانب، من أرضكم أبحر القائد دوكين والأميرال ديستري ولويس الرابع عشر والفارس بول، والقرصان سيمون لغزونا!

- اطمئن، لا يشبه الإمبراطور نابليون الملوك. لقد أقرّ حقوق الإنسان، وحمى الثورة تماماً كما سيحمي عهد الصداقة الذي عقده بيننا.

شرع الرئيس يحدّثني عن هلاك ماشيته، وأرض خصبة انقلبت بوراً. حدّثه عن تجاريدي ديوني وحال الفرنسيين.

- تخسر تجاري بسبب اليهود الليفورنيين.

- من يُنافسك؟

- يُدعى هارون كوهين، كان يعمل في افتداء الأسرى وبيع الغائط البحريّة. أنشأ فروعاً لشركته في تونس، يُقال أنّ والده لم يكن يملك سوى طاولة صغيرة يبدّل فيها العملات، وقد شاع آنه يعشّ فيها. خسرتُ زبائني، فعجزتُ عن تسديد ديوني وشراء حمولة أخرى.

اغتنمتُ الوذ وطلبتُ منه ألف فرنك آخرى بعد ما حدّثه عن البيوع ومشاكل الشّراكة والتّجارة والإجرات. مال بجذعه ثمّ أمر لي بألفين.

رحلة صيد

بلغني مقتل الرئيس في ريو دو صالدو -الباد المالح- في عين تيموشنت، على يد الإنكشارية، تبيّنت كذب الإشاعة ما إن طلع الفجر. حينما دعاني لمرافقته في رحلة صيد. سرنا شرقاً، ثم توقفنا وسط غابة كثيفة، خلع برنسه وعمامته خشية أن تسقط فتفـرـ الطـائـدـ. سرنا ببطء، أرهف السمع لصوت ينبعـُ بين الأشجار، تحركـتـ الأغصانـ، طـارـ سـرـبـ منـ الطـيـورـ، تساقـطـتـ الأورـاقـ أـرـضاـ، أـدارـ رـأسـهـ بـحـذرـ، جـالـتـ نـظـرـاتـهـ المـكـانـ بـخـفـةـ.

كنا وحيدين، وقف على مقربة مني، علق بندقيته على كتفه. شد سهماً إلى قوسه، تحرك يميناً، أغمض عيناً وحدق بأخرى، ثم أطلقه فأصاب ضلوع أرنب بري كبير، انتفض ثم خمد. تناول أربعة سهام أخرى وأطلقها تباعاً، طارت رؤوس الطرائد وકأن كل سهم نصلٌ باطراً. سار مزيحاً الأغصان، يُقلب بين العشب عن طرائد غارقةٍ في دمائها. جلسنا على حصير من البوص. شربنا الماء من قربة صنعت من جلد الماعز. سلخ الأرانب وغسلها. رصّ الحجر، جمعنا الأغصان، ثم أوقد النار وأخذ في شويها. ربت على كتفي ودعاني للطعام. كان بينما وهج النار، حين فرغنا، قام وابطح ليشرب من النهر. للتخلص من ديوني، فكرتُ في طعنه بخجري المسموم، فمثله لا يموت غرقاً. ثم عدلتُ، إذلم أتلق أمراً بذلك بعد.

في طريق العودة، ارتفع عواء الذئاب ونخير الخنازير. توّقنا في إحدى الزوايا أعلى الوادي، أرحانا الجياد وقمنا بسقيها، ثم ربطناها لقتات. عرض الشيخ علينا الضيافة والمُكوث لليلة. تناولنا الطعام رفقة طلبه ومريديه. في الصباح الباكر عدنا.

بعد أيام عاوده المرض، استدعاني يطلب المشورة بعد سفر طبيب القنصلية. رفعتُ القنديل فوق رأسه، نظرتُ إلى عينيه وأذنيه، تفقدت نبضه وأعضاءه،رأيتُ بعض العلل والآفات. وضعْتُ يدي فوق جبينه مجدداً، مرتّتها على صدره، سقيته شراباً مسكتاً ثم بعثت بخطاب يوصي طبيب الوكالة بزيارته. بعد يومين رُرتَه مع هدية.
- أحضرتُ لك آلة عجيبة، تجعلك ترى أعلام السفن جيداً.
ووضعْتُ بين يديه صندوقاً منقوشاً، بداخله منديلٌ حريريٌّ مُنعقدٌ.

فتحها فوجد دائرتين زجاجيتين مثبتتين في مقدمة ماسورتين صغيرتين،
موصولتين ببعضهما. أخذتهما وجعلتهما في عيني، ثم قلتُ:
- ضعها هكذا، وسترى الأشياء البعيدة في البحر أكثر قُرباً
ووضوحاً.

تناول المنظار مبسمًا، فتح النافذة ثم جرّبه. نظر إلى ثمار حديقه،
ثم صاح وهو يقبض بيده على الريح:
- وكأنها هنا أمامي، تُشبه الناظور، ولا تحمل كل سفتنا ناظوراً
يا لويس.

- إنه منظار، دفعت فيه كل ما كسبته من تجارة شهر كامل.
ران الصمت ثم أطلق ضحكة ظافر.
- سأمنحك ضعفي ثمنه يا صاحبي.
أعجبت بكرمه، وخشيته أن يعلم يوماً أن لي يداً في سقمه قبل
أن يهلك تماماً.

موت المراسل العسكري

مات المراسل العسكري ميّة غامضة. زرت القنصل، تبادلنا الحديث، ثم انتقلنا رُفقه الجثمان إلى الكنيسة. جلست بعده بثلاثة صفوف، جاء القسّيس، وانطلق صوت الأرغن، أرسل الصلوات، ووضع صليباً فضيّاً فوق التابوت. حدّقت في وجهه، كان ساكناً هادئاً على غير عادته، لم يتعرّج قول شيء. قمنا بتشييعه ودفنه في مقبرة النصارى. على شاهدة قبره كُتب، هنا يرقد السيد شارل دو بواتيه، تاجر مرجان مارسيلي صالح. لروحه السلام.

مزال التنقل في بعض الأماكن داخل الإيالة دون تصريح جرّما
يستوجب العقاب. لكن شارل يدرك ذلك فلا يتنقل إلا متحفياً
وبحرصٍ.

هل ترصده أحد؟ هل قام القنصل بالتخلص منه؟ هل كان خائناً؟
أم أنّ أمراً ما بلغ وزارة الحرب؟

تلقيتُ أمراً من القنصل بتبادل الرسائل مع مراسل عسكري آخر
سيتحقق بعد ثلاثة أيام. سأله عن سبب موت المراسل، أدار لي
ظهره، أمرني بعدم التردد على القنصلية، رفع يداً وصرفني فوراً. ثُمَّ
ماذا يُخفي القنصل؟

الدُّنُوش

بعد الحريق عادت الحياة إلى الأتليه. دفعت إيزابيل الكثير لرجل
من رجال قائد الزيل، حتى تحصل على شيء من الرّقاع والأوراق
التي يُلقِيها رجال الديوان والباشا، قبل أن تُحمل لإحراقها. تستدرج
الخدمات وتدفعُ لهنّ مقابل القمامنة والرّفوق التي يعشن عليها في
الغرف والدّور.

نشرت الصّحراء رمالها على دار السّلطان مرتين ثم هدأت. حمل
القنصل الهدايا إلى الباشا بمناسبة عيد بيرم أو العيد الكبير. صناديق
فاخرة تحمل الأسلحة والأقمشة المطرزة والدرّوع المنقوشة. ثم
أرسل ترضيات سخية لقياد الأوطان وقائد طائفة اليهود.

عاد الإنجليز خائبين بعدما فشلوا السنة أخرى في الحصول على
امتيازاتنا وتجارتنا. خرجت إلى المدينة، صارت ضاجة بالبنائين

وأصوات أزاميلهم ومطارقهم، يشيدون ما أمر البasha بإقامته من دُور
وقصور وأسوار وجواجم. ارتفعت أصواتُ:

- جمع حسن خوجة ألفاً وثلاثمائة جَمِيلٌ مُحَمَّلَةً بِالقِمْحِ وَذَهَبٍ
بِهَا إِلَى الْبَاشَافِي مُوَكِّبًا مَعَ خَلِيفَةِ الْمَدِيَّةِ.

- بل جمع ألفا وخمسة جمل !

- رُفقة خمسين رجلاً من أفضل الصبّاحيّة.

- بل سبعة وخمسين رجلاً..

- سیستقبله البشا لأیام یکرمہ..

- بما قد يُكرمه هذه المرة؟

- السنة الماضية أكّر مه بمسدّس ذهبيّ، وقطّان مزین بخيوط من الذهب.

- و بما قد يُكرِّمك إن أنت زُرتَه؟ هاهاها..

- سيطردونه قبل أن يبلغ القصر هاهاها...

- يحصل هذا الباشا على مدخلاتٍ كثيرة من الدّنّوش، من رسوم البايات، ووكييل الحرج فلماذا يرفع سعر صاع القمح ورطل اللحم والزبدة!

- من هؤلاء فقط! بل ومن الخزندار والبلوكبashi والكراغلة والأندلسية، والقبائل والمخازنية والمرابطين والأشراف والعرب واليهود... من عائدات أملاك الدولة، والمال الذي يدفع فدية للأسرى والعبيد والإتاوات التي يدفعها التجار التصارى و.. - المال الذي يأخذونه منا نحن هاهما..

* * *

في الحمام التركي

سمع الرجال ضربات المدفعية من سفينة منعزلة، فحملوا بنادقهم وتأهّبوا للقتال. «كان الله للجميع بلطفه وستره!» ظنّت إيزابيل أن الإسبان قد عادوا فأحرقت كل ما في الدار من رقوق وكتب. بعد أيام هدأت جمعة الهجوم، قصدنا ضريحًا كسنام من الطوب والقش والملاط الأزرق، مُنخفضٌ السقف. هناك أوقفت شمعةً، وجلست تتمسّح بجدار القبر. في الجوار متضرعاتٌ، سحرةٌ، امرأةٌ عاقرٌ وصبايا. قالت:

- تبيّن أنّ الرجل الذي أحرقته في مخزن الأقمصة حدادٌ قذر.رأيُهُ مرآتٌ مُلطخاً بالسخام. يُسمونه الصّراوي؟ أُسرَ وتمَّ تحريره في كوبنهاغن. يتطوع هنا في كلّ استدعاء للحرب.

- لقد ذهبَ إلى الجحيم.

خرجنا من الضريح خشية أن نلفت انتباه المتضرعات بعدما تزاحمن. وأنا أحكمُ إغلاق الحايك سرُّ خلفها على عجل. لكرتها:

- أحدهم يلحق بي.

- أيكونُ أحد إخوة الصّراوي؟

أسرعنا الخطى. صادفنا وفداً في طريقه إلى البasha لرفع المظالم. اغتنمنا الجلة للتسلل والإفلات. دفعوني، أدخلتني إلى الحمام التّركي، وسط مجموعة من النسوة.

كان حماماً عتيقاً ورثه الآغا مصطفى. رأيت النسوة والصبايا يتخلّصنَ من الحايك والعجار وغطاء الرأس الداخلي. قمن برص سلالٍ مُغطّاةً بشرشف أبيض، وأخرى بشرشف زهري. بعضها

يحملُ الحلوى وبعضاها الآخر يحملُ الملابس والزّيوت والأمشاط واللُّوف والطَّاسات النّحاسية والفضيّة والصابون والبخور، لرَّد العين والحسد. في سلاِلٍ أخرى ملابس أطفالٍ، أقمطة مواليٍ، أعشاب مجففة معقوفة في مناديل يتم دسها بين الثياب المطوية لتعطرها.

ثم شرعن في خلع ملابسهنّ. أقبلتْ أخرىاتٌ نصف عاريات، تنحدرُ من أجسادهنَ المُتورّدة قطرات ماء، ويتضاعدُ البخار وقد خرجن لتوهنهنَ من حوضٍ رخاميٍ لل المياه الساخنة. مرّت صبيتان تتضاحكان، صحبهما صوت قرقعة لقباب خشبيٍ. استيقظت الرغبة في جسدي. ارتبتَ، فلم يسبق وأن رأيتُ هذا العدد من الجميلات شبه عارياتٍ. لكزتني إيزابيل لأكفَ عن استراق النّظر. فاجأنا صوت حادٌ:

- انتظرا، أنتما، لا يُسمح بدخولكم، إنه رجلٌ!

- مَن؟ من تقصدين؟ نحن!

- أقصدكمَا أنتما. أنتما.. أنتما، وليس أنتما. انتظرا إلى هذا الولد، إلى هذا الزّاغب، أستطيع إمساكه، إنه شاربٌ، إنه رجلٌ إذن ولا يُسمح بدخوله وسط النساء، آخر جاهٌ حالاً!

ثم التفتَتْ إلينا حاملةً بيده كيس الحمام الخشن المُقشر المصنوع من القماش الكاشط ومنشفة في يد أخرى: «تقدّما أنتما!»

- نحن؟

- نعم، نعم، أنتما... لا، ليس من هناك. هناك بيوت الرّاحة وبيت النار. الأحواض الرّخامية الصغيرة من هنا والحوض الكبيرُ من هذا الاتجاه، هيا اخلعوا الحایك والعجار.

ردت إيزابيل بنهاية:

- لقد نسيت حاجياتي. أمرت خادمتى بجلبها، لذا سأنتظرها هنا.
انصرفت عنا لتدعيلك الأجساد البضبة، وحرس الحاجيات ورفع
بقايا الطعام. امتعن لوني وجف حلقى. أحكمت إغلاق الحايك
وبقيت واجما. دخل موكب من النساء، يصحبن رفقتهن عروسًا.
ارتفعت الزغاريد والأغانى والدفوف. أخذت الصبايا في لف منشفة
بيضاء على صدرها تغطى جسدها وتكتشف عن ساقيها فقط. أما
النسوة الأكبر سنًا، فكن غير مهتممات بسترنوهودهن.

انهمكت النسوة في تحميم أطفالهن. «قُم يا ولد، تعال إلى هنا،
مد ذراعيك. افتح قدميك. أرني أذنك المتّسخة!» تملأ الطاسة بالماء
الساخن، تضيف إليها من السطل القليل من الماء البارد، ثم تفرّغها
دفعه واحدة على رأسه. تعيّد فعل ذلك مرة، مرتين، ثم تضع الصابون
على رأسه. يتسلل إلى عينيه فيتقافز الماء. تقرّب وجهه من السطل
وتفرّك عينيه. «شّشّش خلاص» مقابلًا لها نساء يصبّغن شعرهن
بالحناء المخلوطة بمنقوع الكراوية.

شرق القاعة الفسيحة، اشتعلت شموع مُعطرة، ارتفع الغناء
مع قدوم طبق الحنة والمخدّات المُطرزة. «حنة يا حنينة»، وضعت
العجوز على يد العروس ربطًا، بعدها دارت بطاسة الحناء المعجونة
باليض وماء الزهر. وأخذت ترسم دائرة في أيدي الصبايا ليتزوجن،
مُهدية كل واحدة بوقالة، وهي حكمة أو بيت شعر. بعدما طافت
بلغت العجوز إيزابيل.

- لا، لا أريد فأنا... أنتظر خادمتى و... .

- أعطني يدكِ، ستجفّ قبل عودتها. (يا العَدْرَه، فَالَّذِي يُقُولُ، لَالله
يا لَالله، يارِيش النَّعَام، يَا اللَّهِي مُرْبَيَةٌ فِي لُقْطِيفَه وَالرَّخَام، مَلِي يُشُوفَكَ
حَيْجَبَكُ وَمَا يَبْقَى لُو مَنَام. رَغْرُونُ..)

تراجعتُ خطوتين. أخذتُ العجينة المُخضرة من الطاسة بسبابتها
وفرّتها دائرةً في يد إيزابيل. أخذتُ قدرًا آخرًا وطلبتُ يدي. أحكمتُ
إغلاق الحابك على جسدي. سارعتُ إيزابيل قائلةً:
- إنها فُدوَى، قريبةُ خادمتِي. مذ توفي زوجها ما عادت تقربُ
الحناء أو الكحل.

انصرفت العجوز إلى أخرىات. ارتفع ضربُ الدفوف وتصفيق
الأيدي وانطلقت الزغاريد، «يُو.. يُو.. يُو.. يِي».

قالت إيزابيل:

- من الذي يتبعك !
- لا أدري.

ظلّت مرتعشةً لا تتحدى، خشية أن تنفضح. شردت لحظاتٍ
أفكّر. هل ستُسحب الفرنسياتُ هذه الحمامات؟ هل سيهدّمها بونبارت
أم سيحتفظُ بها؟ ثم بدأتُ أفكّر في ذلك الرجل الغامض الذي
يتعقبُني. أيكون ذلك المُتمرّد الذي آويته ببغاءٍ ليلةً كاملة، دون أن
أعرف له اسمًا أو مدينة يقيم فيها؟

ثم... فكرتُ في إخوة الصحراوي وقبيلة عثمان الملياني وفي
كل الذين قتلتهم، فكدتُ أفقد صوابي. هدأ في الخارج الهرج والمرج
فتسلّلنا بأعجوبة دون أن نكون قد نجينا تماماً.

قائد الزيل

تسلّلتُ إلى الأتلييه، فسلّمتني خداوج الفرنساوية الحايك بعد تلفِ القديم وأكثر من عجار، حتى لا أشتريه من السوق فأثير الشكوك ثم افترقا.

مررت أيام أخرى سعْتُ فيها للوصول إلى خيّاطات القصر. تقدّم على قائد الزيل لتحصل منه على النفايات الورقية القادم من القصر أو الديوان أو دار الماليجي أو آغا الصبایحية أو غيرهما. أقنعته أنّها كانت تدفع لكل قائد زبل حتى تجمع الأوراق واللّفائف، تمسح ما عليها من حبر بدهان ابتابعه من جنوة، فتعودُ بيهضاء كما كانت، قبل أن يخطّ عليها الخطأط، ثم تعيد بيعها في سوق الوراقين في مارسيليا، ما يدرّ عليها الرّبح وقد ارتفع سعر الورق والجلود.

أفلحت اللّعينة في إغواهه وكسّب ولائه، فحصلتُ على ورقٍ تخلّص منها الخزندار، أمين المال، عشرةً تخلّص منها الخوجة. بعضها يعود للباش كاتب، قيد عليها أسماء الجندي ورواتبهم. بعضها الآخر كانت تعود للباش دفترجي، الكاتب الثاني.

منحتها ألف فرنك للحصول على المزيد. تسلّمت الأوراق المُكوربة بحدّر. فحصتها وأوصلتها إلى دار المراسل العسكريّ بينما لم يُسلّمني فرنسكا واحداً. هناك أبلغني أنّه بسبب المكائد أصبح الجنرال يؤمّن بأنّ الأتلييه صارت عيّناً على القُنصصية، تتطلّب الكثير بينما الحكومة مفلسة. يومها قررتُ إخفاء الخبر عن إيزايل حتى لا تهدّد همتها إلى أن يصدر الأمر.

رسائل شفهية

قابلتُ المراسل العسكري، حملته رسالة شفهية:

- حملت الكنوز ليلاً إلى القصر. يجتمع الباشا غداً الثلاثاء
كعادته بوزرائه. ويجتمع بالقناصل بعد الظهر.

- ماذا عن خزائنه؟

- خزائنه دهاليز تحت الأرض، يفتح بابها في صحن الدار
الكبيرة، حيث يجتمع الديوان. على باب الدهاليز ستة عشر نوبتجيا.
مفاتحها الوحيد عند البasha، يسلّمه كل صباح للخزناجي الذي عين
صبايحية جدد بعد المدخولات والمخروجات. فيها توضع العوائد
والهدايا وما يدفع من الدول والمدن والطوائف أيضاً.

ثم أضفتُ:

- اسمع، سيروذ الهولنديون البasha بالمدافع والعتاد وأربعين
شراعاً بحرياً وخمسة برميل بارود وبآخرة محملة بالحبار.
أخذ الأخبار وانصرف. عدت إلى داري، أشعّلت السراج.
حشوت غليوني بأوراق التبغ، أخرجت حلقةً من المفاتيح، اخترت
أصغرها، أزاحت السرير رفعت السجاد الذي يغطي الجدار، وفتحت
باباً خشبياً قديماً.

ارتفع صوت أزيز، نزلتُ السلم، بدأت الألشنابُ تثن، أسرجت
قنديلًا آخر وسرتُ وسط ممر قديمٍ مُغطى بأكياس الخيش، كان يقود
إلى ملجيء سري تحت الأرض، يستخدم متى قُصفت المدينة أو
تعرضت لحملة غزو. بلغت الصندوق حيث أحتفظ برقعي. فتحته،
أتىت بالريشة والمحبرة ثم أخرجت رقعةً أضفت على هامشها

ملاحظة. (الأغاباشي بمرتبة كومندان، الكاهية هو الكولونيل، الأغا هو الجنرال. حيث تُراعى الأقدمية في التنصيبات) طويتها.

فتحت الدفتر الذي أدون عليه رحلتي إلى مرسى الخرز وكتبت لأول مرة أن لبيتي سردار قديم. أشاع الأسرى أن المور والعثمانيين كانوا يدفونون في هذه الدهاليز نفائسهم وغلالهم. بعدما فرغت من الكتابة عدت أدرجني. صعدت السلم، أغلقت الباب الخشبي، أسللت السجاد، وأعدت السرير مكانه. لاحظت الطلاء المتهالك الذي سقط. أطفأت السراج وخلدت إلى النوم. لم تغمض لي عين، قمت مجدداً أغلقت باب غرفتي ولجمت السردار، ثم رحت أدون بحبر سري غير منظور (في الميناء، ثلاثة فرقاطات، مسلحة بخمسين مدفعاً. سبع سفن من نوع شبّاك ذات تسلیح متوسط. ستون زورقاً حربياً. غيلوطان، ومراكب صغيرة تحمل ستة عشر مدفعاً، يستعينون بخبير إسباني لصناعتها) ثم كتبت تقديرى للقوّات التي سنحتاج إليها للغزو. (... ثلاثون ألف جندي. خمسة آلاف فرس. مئة وخمسون قطعة مدفعية. مئة وعشرون مدفعاً لضرب الحصار. فرق مشاة، مكونة من خمسة وعشرين فيلقاً. فرقة خيالة، مكونة من تسعة سرايا. فرقة مدفعية تضم ألفين وخمسمائة رجل. إضافة إلى ألف وخمسمائة فارس، ألف ضابط مهندس. أمّا بحرّياً فتحتاج ثلاثة بواخر وستة فرقاطات، ثمانين حارقات وعشرة قوارب، خمسة سفن حربية، ثلاثة سفن بخارية وأربعين مليون فرنك أو يزيد) غيرت الشمعة التي كادت تنطفئ وواصلت الكتابة.

صديقى البربرى

الجزائر... حلمٌ طمح إليه جديّ قبل أن يُولد نابليون. أقبل جوان، الشهر الذي نُفضله نحنُ العسكريون للخروج في حملات الغزو. قبل أن يأتي الخريف برياحه العاتية فتقلبُ السفن. عادت سفينة الغُراب والرَّايس حميدو. ثم رست فرقاطة الرَّايس حاج يعقوب، سُبْك الرَّايس حاج محمد وعلي، وقارب الرَّايس قردورلى. انتشرت إشاعاتٌ عن عزم الباشا على أن يدخل تونس بجند المحلة. حاولتُ التَّبيّن، فنسعى ل تستحکم العداوةُ وتفرق الصِّفوف.

طفتُ حول دار السفن، رست سفينة الفهد، الوردة الذهبيّة، النَّخلة، الحصان الذهبيّ، وسفينة النمر. كيف السبيل لمعرفة أعداد مدافعها ورجالها؟ أعود وأدُون ثم أتوقف لأشير إلى نوع خشب كل سفينة. الزَّان، الصُّنوبر، الجوز، وأخشاب مستوردة. في المدينة ارتفعت أصواتُ المطارق. نجارون يدقون، وبناؤون يعملون بجد، وقد أمر مصطفى باشا بترميم الحصون وتكيير بعضها.

في إحدى الليالي بينما كنتُ منكبًا على إطعام الدَّواب، دخل عليّ رجل أربعينيًّا قويُّ البنية، أوقع بي وكبلني. استغربتُ قوّة يده الواحدة. سأله: من أنتَ؟ ماذا تريدين؟ فقدف بين قدميَّي نظارة المراسل العسكريِّ و ساعته. إلهي، لقد أوقع به أيضا. هالني ما رأيتُ. نظرتُ في عينيه ثم نظرتُ حولي، كان كالضّبع الجائع. غرس يده في حلقي، ثم سألني بالإسبانية؟

- ما اسمُكَ أيها الجاسوس اللَّعين؟

- جوانو... جوانو تيسياسترا...

ثم غبت عن الوعي بعدما وجه لي ضربة قاضية. بعد زمن أفتُ ممددًا على أرضية باردة. مكومًا لا أعلم كم مضى من الوقت على وجودي هنا. ملأ الطنينُ أذناي، شعرتُ بالألم في جسدي، تشبه كدمات ركل على المعدة والكلى. فتحت عيني أكثر، لسعني الضوء. دخل الرجل ذو اليد الواحدة يسألني بإسبانية تحمل لكتة إفريقية:

- جوانو تيسياسترا، هل يذكرك هذا الاسم بشيء؟

رفعت رأسي درجة. حصلت منه على الماء والطعام، ثم غاب. تبولت وتركت على نفسي خوفاً. عاد ليلاً، حاملاً بيده قنديلًا أنار به وجهي. منحني سطل ماء، لتنظيف نفسي. طلبت ملابس جديدة فألقى إلى بالحائك الذي كنت أختفي تحته. حمل مسدسي، جلس مقابلاً لي دون أن يقيّد يدي. أخذ يبرُّد بسكين قطعة خشب، ظل ينحتها ببطء بعدها أمسكها بكلتا قدميه. يتوقف، يقلب القطعة بيد واحدة، يتأملها بعينيه المسحوبيتين قليلاً.

كان مسدسي تالف السبطانة لم أرم به طلقة، لذا تشجعت وغافلتُه. استخدمت مرونتي للإيقاع بصلابته. حصلت على المبرد وأوقعته في الأسر. بدا هادئاً حكيمًا لا يتحدث إلا إذا دعيته.

- لماذا تحاول سرقاتي؟

- بل أنا هنا لأقتلك، لا لأسرقك.

- ولماذا قد تقتل تاجرًا؟

- لأنك مثل صديقك صاحب الناظور، عين من عيون الإسبان.

- ماذا فعلت بجثته؟

- أرسلتها إلى الإسبانيين.

- لكنه فرنسيٌ وليس إسبانياً!
- ومن يكترث؟ تمدون لهم يد العون. تُرزو دونهم بالإمدادات وتقاتلون إلى جانبهم. قبل سبع سنوات ونيف أوقعت بالكثير من الإسبانيين في وهران وكانوا فرنسيين.
- كيف... كيف بلغت داره؟
- إن الخبر يأتينا إذا تقلب العدو في فراشه، فكيف لا يأتيني خبره وخبرك وقد وقع صاحبك بين يدي؟
- و... تقتله هكذا دون محاكمة؟
- هل أنتظر محاكمته بعدهما قتل صاحبك رجلين أحدهما أخي؟
- لعلهما لصان قطعا طريقة.
- بل رجالان من خيرة رجالنا. تعرف عليه أخي، لممحه مرتين وهو يدخل غرفة الكومندان، أيام كان سجينا في مارسيليا. قاما باقفاله هنا وعرفا سره!
- ما اسمك؟ يبدو لي وجهك مألوفاً؟ ما اسم أخيك وصاحبه؟
- ما جدوى الأسماء!
- تقابلنا قبل هذه المرة أليس كذلك. أنا متأكد من أنني رأيتك قبل اليوم.
- رأيتني مراتٍ ومراتٍ، آخرها في الحمام التركي وسط النساء، ها ها ها... لا تخجل من الاختباء بين النساء!
- ما يُضحكك أيها التعس؟
- إنني لأعجب بحالك.
- ألن تُخبرني ما اسمك؟ وأين رأيتك؟

- كلا...
 - إذن سأسميك البربرى.
 - أخبرنى... ما الذى تكتبه كل ليلة؟
 - أتَرَاقِبُنى كل ليلة!
 - ما جدوى أن تعرف؟ حسناً، لُكْثَرَةٌ ترددك على سوق الوراقين
 عرفتْ أنكَ تخطّ وتنسخ!
 - أكتبُ مذكريات رحلتي. أصفُ يومي وأحوال تجارتى كما يفعل كل رحاله، فكيف تجزم بأنّي عينٌ من العيون؟ تعجّ المدينة بالتجار، كما تعج بالقوافل والغرباء والرّحالة من كل الأمم!
 - اسمع يا هذا، نعرفُ الغرباء جيداً. نحتفي بهم، نكرهم لكن نحترس أيضاً من السيئين منهم. وقد تبيّن أنك غريبٌ سيءُ السيرة، قذرٌ تقتحم حمام النساء!
 - سأقتلك بيديّ هاتين أيها اللعين.
 - سيعونك... ويحرّزن عنقك. إلهي، كيف يؤمن الباشا جانبكم! شعرتُ بالخطر وقد عرفتُ الكثير من الرجال هنا. وقد بدأ لي هذا الرجل فطناً لا يمكن خداعه، وأنه في الحقيقة من يُخادعني!
 - مهلاً، مهلاً، ألسْتَ الرجل الذي آويته قبل أشهر؟ كنتَ تهرّب البنادق في روث البغال لرجال سيدك ابن الأحرش؟ أكان ذلك أنت؟
 لكانه أنتَ يبدين أو لكأنك هو وقد فقد يداً!
 لم يُرُدْ... كان سهلاً على العثمانيين الذين يمتلكون المدافع والحاميات إلهاق الهزيمة برجالٍ لم يمسك أغلبهم سوى المناجل والعصي والخناجر.

- كيف؟ كيف هربت ليلتها بكلتا يديك وعدت اليوم بيد واحدة؟
أنت ذكر؟ أم أنك رجل آخر؟ ما عدت أدرى، أنت المور متطابقون،
تشبهون بعضكم بعضاً بشكل مخيف!

و.. مات خلق كثير!

توجهت السفينة الإنجليزية ماري إلى عرض البحر في الساعة
الرابعة. أصوات بمحاذة داري، شوهدت سفينة هولندية قرب شاطئ
الرصيف.

تذمر آخر:

- لم يعد يأتيها من الأناضول رجال شجعان. أغلبهم بؤساء، قتلة
وهاربون يتم تقييدهم هنا في سجلات الجندي!

أحكمت إغلاق النوافذ والأبواب، غابت أحاديث المارة؛
نزلت القبو حيث صديقي البربري، قمت بتجويعه ثلاثة أيام كاملة،
ثم أطعمنته وتركته ليتبول ويتبز على نفسه. منحته سطل ماء وقطعة
صابون.

- ما زلت عطِّن الرائحة، فما قصتك؟

- قصتي لا تختلف عن قصة مديتها.

- وما قصة مديتها؟

- قصة مديتها هي قصة جدي..

سددت لكمَّة قوية إلى صدغه ليُوقف التذاكي، ويتحدى دون
ممارسة الخديعة.

- وما قصّة جدك وجدة جدك أيها المعتوه!

- هاجم الأмирال دوكين المدينة، فسقطت أمام عينيه مائتا دار وسقط الجامع الكبير، قُتل خلقٌ كثيرٌ، انضم إلى السفن كمحارب فوقع في الأسر وعادوا به بعدما انسحب الأмирال وقد أقبل زمهرير الشتاء.

- ألم يقل لك جدك أنه كان يبيعنا بازدراء، بصلةً مقابل كل إسبانيّ!

وأصل الرجل سردهُ غير عابيٍ.

- فقد أبي أحد عشر أخاً في حملة دوستري، بعد الصلح ومعاهدة ترونفيل بأربع سنوات فقط. أرسل ما يملك من مال وكتب إلى قسنطينة. نقل ألف صاعٍ من القمح فقد تشَحَّ الأقوات. دمرت البومبات دار البasha، الجوابع، جزءاً من دار السفن والكثير من الدور. رفض دوستري التفاوض وأحرق المدينة. انتهت ذخيرته فولى عائداً، تاركاً خلفه خراباً لا يمحوه عشرون عاماً من البناء. أبي الذي دفعنا فديته وقع في الأسر مُجددًا. جاء الصلح وأعلن أنه سيتم شراء العسكر الأو Jac بمئة وخمسين قرشاً، وشراء البخارية بمائة قرش. دفعنا الكثير ل تستدلّ عليه، لم يقبل سيدهُ افتداءه. مررت الأيام وتمكن من الفرار بأعجوبة والعودة. كنتُ طفلاً في العاشرة ألهو وسط أخشاب لغرايين مُحطمة، لها مقادف ولا مقالع لها. كانت تستولي على سفتنا وآبائنا. مررت أيام سِلْم صحونا بعدها على حملة دانماركيَّة قبل أربعة وثلاثين سنة. حشد الأَمير كايس أسطوله. جاء صاحب الناظور من بووزريعة يصبح: «رأيتُ أربعةَ سفنٍ بحريةَ، يحمل كل منها سبعين مدفأً. غاليوطة تفجير وفرقاطتين، وأربع ناقلات، راميات قنابل وحاملات

قذائف». ثم رفع أكثر من سنجاق، علمًا أبيض للسلام. هرعت إلى ساحة الحرب، وانتظرنا مفاوضات القنصل الفرنسي رسول الباشا إلى الأميرال. شرع الدانماركيون في رمي بومبات تسقط بعيداً بمقدار رمية مدفع غرباً وشرقاً. بدأ ال bombarde في رمي القذائف عشرة أيام متواصلة، فقدوا خلالها العتاد والرجال وفقدنا. أسر أبي مرّة ثانية. طلبو الهدنّة، فرفضنا ولاحقنا مراكبهم. بعد سنتين عُقد الصلح. هرعت إلى الميناء أرافق دخول أربعين مدفعاً حديدياً وأربعة برونزية وخمسين شراعاً والكثير من الحبال والأخشاب جلبها الأميرال هوسلند مع ستين مليون فرنك من أجل الصلح. عاد أبي ابتهجت ظناً بأنّ الحرب انتهت، وأنّ أبي لن يغيب بعد، لكن تجددت معارك أخرى غاب فيها أبي وغاب خلق كثير...

البومباردي

قال البربرى:

- حين حشد الإسبان في ميناء قرطاجنة وبرشلونة وقادس، كنت في الخامسة عشرة. أقبل الأميرال أورييلي، رسول الملك كارلوس الثالث، لهزيمة الداي محمد عثمان باشا. يومها على نداء الجهاد دفاعاً، تحرك صالح باي ومحمد باي الكبير. بعد أيام ووصلت الفرق من كل بайлوك. ظننت أننا هالكون وقد بدت السفن قلاعاً راسية. أحصيت عشرين ألف مقاتل وخمسين سفينة. ساروا مكتشوفين لكثتهم. توزعنا على ثمانى ثكنات داخل الأسوار. حين رست طلائعهم أجبرناهم على النزول في مصب وادي الحراش.

اضممتُ إلى فرسان صالحِ باي بين وادي الحميذ والحراش. أتنا
الأخبار من جهة الجنوب الغربي حيث مصطفى خوجه الخيل وقائد
فرق الصبایحية بناحية باب الواد. رفض صالحِ باي الدّفاع وأمر
بالهجوم، طوقنام، لم يستطعوا التقدّم فبقوا في مساحات ضيقة
على الشاطئ. التقى العساكر بالعساكر. هرب الكثير رفقة جرحى
حملتهم القوارب. رحنا ندفن القتلى ونجمع الغنائم،أخذنا نهتف
باسم صالحِ باي والدai محمد عثمان باشا. لقد أنزل أوريلي، التسس
جنده في المكان ذاته الذي أنزل فيه البرادر شرل كان عساكره قبل
قرنين كاملين وأربعة وثلاثين سنة. الإسبانيو لا يتعلّمون الدّروس،
وأنتم الفرنسيس مثلهم لا تتعلّمون.

- أنا إسباني ولست فرنسيّاً!

- بل فرنسيّ مثل صاحبك.

- إذن أنت جندي لا يخطئ بين فرنسي وإسباني؟

- بل مجرد صيّاد، كنت أود لو أكون بحاراً أو أميراً من أمراء البحر. فقدتُ مركبتي فعملتُ في مقهى الأوجاق. كنتُ أشتري من العطارين الأشياء بالرَّزْعِ، لِقَلَّةِ الدِّرَاهِمِ فِي يَدِيِّ، بَيْنَمَا تَكَثَّرَ فِي يَدِيِّ الْجَنْدِ الَّذِينَ أَشَارَكُهُمْ فِي كُلِّ مَعْرِكَةٍ. لَكُثُرَتْهَا مَا عَدْتُ أَذْكُرُ إِلَّا بَعْضُهَا. كَتَلَكَ التِّي نَشَبَتْ بَعْدِ عُوْدَةِ الْأَمِيرَالْ أَنْطُونِيوِ بِيَارِثِيلُو بِإِسْپَانِيُولُ فَوْقَ سُفُنِ اللَّنْجُورِ. فَاقِعَ عَدَدُهَا السَّبْعِينَ سَفِينَةً، أَكْثَرُ خَفْفَةٍ وَسَرْعَةٍ. عَلَى ظَهُورِهَا مَدَافِعٌ تُرْسَلُ قَذَائِفٌ لَمْ نَعْهُدْهَا مِنْ قَبْلِهِ، صَنَعُهَا الَّذِينَ أَنْطُونِيوِ بِيَارِثِيلُو. شَاعَ عَنْ قُوَّتِهَا قَدْرُهَا عَلَى تَدْمِيرِ بَرْجِ السَّرْدِينَةِ وَالْبَرْجِ الْجَدِيدِ وَبَرْجِ عَمَّارِ. سَاهَمَتْ فِي إِخْلَاءِ الْمَدِينَةِ،

رَحَلَنَا الأُسْرَى إِلَى التَّيْطِيرِي لِحَمَّاِتِهِمْ. بَعْدَ يَوْمٍ وَصَلَ جَنُودُ قَسْنَطِينِيَّةُ وَالْغَرْبُ وَغَيْرُهُمْ. خَرَجَ بَعْضُنَا فِي السَّفَنِ فَخَرَجْتُ. تَسَاءَلْتُ، مَاذَا نَفْعُلُ مَعَ هَذَا الْلَّنْجُورِ الَّذِي هَدَمَ نَصْفَ الْمَدِينَةِ؟ ظَهَرَ لِلْحَاجِ مُحَمَّدِ الْقَبْطَانِ أَنْ تُعْمَرَ زَوَارِقُ كَبِيرَةٍ، أَفْرَغَنَاهَا مِنَ الْجَيْرِ الْمُعَدِّ لِلْبَنَاءِ ثُمَّ جَعَلَنَا فِيهَا الْمَدَافِعَ. لِمَا تَقْدَمَ الْلَّنْجُورُ خَرَجَنَا إِلَيْهِ مِنَ الْمَرْسِيِّ. بَقِيَنَا كَذَلِكَ لِأَيَّامٍ حَتَّى وَلَوْا مُدَبِّرِيْنَ. نَجَّتِ الْحَصُونُ وَالْقَلَاعُ وَهُدُمُ جَامِعِ عُثْمَانَ بَاشَا. آه... لَا يُثِيرُكَ أَنْ يُهَدِّمَ جَامِعُ عُثْمَانَ بَاشَا أَيَّهَا الْفَرْنَسِيِّ. بَلْ لَا يُثِيرُكَ أَنْ تُهَدِّمَ الْمَدِينَةُ كُلَّهَا فَوقَ رَؤُوسِنَا، أَمَّا سَكَانُ الْمَدِينَةِ فَحَزَنُوا أَشَدَّ الْحَزَنِ.

- هل غنمتم سفينه من اللنجور؟

- أجل، صعدنا على ظهرها، عاينها معلم السفن وعدد من الصناع، أمر الباشا بجمع المهرة منهم، وصنع مراكب تتفوق عليها.
- وهل أفلحتم في صنعها؟

- بعد سنة ما كاد الباشا يُصلح ما وقع من خراب حتى عاد الأميرال أنطونيو دو بارثيللو ومعه مئة وثلاثون سفينه، إحدى عشرة سفينه من نابولي وثمانية من مالطا. أمّا نحن كنا قد صنعنا خمسين سفينه تشبه اللنجور. وقع قتالٌ كبيرٌ، بدأ مدافعينا في الانفجار فجأةً، بينما عجزت عن احتمال ارتفاع حرارتها عاليًا لكثرة القذف. فصرنا نخافُ إطلاق البوomba خشية انفجار المدافع فتفرق السفينه ونهلك طالبنا بمدفع نحاسيّ، هرب بعضاً ورفض آخرون مدفع الحديد، توَلَّتْ أَحَدُهَا ثُمَّ...

- إذن أنت البوombaجي!

- ثم وقعت في الأسر بين أيدي فرنسيس، بعدما نجوت من الغاليات الإسبانية في زورق صغير.
- الفرنسيس أم الإسبانيول؟

- فرنسيس يقاتلون إلى جانب الإسبانيول. أرغمت على التّجديف. حاولت الهرب مرتين فسجنت. انتظرت تبادل الأسرى يوماً بعد يوم. أطلق الباشا سراح أسراكم بعدما تعهد القنصل بإطلاق سراحنا. راح الجنود يختارون بيننا المرضى وكبار السن والعاجزين عن القتال وركوب البحر مجدداً. بينما تم إعادتنا نحن إلى الزنزانة. قضيت هناك ست سنوات كاملة ثم تم تحريري بعدما بثروا يدي. أحدهم وشى بي. بعد ربعين قصدت وهران بيد واحدة. التحقت بمؤخرة الجيش بعدما رفضوا تقييد اسمي في سجلات الجند. حاصرناها ورفضنا التفاوض مع الإسبانيول. توفي الداي محمد بن عثمان باشا، فبكيت كما لم أبك على يدي التي بثرواها. اعتلى الداي حسن كرسي الباشوية. زحفنا نحو الحصون ثم استدرجناهم وحاصرناهم. بيدي الواحدة هذه خربت المسالك المائية التي تومن المدينة مع فريق تولت المهمة. عندما فرغنا رفع علمنا فوق القصر الأحمر. فاوض الإسبانيول قبل الانسحاب للحصول على امتيازات تجارية، ضرب زلزال الأرض تحت أقدامهم، تهافت الأسوار فوق رؤوسهم. بيدي الواحدة حفرت وحفرت رفقة الرجال. تمكننا من إحداث ثلمات في الأسوار. تجددت المعارك وتخلّفت إمداداتهم... ثم... بدأ الإجلاء، صاح البراح: «أعاد الإسبانيول مفاتيح وهران الذهبية، وقتلتين مملوءتين بماء عيونها». هكذا دخلتها بيد واحدة،

لم أحتجْ كلتا يديّ لمحاربتهما فكيف أحتاج إليهما لطردك أنت يا فيكتور؟

- إذنْ تدركُ منذ البدء أنني فيكتور دي أوغو ولستُ جوانو تيسياستر !!

- تماماً كما أعلم يقيناً أنك لست لويس ديتريتش يا صديق الرئيس، ولا حتى فيكتور دي أوغو.

- ومن أنا إذن برأيك !

- لا أعلم، كل ما أعلمه أنك عينٌ من العيون التي يُرسلونها.

- إذن.. لأنك رجلٌ حذق سأخبرك شيئاً من قصتي، ما دمت قد سردتَ عليّ قصتك كلّها، دون أن أدفع فرنكاً واحداً. أنت أفضل من ذلك الزنجي. آه.. أنت لا تعرفه، إنه صديق قديم رأيته آخر مرّة في سيدي فرج هاهاما.. ثم افترقا. إليك قصة جدي الطيب. وضعه الرئيس ميزو مورتو مع عددٍ من البحارة الأشداء على فوهات المدافع، ثم أمر بقصف سفتنا لتصل أجسادهم ممزقةً، بعدما أندر الأميرال دوكين. قبل أن يقع في الأسر، كان جدي صياد مرجان جيد. لجأ إلى القنصلية وقد انقضت أيام السلم وأقبلت أيام الحرب. اتهم القنصل ومن معه من الرعايا بإرسال الإشارات لسفتنا الواقفة على مشارف المدينة. غادر دوكين وقد أقبل الشتاء، وغادر تروفيل. جاء دوسترس ليتقمص صيفاً، متعهداً بأن يشنق على الصارية عثمانيا مقابل كلّ فرنسيٍ قُتل في فوهة مدفعٍ لكنه هُزم. أمّا أنا يا صديقي البو ماجي فقد كبرتُ وأنا أحلم بالحصول على تلك المدافع. وما سعيت يوماً لقطعِ يد البو ماجي الذي قذف بأجسادهم، أريد المدافع فقط. حسناً،

قد يطُولُ بنا الحديثُ لذا تناول بعض الطَّعام، لقد شحب وجهك
وخفَ حلقك. ولك مني هذا العهد، سأصنع لك يدًا خشبية أقوى من
يدك فلا تبتئس، لكنها لن تتحرّك هاهاماها. هيَا كُلُّ، خُذْ هذه اللّقمة من
يَدي فهِي بمثابة يَدِكَ التي يَتروها، هاهاماها...

قَشَرْتُ لُهْ تفاحَة، بعدما فرغ من أكلها غطَيْتُ فمه بخرقة، وما هي
إلا لحظة حتى انغرس السكين في قلبه. تفجّر صدره بالدماء، أطلق
زفةً أخيرةً ظلت مكتومة.

جحظت عيناه ثم هوى أرضاً.

قطعت يده الأخرى، قائلًا:

- كان على الإسبانيو والفرنسيين الحمقى الذين أسروك قطع
كلتا يديك!

الكاتب روبيرو بلوش

قطيعٌ من الآدميين يصلون المدينة، وخمسين مركباً محملًا
بالأسلحة والمؤونة، بالأرقاء والمسبيين. آتى بهم الرئيس عصراً.
تم اقتيادهم موثقين الأيدي والأرجل، يسيرون ببطء من الميناء نحو
السجن، سيراً على الأقدام وسط الحراسة. في الجانب الآخر من
المدينة اقتاد اليولداش عدداً من المتمرّدين في قسنطينة والقبائل
والنّمامشة. رفعوا المظالم إلى البasha ثم ثاروا على جنده. فسخ
اليولداش لحومهم عن أجسادهم، ورصفوا رؤوسهم فوق الرّماح على
البوابات عبرة. جمعت السّواطير والأمعاء، ولم يبق سوى دلاء من
الماء تُسكبُ على الدّماء.

انشغل المارة عن الدماء المُتقاطرة من الرّؤوس بصوت البراح
الذي صرخ عاليًا، معلناً عن عقاب من أخفى أسيراً أو ساعد هارباً.
أغلق الجنود الشوارع والدّروب، وأخذوا يُفتشون البيوت بيّنا بيّنا.
يصدعون على السطوح يلاحرون الهاريين. أوقعوا إثنين تخفياً في
مئذنة جامع البحرياني، وأمسكوا ثلاثة في مساقى الجبانة.
 بينما تُنصلٌ إيزايل لصياغ البراح شقت الباب، هرع إليها أسيير
هارب ودخل دارها...
 - طنينٌ يملأ أذن الباشا.

- ويقولون إنه طنينٌ كالرياح الهوجاء تعصفُ برأسه.
في غرفة ماكينة الخياطة غرفت التسوة في الحديث. ارتبت
إيزايل فصرفت الزّائرات على عجل. تحجّجت بمرضٍ ألم بها. وما
إن فرغت الدّار حتى جلست أرضاً وقد سرى بها الذّهول والخوف.
- أنا روبير بلوش. كاتبٌ فرنسيٌّ، هاربٌ من الأسر. يقولون إنّي
قتلت نفساً، أقسم يا سيدتي بأنني كنتُ أدفعُ عن نفسي!
- كيف تمكّنت من الهرب؟

- تتحدّثين الفرنسية!
- بل أنا فرنسية يا روبير.

وضع يديه المرتعشتين على مرقيها ودار حولها دوتين مبهجاً.
ثم رفعها بخفة عاليًا عاليًا، غير مُصدقٍ ما سمعته أذناه:
- فرنسية؟ فرنسية؟
- أجل، أجبني الآن كيف هربت؟
- صنعتُ من ملابس السجناء حبلاً للتجاهة.

- لماذا لم تلتحق بأحد المراكب سرّاً وهربت؟
- وصلت مرة إلى خارج باب الواد، عندما هممت بقذف نفسي داخل مركب إسباني شاهدت سفينة شبّاك قادم.
- وهو يتّحّسّن رقبته، مَنَحْتُهْ قندورة رجالية قامت بخياطتها.
- اهلاً، تخلص من ثيابك. أنت في حمايتي.
- أختفي يوماً فقط أو يومين، تهدأ المدينة وأغادر.
- ما صنعتك؟
- شاعرٌ و... كاتبٌ في الجريدة؟
- وهل يقع الكتاب والشعراء والصحفيون في الأسر!
- وقع اليوناني بيار جيل، الإيطالي إيمانويل أراندا دوبروج، الهزلي العظيم رونيار، وذلك الإسباني المدهش سرفانتيس، فكيف بي!

قضى روبير ليلته في سريرها. وضعْت يدها على جبينه، رسمت بأخرى الصليب على صدرها، وصلّت لنجاته. تذكريت بوقالة العجوز ليلة الحناء ونبوءة عثورها على الحب، ابتسمت وغفت إلى جانبه. مضى يومان صار بعدهما الرجل معقل رجائها، أحال ظلمة أيامها بهجة. استلهمت بقربه الصبر على ما منحها الزمن من نكبات يلاحق بعضها بعضاً.

في ليلته الثالثة قام مرة حول النافورة يسير بخفة ويتلو أشعاراً فسقط. شج رأسه. حين أفاق أفرغ ما في جوفه. تقيناً دماً فهالها ما رأت. هرعت نحو طبيب أجير قدم منذ أيام قلائل إلى الدار الباريسية. حزنت على ما احترق في دارها من كتب كانت لتحمل في بطونها

خلاصه. مخطوطاتٌ منسوب لجالينوس، أخرى منسوبة لأطباء سريانيين، قبط وعرب. كتب نُقلت عن السيوطي والجاج التلمساني ومحمد بن حاج الكبير وابن بيطار وكوهين العطار وداود الأنطاكي، وعبد الرزاق ابن حمادوش، أطلقت اللعنات والشتائم. باكراً قصده، ثم قالت:

- جئتك في أمرِ أيّها الطيب العظيم؟

- ما الأمر سيدتي؟

- أدفعُ لك ما تطلب ليظلّ أمر المريض سرًا.

- ولكن... أنا أخشي معالجة الجزائريين، خاصة العثمانيين، عقوبة الخطأ رأسى. كما أمتنع عن معالجة الهاربين والأسرى.

- ومن أبلغك هذا، وأنت القادرُ لتدرك!

- أنا حفيد الطبيب روبار دوروال هيروسوم، الذي حكم عليه بالإعدام بعد عملية لإزالة بياض العين لمريض تركي هنا. دفع عنه القنصل رونيه لومار الدية، فمن يدفع ديني إن أخطأت؟ هناك أطباء أسرى أو أجزاءً مثلـي لدى المؤسسات والسفن الأوروبيـة، يمكنـك اللجوء إليـهم.

- وهل في أيامنا هذه أطباء أسرى؟

- الكثيرون يا سيدتي، يُجبرون على خدمة أممـاء العثمانيـين. كنتُ قد قرأتُ عن الجراح مونـيه فـرانـسوـا، كـريـت شـارـلـ الذي كان موظـفـاً في المستشفـى الإـسـبـانـيـ، وأـلـخـانـدـرـوا سـانـمـيلـانـ، وـمانـوـيلـ أنـطـونـيـو سـوـارـيزـ، وـفـليـكـسـ أنـطـونـيـو مـورـالـيسـ، وـسـبـرـيـانـو كـانـادـاـ، وـكلـهـمـ أـسـرـى إـسـبـانـيـونـ منـ الحـكـماءـ.

فهل أخذ العثمانيون عنهم سرّ الأشربة والأدهان؟ وأين يمكن أن
أعثر على كتب تحمل شيئاً من أخبارهم؟
ما كان لإيزابيل أن تترك روبرت خلفها سقىماً فيعتقلونه ويتركون
جثته ينهشها سباع الطير. ظلت تبحث يومها عن طبيب لمريضها حتى
بلغني الخبر. بعدما جنَّ الليل تسللت إلى دارها. استبقيتُ الوقت الذي
أزورها فيه عادة بساعات. بعدما قضيتُ نهاري في التنقل بين الزبائن
والشركاء والتجار. تمت البيوع، كُتبت العقود، دُفعت الأموال،
وُشحنت الصناديق والأحتمال على ظهر السفن. طرقتُ بابها وقد
بلغتُه، فتحت ناظلة التي بدأت أشك في ثقل سمعها.

- من أنت؟ هل قلت شيئاً؟

أحكمتُ إغلاق الحايك ورفعتُ العجار. امتنعتُ عن الكلام
فظهرت إيزابيل. صرفتها وأدخلتني إلى الغرفة حيث كشفتُ عن
وجهي. عادت خطوتين نحو الوراء، غلقت الأبواب والنافذ. راحت
تحدثنِي ثم تصمت كلَّما سمعت صوت جنود أو عربة عابرة. سألتها:
- لماذا تبحثن عن طبيب؟

- أترافقني!

- أتوَّجهُنَّ إلى سيدك الأسئلة!

- بعدما احترق ما جمعتُ من كتب... أحاول جمع أخرى و...
كتابة تقرير عن أطباء المدينة...
- تقرير؟ ومن كلفك!
كمْ يُحاول إخفاء أمر أرسلت في الحديث خشية أن تنفضح
فأعرف ما تخفي.

- أتدرى، في قسنطينة وتلمسان وهران وهنا أكداسٌ من الكتب علينا التوصية بجمعها، قبل أن تضيع بين أقدام الجنود أو تلتهمها نيران الحرب.

تنحنحت مستدركةً:

- ألم يخبرك العسس والجواسيس؟ بالأمس، بالأمسِ فقط زرْت طيباً من المور وقد ذاعت شهرته.

تركتها تسترسلُ في محاولة خداعي. منحتها زجاجة نبيذ، أفرغتها في كأسين، وهبها أحدهما. لم تدنه من شفتيها. ارتشفتُ بينما قالت:

- إنه طبيب غامض أشك في أمره. خرج مرّاتٍ إلى الجبال لإجراء تجارب على رمي البويبة وزنها وصناعة بارودها. ترك خلط المشارب وشرع في وضع تأليف عن علم البويبة أي القذائف!

- وماذا عرفت عنه؟

- داوم على الخروج إلى الضواحي، تعلم الرّمي والمقاسات والأحجام وشرع في درس ارتفاع البويبة وطريقة عجن بارودها وتعميرها ورميها وصار يقول: لقد صحت يدي في هذا العلم!

- أين داره فائزوره؟

- لكن الجنود رموه في السجن. ذهب ليعالج الباشا مرةً بعد ما بلغه مرضه فطرد. لقد أغناني الله عن لقياه، ظلّ يردد. ثم كتب قصيدة هجاء طويلة هجاه فيها.

- لم يبلغني خبر الرجل، أحصلت على تأليفه في علم البويبة؟

- اقتحم اليولداش داره، أتلفوا إسطر لابا نحاسيًا يحدد به أوقات صلاته والقبلة. تبول أكبرهم على مخطوط دون فيه أخبار شيوخه،

وما نقل من كتب الخوارزمي والروداني وابن سمح والبيروني وغيرهم. ثم أحرقوا مكتبه فاحترق له كتابٌ قضى في تأليفه أربعين عاماً قسمه إلى ثمانين باباً. نقل إليه المرض وعلاجه. بدأه بفصل عن مرض الباشا، المعدة وأمراضها وعلاجاتها. فصلٌ عن الوباء، وآخر عن التوليد ثم بقية الفصول. نقل عن أمهات الكتب وأضاف شروحًا عن التواريخ وعلم الملاحة، والقوس الذي تُرصد به الشمس. غادر مَرْزُوقُ بيته نائحاً، يومها بدأت خصومته مع العساكر.

فتحت إيزابيل لفافةً من الجلد فقرأت:

- اسمعْ، اسمعْ، (النّار درهم والهواء نصف درهم والماء ربع درهم والتّراب ثمن درهم، النار أبيض والهواء أحمر والماء أخضر والتّراب أسود).

كنت قد أرسلتُ حسن إلى دار مرزوق هذا، يجمع أخباره. بعدما بلغني أن في داره إسطرلاباً نحاسياً. تبيّن لي أن الرجل لا يجيد صنع العدسات أو المرايا المُقعرة. لم تبلغه اكتشافات نيوتن التي هزّت أوروبا، يجهل الساعات ذات العقارب والتيليسكوب الذي صنعه غاليليو. تأليفه أقرب إلى الهرطقة. أخبر تلاميذه أن «النّار تُركيٌّ اللسان، والهواء عربي اللسان، والتّراب هندي اللسان والماء فارسي اللسان!»

حين أراد تلقي علم الأبدان، وجد بعض التّاليف والرسائل والأرجيز في الطب. نسخها ثم حفظها. قال حسن:

- ثلاثة أيام من هذيان الحُمّى، يخرج الهواء من صدري ولا يعود... أدركتني يا سيدتي.

منحته أجرة طبيب جيد ثم غادر إلى دار مرزوق الحكيم. عاد ليعلو صوت كبكبة داره، كان كمن يقلب الشيء بعضه على بعض. «عليك بالشرب من ماء بئر سيدي عبد الرحمن». قال مرزوق، ثم طلب منه التعلق بالتلميحة، وشرب الكمون أو تعليقه مع لؤلؤ أو مرجان حرق، وشرب أعشاب مدقوقة ما اعدت أذكر لها اسمًا. أمر عاقرًا بتعليق عقربٍ ميتٍ جعلَ في خرقه. هكذا تحملُ ولن تسقط أبداً ولو كان من عادتها الإسقاط، مع غلي نبات الشندورة وشربها كل ثلاثة أيام.

قال حسن أن الرجل يعالج الجدرى بحفظ المريض في حالة دفء وإعطائه حبات من الكرميس في العسل، والحرق بالحناء، ولدغة العقرب والأفعى بوضع البصل والتوم مكانها. رفض علاج العساكر لأنهم أتلفوا كتبه، رماه أحدهم أرضاً واضعاً قدمه على حنكه وقد كان عتلًا غليظاً، نتفوا الحية وشواربه وهم يتضاحكون، ثم جرّ رقبته. أسلم الروح وبرد الجسد.

تقاطر الفقراء على جثته وصاروا يأخذون من دمه ويلطخون وجوههم وأنفسهم حسرة وحزناً. بقيت رمته معلقة على باب داره بلا رأسٍ ساعة كاملة ثم ألقى بها الجنود أرضاً إلى التراب. اندفع الحمالون ورفعوه فوق أكتافهم ودفنوه ولم يحضر جنازته سوى كل غريبٍ مثله.

غادر العساكر نحو بيت طلابه وكان بعضهم من مُريديه وأعوانه. عندما لم يجدوههم أخذوا أهاليهم وألقوا ببعضهم في جوف الساقية. بينما فرَّ من أتباعه خمسة عشر نفراً. جمدت عروق حسن لهول ما رأى. راحت أضرب يداً بيد ثم كركرت ضاحكاً. إذ كنتُ أدرى أن

البلاد قد خلت من الرجال الذين يقدحونَ الفِكَرَ ويُثِيرونَ العقلَ.
قرأت إيزابيل مجداً:

- النّارُ بيت السّلطان، والهواء بيت الوزير، والماء بيت العمال،
والتراب بيت الرّعاعيَا والعساكر والدّراوיש.

لحظتها زاد عزمي على معرفة ما تُخفيه بثرتها. فلم يُثْرني ما حملته لي من أخبارٍ. لازمت الوراقين دهرًا، جمعتُ أخبار الشّيوخ والفقهاء والعلماء وتبينتُ أنهم لا يعنونَ بالطب والفلك والرسم والعمارة. لا يكتبون عن علوم الملاحة والكيمياء والجراحة، ولا يؤلفون ولا يضيفون لتأليفهم القديمة. الكثير منهم مهرطقون، سحرة، يستعملون التمام لبلوغِ الأرواحِ الشّريرة ولإيقاع الهزيمة بالأعداء وجلب الحظّ للقادة بعد التبخير بالجاوي والعنبر. يدعون معرفة الأسرار لكنّهم مثل أطفالٍ يحسبون بالأصابع. أمّا الجبر والحساب العددي فليسوا معروفين هنا سوى لشخصٍ من بين عشرين ألف. أغلب الكتب ضائعة أو تالفة. يعتقدون أنّ كلّ أوروبي طبيب، كما يعتقد الأوروبيون أنّ كلّ إيطالي مُغني. أمّا العثمانيون فيجلبون لأنفسهم الأطباء، لا جراحة هنا، كما لا عالم سابقٌ لعصره قد نأسرهُ أو نأخذُ علمه.

- أنتِ تعلمين أنّ الباشا لا يرعى العلوم، ولا يُقلّد الأوسمة كما يفعل نابليون العظيم، مُنشئ المدارس والأكاديميات، يا إيزابيلتي... ثم غادرتها.

هلاك خداوج الفرنساوية

هطلت أمطارٌ غزيرةً تدفقت سيلًا عبر تخطيط لصرف المياه
القدرة. ارتفع صوت البراح: سيدخل الباشا المياه إلى بقية بيوت
المدينة، بينما بينما. لبست الحائك والعجار ثم غادرت. شعرت أن
أحدهم اختفى ورائي مسرعاً. غيرت الطريق، على أطراف أقدامي
سررت. بلغت دار خداوج الفنساوية، أدخلتني بسرعة وتظاهرت
بتنظيف النحاسيات. لاحقتها بالسؤال ذاته، فتوقفت وأخبرتني أنها
تريد الهرب مع أسير يدعى روبير بلوش. بعدما فشلت في استدراجِ
الرئيس حسين إلى سريرها. وقع بصرى على تمثالٍ نصفيٍّ جديدٍ.

- أين تخفيه؟ في السقيفة؟ أهون حات؟

- كم تأخذ مقابل أن ترحل يا فيكتور؟

- و... كم تدفعين!

- كل ما أملك.

- هاهاها وماذا تملكين! ثم... ومهماً؟

- تتدبر أنت الأمر. تنقل خبر موتي مثلما نقلت خبر مقتل المُراسل العسكري، بينما اختفى. في الماضي حملت الرسائل والأموال، أما وقد بلغ مسامعي أخبار عن رغبة القنصل في غلق الأتليه وقد أفلستِ
الحكومة ما حاجتكم بي!
رق قلبي لحالها، فكرت:

- سأجهّر لكما بغالاً جيداً للانتقال مع أمتعة قليلة. أنتظر كما أغدا.
آخر جا من البوابة الشرقية صباحاً مع القوافل السائرة، باكراً عندما يبدأ
حرق زبل المدينة ويرتفع الدخان. اذهبنا إلى القالة، الإبحار من هناك
آمن.

أخذُّها جانبًا: قد يكون جاسوسًا. استخدم الإنجليز الكُتابَ كجواسيس. هل نسيتْ كريستوفر مارلو، الأشهر بعد شيكسبير!
- كلاً، ليس روبيِّر، ليس روبيِّر!
- فلنذهب أمر فرار كما إذن، هناك طرقٌ سلطانية تجارية كبرى..
رسمت على ورقة تسعه طرق وأشارتُ:
- دعك من هذه الطريق يكثر عليها قطاعُ الطريق. تلك تحتاج إلى دليل وهذه لا تؤدي إلى القالة. أرسل إليكما دليلاً يقودكما على هذه، فتصلان بعد أيام قليلة. يصلك رفقةه صك حرية مزور يمكنكم استخدامه.

ثم خرجتُ. بعد ساعة أرسلتُ واثيماً إلى العساكر؛ افتحم اليولداش دارها، هم روبيِّر بالفرار، ضربةُ القائد بالمحجنة على رأسه فشجّه. أمر جندياً بأن يلبسه زنازاً على وسطه ويشد عليه حتى يعرف العابرون والغرباء أنه من الهاريين وأنّها من المتواطئين. جرّوها من طوقها ثم ساروا بها من شارع إلى شارع. تجمهر العامة، تحول بعضهم إلى ذئاب ضاربة، أخذوا يقذفونها بالنعال والعصي والحجارة.
تحيّث جانبًا وعدتُ إلى الخلف خطواتٍ بين الحشود. داس على بعضهم، انفلت نعلي، وضاع بينهم، أحكمتُ إغلاق الحاييك وغادرتُ مرتعشاً بقدم مكسوقة ظهرت لأول مرة أصابعها الستة. سرعان ما رموا عنقها وتركوا جثتيهما أرضاً، فولفت فيها الكلاب ثم أقيمت في التراب.

ليلاً تعرض منزل الفرنساوية إلى النهب والتّخريب. زاد اللّغط في المدينة وخشي التجار النصارى على أرواحهم. آل أمُّ دارها

وأرباح تجارتها إلى بيت المالجي. فأرسلتُ رسالة إلى الجنرال بالحبر السري نصّها، «هلكت إيزابيل وأغلقتُ الأتلية كما أمرت». ثم غفوتُ.

العودة إلى مارسيليا

ارتفاع صوت البوق عاليًا. لن تسمعه إيزابيلتي هذه المرة. لا أحد كان يدرِّي يقيناً كيف ستسير الأمور أو كيف ستنتهي. أمرت بجز سفينتي وهيأتها للإبحار، وقد بلغني الأمر، داعيَا ربَّ أن يُرسِل علينا ريحًا مواتية.

بينما تحلق النوارس وطيور البحر أبحرتُ. تحت ستار الليل أمرت بالاستيلاء على سفينة جزائرية صغيرة. بعد المعركة أمرت بالأسياخ المُمhmaة، فلن يرُف لبي جفن قبل الحصول على مدفع برونزٍ. أمرت بفصل العثمانيين والمور عن الأجانب. جرّدناهم من الأسلحة والأموال والكتب. صرختُ عاليًا: ابحثوا عن مدفع برونزٍ... بحثوا عن مدفع برونزٍ!

رفقة الجنرال ماديلان والأستان الصناعية!

غادرتُ مارسيليا نحو هذر العاصمة. كم تغيرت باريس. أكاديمياتُ، ومعاهدُ، ومسارحُ، ومصانعُ جديدةٌ ترتفع هنا وهناك. الآلات تغزو المدن، ما عدْ أعرف أسماءها ولا ما قد تصنع. مُجنّدون يغادرون، نساء ملتحاتٌ يُفارقن أزواجاً وأبناء، قوافل مؤنٍ تتحرّك ليلاً. تجهيزاتٌ سريةٌ لحرب ما!

«كان يسوع فقيراً معدّياً لكن نابليون يريد أن يكون غنياً. يبحث عن ذهب الجزائر!» قال أحدهم ساخراً. أصبح أمر الحملة يشغل أحاديث العامة لا العسكريين فقط. الحملة تبع المسرّات في أغليبية شعبنا مثلما كانت تفعل أخبار الثورة. ما عادت الجزائر حلمَّا لنا بليون وحده.

اتجهت إلى زيارة الجنرال ماديلان باكرا في مكتبه. اجتزت البوح حيث عربة فاخرة مطلية بالأسود مُحاطة بالحرس. عبرت مع المرافقة أبواباً ضخمة، تفصل المكاتب والممرات. فتح الحراس مصراع الباب، ثم رأيته...

كان الجنرال يقرأ الجريدة قرب النافذة. أشار بيده أن اقترب. على مكتبه بريدي، كتب، خرائط، دفتر كبير أزرق، ومسدس حديث الطراز. يتوسط الجدار الخلفي إطار ذهبي يحمل لوحة حديثة لبونابرت. تقدمت وألقيت التحية العسكرية. عقد حاجبيه الأبيضين كمن يحاول سماع شيء، ربط يديه وراء ظهره، اهتز كتفاه المذهبان. لقد ترهل وجهه منذ آخر مرة شاهدته فيها.

- أخبرني أيها الضابط، كيف كانت مهمتك؟
- كما جاء في تقريري الشفهي للقنصل، نزل في سidi فرج حيث التّحصينات ضعيفة، ما بين ماي وجوان.
قام واستدار نحو النافذة بخطوات متّزنة، أثبت نظارته على أرنية أنفه.

- حتى لا نهزم ماذا تقترح؟
- نحتاج المزيد من الرجال والسفن والمدافع.

- لا تنخدع بسفنهم الكثيرة، أغلبها قديمة، تحتاج إلى مُجَدّفين.
بخمسة سفن فرنسية جيدة أهزمُ الكثير منها... أتدرى سفينة إنجليزية واحدة تكفي لتدمير نصف سفنهم. أقصد تلك السفينة اللعينة التي تحمل خمسة وسبعين مدفعاً، كلّفتهم خمسين ألف دولار استرليني!
- رغم ذلك مثل القنصل كيرسي أعتقد أنه لا يمكن تحطيم الجزائر إلا بجيشه بريٍ من الخلف. نزحف نحو حصن الإمبراطور المشرف على جنوب المدينة ونستولي عليه. فمن جهة البر لا ترتفع أسواره إلا بمقدار خمسة وعشرين قدماً.

للساعات تبادلنا أطراف الحديث. مثله كنتُ أتدرى أنّ بونبارت قد يختار الهجوم على روسيا أولاً، وأن كبار القادة يعارضون سراً هجماته المتقاربة العجلّى، لقد أنهك الجيش. فرأى الجنرال البريد، وعاد إلى تقريري، قلب أوراقه وألقاه جانبًا.

- ما بالك أيها الضابط؟

- أخشى أن يسبقنا أعداؤنا إليها. علينا إيجاد خديعة ما تنهي السلم. ننعتهم بِوَكْرِ القرصنة، نتّخذ من مهاجمتهم لسفتنا ذريعة، نستدرجهم ونُنكر سيادتهم، حتى لا تحالف ضدّنا الأمم. قام وارتدى على الأريكة.

- تجاوزتُ الستين، وأخشى أن يسير بونابرت حملته بعد أن أقضى. لكن لن أموت، لن أموت، هاهاها انتظار الحملة ما يجعلني نشيطاً في صحةً جيدةً!

بعد ساعاتٍ من الاجتماع بلغتُ الوقت الذي ينشدُ فيه الجنرال الرّاحة ظهراً. غفى على مقعده، انطلق صوت الشّخير لحظات.

انفلتْ أسنانه الصناعية. بربت وقادت تقع أرضاً. ضحكتُ، أفاق
وسألني عما كنتُ أقول. بدا لي أنّ ذاكرته قد ساءت قليلاً عن ذي قبل.
- قلتُ يا سيدِي... قبل إطلاق القذائف علينا حمايةُ الكثير من
المسيحيين هناك. أنتَ مساعدةِ الأميركيين؟

- سيختارون الحياد، لا يُساندُ الأميركيين إلا المتصرفين!
- سيدِي، ماذا لو جمع بونابرت خيرَةَ الصناع، وطلب أن يصنعوا
تماثيلَ لخيولٍ وأسودٍ نحاسية مُذهبةً مُجوفةً. خمسون أو سبعون
تمثيلاً، تخفي داخلها رجالنا الأشداء. تدخلها قصر الباشا، مع هدايا
القنصل كل سنة. تحملُها عجلاتٌ شديدة، فتدفعُ وتُوزعُ في أرجائه.
يقضي فيها الرجال نهارهم ويخرجون ليلاً ليدهم ورجال ديوانه
ويرغمونه على تسليم البلاد.

أخذ الجنرال ورقة، جرى عليها قلمه بينما يُنصتُ إليّ، رفعه
غمسمه في الحبر، واصل الكتابة، ختمها وطواها. أزاح صورة لمعركة
على الجدار. ظهرت خزنة، فتحها، جذب درجًا، وضع الورقة في
طرفِ كبيرٍ وأقفل عليها.
رفع رأسه قائلاً:

- أبليت بلاةً حسناً في كل مهماتك. عُد إلى الجزائر حتى تسدّد
ديونك إلى الرئيس حسن أو حسين أو أيّا كان اسمه!
مرر إيهامه على رقبته وأوّلأ لي بقتله. دوّت ضحكته. ثم أضاف:
- قد يكون من يُرسل خلفك العيون. وابحث عن قتلة المراسل
ال العسكري ولا تعد دون رؤوسهم.

الرجال الجيدين

مر أسبوعٌ تلاه آخر. لم أنم ليلةً واحدة في البيت. لازمني صداعٌ مؤلمٌ، وكأن الطواحين لا توقف عن الدوران داخله. رأيتُ جيزيلا، وقد تزّينت. أحاطت عنقها بقلادة أهديتها لها منذ سنوات. طلبت منها مواصلة الانزواء في الريف، والمواظبة على إعطاء البنات دروساً في العجر والهندسة، والفلسفة والموسيقى. «الرجال الجيدين يجلبون المجد والشرف أكثر من المعارك الجيدة يا ولدي!» قال المعلم وهو يقرأ قصّة لهما. استرقّت النظر. عدتُ إلى الوراء خطوتين. سألتها إن أظهرن تحسناً، تذمّرت.

- أين اختفيت كل هذه الأشهر، بينما أنتظر ولادةً عسيرة.
- استدعيت لك طبيباً من باريس، لا تقليقي.
- حسناً، اذهب إذن إلى شؤون تجارتك، ولا تعد، كما لا تكرر للاشاعات التي صارت تتحدّث عن هجرإنك لعائلتك!
أخذت تدرّع الغرفة بحنيّةٍ وذهاباً. طوّقها بذراع واحدة. قبّلتُ عنقها، منحتها عشرين فرنكاً. ذرفت الدموع رغم ما أحبطها به من مسرّات.

- المرأة الصالحة لا تبكي يا جيزيلا. هل أخبرتك؟ أريد ولداً هذه المرة، أنظري إلىّي أريد ولداً حين أعود...

غاستون

غادرتُ نحو منزل غاستون، صديق طفولتي، وابن عمّي ماري، وقد انقطعنا عن رؤية بعضنا لسنوات، ضمّني بشدة. أخذ مكانه قربى.

- أيّها الخبيث، أما زلت تذكر ابن عمتك !
- إن قلبينا متصلان برباطٍ لا يفصِّمُ عراؤه يا غاستون الأحمق
الرابع، هاهاها.

بعدما أطلعني على أخبار عمتّي وعائلته ألونزو، ظلّ يسخرُ ويطلق النكات. عرفتُ أنه لم يتغيّرْ قطّ منذ بارحته آخر مرّة. قال وقد عاد إلى تهكمه:

- هل كنتَ في زيارة الجنرال؟
- أرسلَ برقيةً يطلبُ مثولي أمامه.
- يُقالُ آنه يضعُ أسناناً صناعية هاهاها !
- كان يضعُها، بدأْتُ حسنةَ التّضييد.
- لا، لا، لا أستطيعُ أن أحادثه، أتوقعُ أن تقفز من فمه نحوِي في
أية لحظة... هاهاها.

بعدما هدأْتَ تنفسَ في منديله ثم قال:

- هل تسير الأمور على ما يرام هناك؟
- أشكو من الكثير يا صاح، لكن لا أحتاج خشيةً أن ينقولوني.
- أدانك الرّايس وتشكو، عجيبُ أمرك !
- ومن أبلغك !
- لا يخفى عن مارسيليا الكبيرة ما يحدُث في جزء منها هاهاها
أقصد الجزائر. أنت مديون للرايس، هاهاها. ألم تجذب خديعةً أخرى
للإيقاع به !
- أخفض صوتك. هل يمكن أن يكون هناك صديقٌ أشدّ غباءً
منك !

- كنتُ الأشد قوّة، وكنتُ الأكثر ذكاءً. ولو كنتُ مكانك لأوقعتُ بالرّايس دون أن أكونَ مديناً له هاهاماً بضريّة واحدة!
- أصمتُ أيّها السّكير. أنتَ تجهلُ كيف تسيّرُ الأمور هناك. هيّا أخبرني، كيف هيّ أمور عملك؟
- أنتظُرُ ترقيةَ بعدها تمّ تعيني في مرفاً بولونيّه. كنتُ أخضعُ العائدين والنّازحين الفرنسيّين من إنجلترا لتفتيشٍ دقيقٍ واستجوابٍ مطّولٍ. تتبعه بتحرّياتٍ تتولاها بعدنا عناصر من شرطة بولونيّه. كما أخضعُ اللاجيئن البريطانيّين إلى الإجراءات نفسها. أغلبهم مواطنون كاثوليكيّون وقساؤسٌ أيرلنديّون فارّون. رفعتُ تقاريرَ يوميّة عن الميناء والأجانب الذين يعبّرون فرنسا. ندوّنُ بيانات كلّ شخصٍ مُثيرٍ للريب على جُدّادَة. تلقّيتُ أوامر إضرام النار في المرفاً حال تعرّضنا لهجوم من إنجلترا. قمتُ بالمساهمة في استحداث مكتبٍ سريٍ يحفظ هذه الجذادات على نحو منظّم. نجمّعُ الورقيات، بعضها إلى بعض، فنشكّلُ حزمةً من الأضابير.
- بلغني أنّ الحكومة بدأت في إحصاء السّكان، وتقيد بيانات الغرباء الذين يقطّون مدننا. نحن بحاجة إلى مكاتب لتنظيم كلّ هذه المعلومات أيضًا.
- بدأنا أيضًا في إنشاء مكاتب تحفظُ الأضابير التي تحرّرها الشرطة والرّقابة لحفظها من التلف!
- هذا مذهل! أخبرني... هل تُحرّرُ تقدّماً في العمل؟
- يحاول الإنجليز تنفيذ انقلاب في إقليم بريتاني لإعادة الملكية. تتبعناهم، عرفنا أماكن اللقاءات والمرافق التي يدخلون منها، بعضهم

عسكريّون فرنسيّون حاليّون وسابقون. قبضنا على زعيمهم البروتونيّ الجنرال جورج كادودال، القذر ذي البطن المتفخّحة. راح غاستون يذرع الغرفة، باحثًا عن غليون ومطفأة. عاد بزجاجة نبيذ جيد وكأسين.

- لقد رفضَ ذو البطن الكبير منصباً في الحكومة عرضه عليه نابليون، واختار الاختفاء في إنجلترا والتأمر رُفقة أشقاء الملك. حاول المعتوه غزونا، هاهاهاب دعم رئيس الوزراء ويليام بيت، بقوّاتِ إنجلizية يا ابن خالي الطيب تخيل، ولم ينجح مُوظفو فوشيه في القبض عليه إلا هذا العام!

- هل ثمة فرنسيٌّ أشدّ غباءً من هذا المعि الغليظ الخائن. لا أظنه فرنسيًا، حتماً ليس فرنسيًا!

في بحر المانش

قال غاستون ضاحكًا:

- اجترّت بحر المانش لتفقد تجهيزات إنجلترا، وعدت بسفيرتين جزائرية وإنجليزية، لا أحب العودة فارغ اليدين هاهاهـا.

- كيف تمكّنتم من ذلك؟

- استغللنا هبوب الرياح في الاتّجاه المعاكس واستحوذنا على الحمولة. خمسة آلاف بندقية وسبعون برميل بارود وتسعة آلاف زوج من الأحذية، حملتُ لك منها أربعة أزواج هدية هاهاهـا.

- لو بلغتْ مغامراتك نابليون لأرسل في طلبك يا غاستون قائداً لحملته!

- توقفت عن الخروج إلى البحر وإن أحضرت لك رأس الرئيس هدية وخلصتك من ديونك هاهاتها. غادرت لأشهر نحو دريسدن، وعملت في قنصليتنا هناك. تم تكليفني بجمع معلومات عن رفافي. بينما بلغني أنّ منهم من كانوا يعرضون خدماتهم طوعاً لجمع المعلومات عنّي.

- تمضي السنوات مسرعة، أتذكّر خطابك وقد عملت في التغور الحدودية مُراسلاً من الخيالة.

- أتذكّر؟ هاهاتها. ماذا عنك؟ ما أخبار زوجتك وصغيراتك؟
أيعلمون أنك مديون هاهاتها؟

- ما زالت جيزيلاً امرأة صالحة كما عهدها، أرسلتها إلى الريف حيث تقل الشائعات والأوبئة.

- لكنّها حقيقة وليس شائعة، أنت مديون هاهاتها. هل في القالة نساءٌ جميلات؟ ترسل خطاباتك لكنك لا تذكر شيئاً عن هذا أيها الماجن؟

- لا امرأة قد تحب أصابع أقدامي الستة يا غاستون، هنا أو في القالة، كلّهن كاذبات حتى جيزيلا الصالحة تكذب!

- هاهاتها، أيها الأخطبوط الصغير. وكيف تسيرُ أمورك؟

- لا أحد يُكّن لي الود. أكتفي بكلماتِ مقتضبة عن تجارتي وشركتي ثم أنسحب. أهتم بالإشاعات التي تنشر عنّي أتبّعها، أحّرّ عُنق من أثارها ثم أختفي.

خرجنا إلى الفناء، دعاني لمراقبته في الممشى نحو حدائقه المشجرة جيداً.

- حدثني، حدثني عن القالة وحامياتنا هناك.
- تسافر رفقي وترابها بأم عينيك...
- ليس هذه الأيام عزيزي، أمامنا الكثير من العمل. تقدم الروس بعروض عمل لعديد من الضباط الذين كلفنا بمراقبتهم... هناك مؤامرة كبيرة تحاكُ لقتل نابليون!
- يا له من أمر!
- ماذا عنك متى تغادر؟
- صباح الغد.
- خذ هذا المال، سيعينك على أمور سفرك. لا تتأخر عن طلب يد المساعدة، تلك وصيّة جديّة أن أرعاك ما دمت من يكبرك!
- أما زلت تذكرُ عينيها الضارعتين.
- بصوٍتٍ رخيمٍ ساخرٍ أضاف وهو يضعُ فوهة المسدس على رأسِي: «أيها الضباط الشجاع، لا شك في أنك دونت مذكرةك، سأنشرها بعد موتك تحت اسم مستعار، وأجني الكثير من المال، لكن كم اسمًا صرت تملك هاهاما!»
- أنزل فوهة مسدسه، أخذ يسخرُ ويلكزني بمرفقه ثم تنفجر ضحكةً مجلجلةً.
- غاستون الأحمق، إن قدرَ لي أن أموت قبل أن تنجب زوجتي الولد، أخبره أنّ والده يتظاهرُ منه أن يستعيد من الجزائر مدافعاً مدافعاً.
- أما زلت تذكرُ تلك القصة القديمة؟ مدفوع جدّك البرونزي؟
- بل كيف لك أنت أن تنساها!

الفصل السادس

مقتل مصطفى باشا
الجزائر / 1805

عدتُ من السفر مُكلّفًا بمهمة اكتشاف قاتل المراسل العسكري،
والتخلص من الرّايس. أقمتُ في الجزائر سنوات طويلة حتى استوثق
لي ما أريد. شعرتُ بدنوّ الحرب، بعدما صار رفاقي يَسقطون، يختفون
ويُقتلون.

مكثتُ أيامًا أرقبُ رجوع الرّايس. ترافق عيناي كل سفينة ترسو
أو تغادر، رغم قدمي المُثقلتين بأوجاع الدّروب. أثراني أجلبُ المجد
لأمّتي أم أجلبُ الهلاك لنفسي ليس إلّا؟ ماذا إنْ أخفقت؟ أيلحق
الجزال بي عقابًا أشدّ وطأةً من الإقالة؟ أينزل رُتبتي؟ أم سيرسلني
إلى مستعمرة بعيدة؟ فتنتهي حياتي دون أن يقلّدّني نابليون وسام
الشرف الذي حلمت به؟ لكن حتّماً قد أهلك كما هلكت إيزابيل،
فمن دخلَ على الأسد في غابته لم يأمن وثبته.

بينما تذوّي الشمس بدت لي دار السفن أقلّ وهجاً. وكأنّي غبتُ
عنها سنوات. تدفّقت المياه بين القنوات وانتشرت في أركان المدينة.
ارتفع خريرها كموسيقى، تذكّرتُ بتهوفن، لو رآها لأهداماً إحدى
سمفونياته كما أهدى نابليون. ترددت على دار الرّايس فلم أُعثر له
على أثر. ركب البحر منذ أربعين رفقه أبناءه رغم جسده الذي هزل. لم
يعقدْ قبلها مجلسًا ولم يدعُ صاحبًا، هل هرب لينفذ بجلده؟ يقولون
إنّه يزور الحجاز يؤدّي فريضة الحجّ ويعود.

تسلل الوهن إلى جذعي فجلست بمحاذة السوق. لاحظت أن حركة الجنود صارت على أشدّها. بلغتني أحاديث التجار بينما تتم البيوع. حمل أحدهم أوراقاً من الحلفاء، فركها واستنشق.

- ارتفع البرج الجديد خارج باب الوادي، بأمر مصطفى باشا.
- يأتون بالماء إليه من عين ماء جنانه في فحص مغاره، ومن جنة السناجي بمئات الدنانير السلطانية الذهبية.
- كل ساق سيسقى بما سقى.

- وقد بني داراً جديدة للبارود، قُرب ضريح سيدى يعقوب. وبني برجاً جديداً للحراسة، خارج باب عزّون، على أرضٍ يمتلكها الدفتر دار أحمد خوجة. بعدما انهار برج تافورة.

كما في معسكر للحرب أمضيت تلك الأيام دون أن يغمض لي جفنٌ. عدت إلى داري طهوت رطل لحمٍ مع الزبدة واللوز والزبيب الجيد، أرحتُ أصابع أقدامي الاثنى عشر في سطل ماء وملح. ثم جلست أنفكُ في الحصول على امرأة تشاركني الليلة، فالمؤونة كثيرة تكفي ستة أشهر، لن أخرج فيها للتزوّد بشيء.

ثم بلغتني الأخبار... انتشرت المجائعة في الشرق بعد الجفاف، وأتى الجرادُ على الزرع والبساتين، صارت الأرض بوراً، ملأ الغضبُ الصدور... كان صاع القمح بريال أو ريالين وصار بخمسة عشر ريالاً!

- لماذا يسمح الباشا بتصدير القمح إلى فرنسا وغيرها من أمم أوروبا عوض عرضه هنا!
- التجار من يفعلون ذلك..

- التّجار اليهود، اليهود.
- بل التجار الجشعون من يفعلون ذلك يا أخي مبروك، الجشعون
من المسلمين واليهود والنصارى.
- بل الباشا من يفعل، البasha...
أقبلت أيامٌ تناحر فيها العثمانيون والمور فتفرقوا طرائقَ. هوت
كلّمتهِم، فصاروا يخلعون الرجال ويقتلونهم. عم السخط وضجة
المدينة. هرعتُ نحو داري، لا تستقر هذه المدينة على حال. في
الخامس والعشرين من شهر جوان ارتفعت الأصوات عالياً: لا نريدُ
حكومة مصطفى باشا! لا نريد مصطفى باشا! أطلَّت النسوة برأوسهن
من الشرفات والبيوت، يلهجن بالدعاء. منهنَّ من غطَّت فمهما بكفها
فزعَا ولو لوتْ. انقلب المدينة رأساً على عقب. قتل جندي عثماني
التاجر اليهودي بوجناح!

لا يقتل الرجل منا الرجل بشجاعة إلا عندما يقتله باسم الرب.
نحن العسكريون نعلم هذا جيداً. يجب أن تكون حجة القتل بسيطة،
لا تفوق قدرة فهم الإنسان العادي. العاديون يعتقدون ولا يبحثون.
أُقتل باسم الرب، أُقتل لأن الله يريد، ذلك أكثر إقناعاً للجماهير دائمًا
من أُقتل لأن القائد يريد!

ابتهجت لاشتعال نار الفتنة بين الطوائف. قام بعض الأصلاف
بقتل اليهود ونهبهم، فصار أثاثهم يباع بثمن بخسٍ قرب أفران الجير.
هرب الناجون إلى الميناء ينشدون الرحيل. أمر مصطفى باشا بالقبض
على كل من قتل أو نهب يهودياً. تحسرتُ، إنها لفرصة ذهبية للإنزال
وإيقاع الفرقة، يُضيّعها نابليون. لم ألمس النبيذ ولا النساء تلك الأيام.

في نهاية شهر أوت صحوت على صوت صراخ: قُتل مصطفى باشا،
قُتل مصطفى باشا! وهوت البلاد... كتب في تقاريري مرة أن الجيش
القوي وحده حين يغزو مدينة لا يُسقطها أبداً، يترك هذا السكانها، هذه
 مهمتهم! بدأ العامة يلوكون الأخبار.

- قتلوه عندما وصل زنقة فرن الزناقي!

- قتلوا الخزناجي أيضاً بين باب جامع كتشاوة وباب الحمام.

- وقد استوثق له الملك طفى وعطا، تجّبر وتكبر.

- اخرس وإلا قتلتك.

- بل كان مُظفراً منصوراً، هابه الملوك، وأحبته الرعية.

اختلف الرجال، بكم بعضهم وهم يتحدثون عن جثة الباشا التي
تم إلقاؤها في باب عزّون. كنت أود لو آتنا أدبناه قبل أن يُقتل. خرجت
السيوف القواطع والحراب اللوامع. نزلت فرقُ الخيالة، لسبعة أيام لم
تنم المدينة. انتشرت أخبار احتفاء عشر صفائح ذهبية من قصر الباشا.
هكذا انتهى حكمه بعد ثمانية سنوات. بلغ نبأ مقتله بайлنك الشرق
والغرب وبайлنك التيطري. كما بلغ الإمبراطورية العثمانية وأوروبياً
والأمريكيين. دونت ما كان من وقائع وأنا أفضّم البسكويت الجيد.
لزمت الدار وتواريت. بعد أيام انتقل كرسي الباشوية إلى أحمد
خوجة باشا. تقدم قارع الطبلول، احتشد خلفه الرجال. سار أعضاء
الفرقة الموسيقية، تقدم الضارب على الصنج. انطلق إيقاع الاحتفاء
بالباشا الجديد. بعد ساعة غادر الركب والعربات. سمعت صوت
طرق، ففتح الباب، نظرت إلى المراسل الذي جاء في ثوب تاجر.
سلمت الرسالة. حركتها تحت الضوء مرّة مرتين، فرأيت: سيطر

نابليون على مدينة لوكا الإيطالية، كما ضمّ جنوا إلى الجمهورية الفرنسية. شعرت بالغبطة، سيثور الجنويون، لكنه سيُخمد ثوراتهم. صارت أوروبا تدرك أنه لا يُقهر. حتى ملك بروسيا وإمبراطور روسيا لا يملكان القوة على مواجهته. أحرقتُ الرسالة وغفوت.

مررتُ أسبوعاً، عاد بعدها السلم إلى حارات المدينة وأحواشها وحوماتها. بلغتني أخبارٌ عن تجّار يتقدّدون على المقاهي والأسواق التي أرتادها ويسألون عنّي. ما كنتُ أعرفُ منهم أحداً فقررت أن أحترس، بعثُ الدار القديمة واختفيت. حين اقتربت عودة الحجاج رجعتُ. قادتني قدماً خارج باب الواد حيث رأيتُ الباشا جالساً خارج البلاط مع مُرافقه على كراسٍ جيّدة التنجيد. فُرشت تحتها الزرابي، يتفرّج على لاعبين يتقدّمون مثنى مثنى، ويصعدون حلبة المنصة. شرع اللاعبان في المصارعة وإظهار القوة والتقوّق. في الأخير أخذ البasha في توزيع النقود على الأشداء منهم والمتصرّين ثم غادر.

بعد أيام شاع أنه جلب طيبين بالشراء إلى قصره. أحدهما فرنسي يُدعى باسكال دي تاسي، طبيب وجراح، والأخر إنجلزي يدعى توماس سانسون. خرجتُ باكراً نحو سوق العبيد لشراء عبدٍ يُعينني على شؤون الدار الجديدة. وجدتُ الأوروبي الذي لا يجيد القراءة والكتابة يُباع من ثلاثة إلى سبعين قرشاً إسبانياً. أمّا العبد الكاتب أو العالم فثمنه يتضاعف. بللت نحري بالماء. ارتفع صوت أحدهم عندما طرد قائلاً: تبيعُ بشرًا من لحمِ ودمٍ وتمعني من بيع تماثيل من حجرٍ ومعدن، أيّ سوق هذه! ساد الهرج والمرجُ، عدلَ عن الشراء

وغادرت. ورائي تركت تجّاراً يتّصايحون بالعربية، التركية، الفرنسية والإسبانية. عرجتُ على الميناء أسأل عن سفينة الحجاج العائدين وإذا بصديقي القديم ألفونس تاجر المرجان يحطّ الرحال. لم أنتبه لدرويش مجنون سار خلفي، أطلق صيحة ارتجت لها الأرض: (لم تزل تحارب من لم ينزعك، تُواقع من سالمك، وتعادي من وادعك، أبرز إليّ، فأننا قهر صاحبه فهو الظافر). كدت أعاجله بضربي تميله عن بغلة، وأتبّعها بأخرى فتسقط رأسه، لكن ترورٍ. عجلتُ الخطى وما تجاهلتُ عنده.

جلستُ رفقة صديقي القديم ألفونس في داره بعدما انقطعتُ عن مجالس التجار.

- يُقلقني شأن بونابرت يا فيكتور، ما ارتقى حاله إلاً وازداد عنّوا، استصغر الأمم وأساء السير إليهم، غير عابئ بمصالحنا.
- دعنا من حديث السّاسة، ماذا جلبت هذه المرة عدا الجرائد؟
- رواية الأسير، للفرنسي هنري دي ليدام.
- طُبعت أول مرّة قبل مئتي سنة يا رجل، كيف عثرت عليها!
- في فلورنسا، عند ورّاق طاعن في السن.
- آخ... يا صاحبي، كنت أود لو أكتب رواية أو رحلة. لنرى ماذا لديك أيضاً؟

- نص للرحلة الإنجليزي دalam. نسخة نادرة أيضا...
- أدفع ثمنه وأضمه إلى مكتبتي.
- إنه هدية يا فيكتور، هدية. سأقرأ لك (لقد انبهنا بالربيع، الأشجار مكسوة بالخضراء، الجبوب، القمح، الشعير، كما ثمة تفاح

وبرتقال)... (لقد صادفنا الجزائريين وأناساً آخرين يسوقون حميراً مُحملةً بالفاصلية).

- أوه.. يا لرداة طريقته. لم يكن كاتباً كبيراً. يا له من صانع ساعات أورغن سبع أيّضاً. حسناً، دعني ألقى نظرة هنا، ماذا تحمل حقيتك العجيبة أيضاً، صمويل بارشاش، بيار دان، جون ويندوس، وليام لوبراري، لهذا كل شيء؟ سبق لي وأن قرأت لمعظمهم. بعضهم لم تطأ قدماه إفريقياً، يتناقلون الأخبار بينهم لا أكثر، يا لرداة ما يؤلفه الإنجليز!

- وما قد تكتبُ أنتَ الذي وطأتْ قدماكَ أرض إفريقياً منذ ما يفوقُ ربع قرن!

ضحكنا، تسامرنا ثم غادرته. في طريق العودة صادفت عابراً. ظنته ذلك الدرويش مجدداً. عاد صوته قائلاً بصوتٍ خافتٍ مخيفٍ: (لم تزلْ تُحاربُ من لم يُنازعكَ، تُواقعُ من سالمكَ، وتُعادي من وادعكَ. أبُرُّ إليّ، فأيّنا قهرَ صاحبه فهو الظافر). نظرتُ إلى الرجل وقد تجاوزني إلى زقاق آخر، لم ينبس بيَن شفة، تخطّاني منذ مدة وابتعد، من أين أتى الصوت إذن، من رأسي! لحقته وقتلتَه، لكن صوت الدرويش ظل يلاحقني. هل بدأت الوساوس والمخاوف تُفقدني عقلي!

مجاعة بأهل بلد قسنطينة

قبل أن يسكب الصبح نوره أنصتُ، هذا صوتُ طروبٌ جَزْلُ. تتمايلُ المغنيةُ أمامي بينما أفڪُ... حققنا شيئاً من المجد على يد

شولمايستر، أرسِل إلى الإمبراطورية النمساوية وتم ابعاثي إلى هنا. ولد في إقليم الألزاس في عائلة من الموظفين. زرت متجره الصغير في ستلاسبورغ، اشتريت تبغًا وقداحـة. أفلستُ وجمع ثروة سمحـت له بالسفر متحلـاً هوية مزورة لمواطن مجري. قدمـه الجنـال سافاري إلى نابـليـون، بينما يحـجب عنه الجنـال التـعـس ذو الأسـنـان الصـنـاعـية التـقارـيرـ التي أرـفعـها ويـضـعـها جـانـبـاـ.

بلغـتـني أخـبارـ جديدةـ، بدأـتـ مـعرـكةـ الأـبـاطـرـةـ الـثـلـاثـةـ، اـنـصـرـناـ فيـ أوـسـطـرـلـيـتـزـ، وـانـهـزـمـتـ قـوـاتـ التـحـالـفـ الرـوـسـيـ النـمـساـويـ. أـلـقـيـتـ بـالـفـرنـكـاتـ عـلـىـ قـدـمـيـ المـغـنـيـةـ اـحتـفـاءـ. خـسـرـتـ النـمـساـعـزـهاـ وجـبرـوـتهاـ بينما لاـزالـتـ الجـزـائـرـ عـصـيـةـ!

تأخـرـ موـكـبـ الحـجـاجـ أـسـبـوـعـاـ آـخـرـ ثـمـ عـادـ دونـ أـنـ يكونـ الرـايـسـ بـيـنـهـمـ. تـقـولـ إـشـاعـةـ أـنـهـ أـقـامـ فـيـ بـلـادـ الشـامـ يـرـتـبـ شـؤـونـ تـجـارـةـ أـكـبـرـ أـبـنـائـهـ ثـمـ يـعـودـ. ذـهـبـتـ إـلـىـ قـسـنـطـيـنـيـةـ لـأـجـمـعـ أـخـبـارـ ماـ وـقـعـ بـهـاـ مـجـاعـةـ وـفـقـنـ، فـلـيـسـ الـخـبـرـ كـالـعـيـانـ.

سرـتـ باـكـراـ معـ سـارـ إـلـيـهاـ مـنـ التـجـارـ، ثـمـ بـلـغـتـهـاـ. رـأـيـتـ جـمـعـاـ فـيـ الرـحـبةـ، اـقـرـبـتـ، رـأـيـتـ رـجـلـاـ يـكـتـالـ لـكـلـ وـاحـدـ نـصـيبـ. عـنـدـمـاـ انـقـضـيـ مـاـ فـيـ حـوـزـتـهـ مـنـ حـبـوبـ رـاحـ يـنـادـيـ بـلـسـانـ فـصـيـحـ: (يـاـ عـبـادـ اللـهـ، كـلـ مـنـ أـخـذـ شـيـئـاـ فـهـوـ خـالـصـ لـهـ، لـآـخـذـ مـنـ ثـمـنـهـ. اـذـهـبـواـ فـيـ حـالـ سـبـيلـكـمـ). فـرـحـ النـاسـ وـشـكـرـواـ سـخـاءـ وـعـدـوـهـ مـنـ أـهـلـ الـخـيـرـ، يـعـينـ الـآـخـرـينـ بـمـاـ قـدـرـ عـلـيـهـ مـنـ قـوـتـ، وـتـذـمـرـواـ مـنـ الـبـايـ الـذـيـ لـمـ يـظـهـرـ إـعـانـةـ. كـاتـبـ الـأـعـراـشـ وـأـمـرـهـمـ بـجـلـبـ الرـزـعـ إـلـىـ الـأـسـوـاقـ لـيـكـتـالـ مـنـ النـاسـ. قـلـ الـبـيـعـ وـالـشـرـاءـ وـنـدـرـتـ الدـرـاهـمـ، كـثـرـ الـموتـ، وـقـدـ يـأـكـلـ

الناس بعضهم بعضاً. تركت النساء كل صباغ بالقرمز أو الحناء لما وقع عليهن من بأسٍ وغمٍ. شاع ظهور الكولييرا والحمى التيفوسية. بيعت الدور والمحلات بما لم يبلغ شطر ثمنها. كث العابرون الذين يسألون الناس في ديارهم، آخرون يسألون وينظمون الشعر، يرقصون فيصدق الناس عليهم. يردد أحدهم: (القَمْح يا بَاهِي اللَّوْنْ مِنْ شَبَعْتُكْ لَأَزِيَادَهَ أَنْتَ قُوتْ كُلَّ مَسْكِينْ بِكَ الصَّلَاةُ وَالْعِبَادَةُ).

صار النّاس يطحون القمح خفية في أماكن مُختلية. كُلُّ أرباب المخازن والأعيان والفلاحون بإخراج الزّرع إلى رحمة البلد. وحرست الشرطة الأفران والخبز حتى لا يقع التّهّب. ثم أمر الباي بعدم جمع الضّرائب هذه السنة. لم يترك المطلب المخزني بل أجّله للسنة الموالية.

ذهبت نحو دار بن جلول، ناحية رحمة الصّوف لشراء القمح حيث وقف القبابجي على الكيل والبيع، يأخذون الثمن من الأغنياء ويهبون الفقراء. حاولت شراء مقدار آخر لكن القبابجي رفض قائلاً: - لن تأخذ إلا قدر كفايتك يوماً.

صرخ به أحد العامة:

- مخازن قسنطينة ممتلئة، لماذا لا يفتحها الباي للهالكين!

أصوات:

- تدبّر سديدٌ ورأيٌ صائبٌ.

- صرنا نأكلُ الحشيش ونحوه!

- مات ما نملكه من مواشي بمرض الرّهمة، ولا علف ندّخره

للشتاء..

هجم العساكر وقادوا الغاضبين مثنى إلى السجن. بعد أشهر
شيئاً فشيئاً صار الزرع يدخل قسنطينة من ناحية ريفه وفرجية، بينما
ظلّت المجاعة حديث العامة. (يُحكى أنه في زمن أحد البايات ممّن
تقدّم حُكم صالح باي بمئة وخمسين سنة وقعت مسغبةٌ ومجاعةٌ بأهل
بلد قسنطينة. ملأت امرأةً جيوبها من دكاكين الصاغة وحاولت أن تفرّ
لكن اليولداش لحقوا بها، ووجدوا الصاغة مدفونةً في صدرها.
فأفلتواها ولو كان قمحًا ما فعلوا هاهاما!)

في قسنطينة بقيت أيامًا أكتم أمراً أطلبه بينما ظهر غيره. وقد بدا
لي أنّ ما أكتم غفل عنه الباشا ورجاله بينما استبان لدراويش المدينة
ومجانينها، فلا أكاد أحجز عنق أحدهم حتى يراودني آخر!
بادلت الرجال الأشداء الود والصداقه، دون أن يستدلّ أحد على
سرّي، بالرّفق والتلطف والنظر في حواجزهم. فأنى لأحدهم العلم
بأنّ مصادقي إيهامٍ مكرّ وختلٍ. حزت الجواب باليسir من القول
والكرم وأقمت على ذلك زماناً طويلاً. طويت الخطاب الذي سهرت
عليه ليلي ودأبت عليه نهاري، بعدهما كتبت إلى الجنرال أعلمه بما
لقيته بلاد قسنطينة. عدت إلى غرفتي في التُّزل، ففتحت كتاباً أهداه لي
ألفونس الطيب، ثم قرأت.

الباشا الجديد

أخرج الصّباح عن زرقة السماء، نادي المُنادي في الأسواق باسم
الباشا الجديد وديوانه. لم تمرّ سنةٌ على حكمه حتى زاد راتب جميع
العساكر، فطابت الأيام ووهب القمع للمتزوجين منهم. شاع في

المدينة أنّ دائرة القضاء في إستانبول سترسل قاضياً جديداً. غنم الرئيس حميدو سفناً برتغالية وهمبورغية، ارتفعت الأهازيج وزينت الطُّرقات، جهزَ الخيالة مطباتهم استعداداً لعودتهم. تناقل العامة قيمة الغنائم، قيل أنّها تتجاوز إحدى عشرة ألف فرنكٍ وستين سنتيمًا. أمر الباشا بإنشاء عشرة من اللنجور الكبار بصاريّ واحد وجعل على كلّ واحد مدفعين كبيرين.

باكراً عاد الرئيس سالمين غانمين، وأسدلوا الأشرعة على الصواري. نزل الرجال من السفن وهم يهلوون ويهتفون، تركوا مرسي السفن وساروا حشداً وسط المدينة، بينما سار الرئيس حميدو بين الجموع داخل عربة متهدادية، يرافقه جنودٌ يحملون على أكتافهم البنادق، وحولهم البيارق والرایات. همهمتُ، أفرغ من الرئيس حسين الآن ثم أتولى أمر هذا الرئيس حميدو. مررتُ بالسوق.

- إنّه حاييك مرمة، حرّ، مطرّز الحواف، من الحرير الخالص. تقدّم يا سيدي، منه الأبيض والأصفر الفاتح والسكري. أمّا ذلك فملحفٌ، هذا عجار الشبكة. أمّا ذاك فhaiyik ممزوج بالكتان، وذاك حاييك عشعاشي، والذي يليه الحاييك السفساري الأسود ومنه الأبيض أيضاً.

- أشتري حاييك المرمة وأثواباً للأطفال، للصدقة، للصدقة.

- أنظر يا سيدي، محمرة الفتول.

- كلا، هذا يكفي.

وانصرفتُ على عجل.

أمر البشا الجديد ببناء السفن بينما أرسل الأخرى تشقّ البحر،
جعل على الأسوار الكثير من الجنود وتأهّب للحرب. عندما قدمتُ
قبل سنواتٍ لم يكن البرّاح يحدّر من هجومٍ قادمٍ إلّا لاماً، اليوم تتبع
وتزداد حدة الهجمات بين الفينة والأخرى. خرجتُ يوم أحدٍ من داري
وقصدت ساحة السوق، دوّت مدافع الإنذار، إنه هجومٌ بحريٌّ! هرع
الناس تاركين الدّيار والسلع، نحو أطراف المدينة وخارجها، حيث لا
تصل القذائف. صارت الأزقة مقفرةً خاليةً إلّا من الجنود واللّصوص.
باتت الطرقات أيامًا سبعة خالية، انسدّت الدّروب بالبوابات الموصلة
والحواجز. اجتمع الجند وهبّت الحاميات وأرسل الدّيابات الجيوش
وجمعوا الرجال.

حاولتُ مغادرة المدينة نحو القالة، لكن الجند اعترضوا طرقي.
تمّ اقتيادي مع الحشود، وُضعنا في إسطبلاتٍ خاصةً بحماية الماشية
خلف المدينة. سيقنا القطuan خارجاً، في لحظاتٍ صارت غاصبةً
بالهاربين فبدت ملجاً عطناً. حين أقبل الليل أسرج العساكر القناديل.
خلسةً أخذتُ في تأمل الوجه، عجزُه، نسأةً يأخذن أولادهن إلى
صدرهن، آخرياتٌ يحملن أطفالهن على أكتافهن. رأيت الكبار
والصغار، الحضر والبرانية، المسلمين واليهود والتجار النصارى.

ظلّ البعض يلوّك الشائعات: (جاء النصارى المتحالفون بجيشٍ
جرّار) بينما العيون مثبتةٌ إلى بعضها البعض، عمّ الفزع. مكثتُ هناك
ثلاثة أيام، في كلّ يوم يجيء الجنود بآخرين. فصلنا العساكر عن النساء
والأطفال، ثم أخذوا يوزّعون الطعام والأسئلة بينما ملك النّوم عيني.
وقف جنديٌّ عند رأسِي يطرح أسئلة: «برتغاليٌّ، أم إسبانيٌّ؟ ما اسمك؟»

- بل فرنسي يا سيدى، فيكتور دى أوغو؟

- ماذا تعمل؟

- تاجر مرجان مارسيلى.

- أي شيء يثبت هوينك؟

- هذا تصريح دخولي إلى المدينة.

أخذ ينظر إلى مرة، مرتين، ما جعل العساكر ينظرون إلى مثله.

اقرب أحد العساكر هامسا في أذنه ببعض الأخبار فبدأ يضرب بكلتا يديه. نهض قائلاً:

- حسناً، خذ طعامك وانصرف، لا تقلق أنت في مأمن هنا.

ثم غادر... في المدينة خطب الشیوخ فهب الرجال، ألسهم العثمانيون الأسلحة والدروع. تصدى الرياس للحملة، فهدأت المعركة، انبعث الدخان من أكوام مُحترقة كانت دياراً وصارت رماداً، انساب بكاء حزين تسلل نواحه ليلاً إلى البحر. راح اليولداش يجمعون مالاً للعسكر. عزل الباشا أكثر من رجل، وأمر ألا يغادر الشیوخ والأشراف دار سكناتهم إلى أن تضع الحرب أوزارها. سقطت القذائف، بدأ رماة القلعة في الرد، أشعاع العساكر أن البasha نفسه يقود المدفعية، ويشغل المدافع مع ال bombagie، موڑعا حفنات الذهب على الرجال الشجعان. شبّت النار في مخزن بارود القلعة فنسف أسوارها. من أسوار المدينة ما تشقّق مسافة مليون. رحل البرتغاليون ومات خلق كثير لكن عمري لم ينقض، ربما لم تحن ميتي هذه السنة أيضاً، رغم آنني ما اعدت أخاف الهاك، فقد يعود الحذر وبالاً علي.

ماريتا وأنطونيلا
الجزائر / صيف 1807

ما زالت مدن المرجان هذه تشير بونبارت وتشيرني. أرجأتُ
سفرى، هكذا ستفوتني فرصة التطعيم ضدّ مرض الجدري لعام آخر.
دخلتُ المقهى اليونانى الجديد وأسندت ظهري إلى حائط لاستريح.
بلغني حديثُ رجالٍ على مقرية، بعضهم تجأز أعرفهم.
- أمر نابليون بسجن كلّ الجزائريين في موانئنا، كما حجز
أملاكهم.

- ما شأننا ونابليون يا إدموند، ألا تخبرني عن أموالك هذه الكثيرة
من أين جمعتها وقد أصبحت رجلاً يتحدث في السياسة!
- ألا تخشى أن تُعلن الحرب مجدداً وقد سحبوا منا الامتيازات!
- الرجال الذين يُوفدهم للتفاوض حمقى ولا شك، إن أعلن
البasha انتهاء السلم سأخرّ مغشياً علىي!
انسلّ الرجل مغادرًا مقلب الأسارير:
- إنّي ماضٍ، إنّي ماضٍ... لا أريد أن أسمع الأخبار السيئة!
قال آخر:

- كنّا ننتظر أن نفتح الجزائر على يديه وإذ بنا نفقد على يديه كلّ
امتيازاتنا القديمة وتختارنا وموانئنا، يا للهول!
- مالك والمسألة عما ليس من شأنك يا تاجر القمح العجوز؟
قام سكّير، أخذ يزار ويبحور:
- فَرَمَانْ... أمر أحمد باشا بنزع امتيازات صيد المرجان من
الفرنسيين في القالة وغيرها، تخيلوا! ومنحها للإنجليز أعدائنا!

تذمرٌ، سكارى يتناولون كلام الملوك، ينظرون في شؤون الأمم!

وَقَعَتِ الْكَارِثَةُ، مِنْذُ وَقْعِ الْحَاجِ أَحْمَدِ باشا وَالسِّيدِ هَنْرِيِّ بِلَانْكَلِيِّ، ذَلِكَ الْقِنْصُلُ الإِنْجِلِيزِيُّ الْثَّلْعَبُ عَقْدًا يَنْصُّ عَلَى أَنْ يَسْتَغْلُوا مَؤْسِسَاتِنَا فِي الْقَالَةِ وَعِنَابَةَ. اِنْهَارَتْ تِجَارَتُنَا وَأَفْلَسَنَا، بَيْنَمَا انْفَرَدُوا بِصَنْعِ الْمَرْجَانِ مُقَابِلِ خَمْسِينَ أَلْفَ دُولَارٍ عَلَى قَسْطَنْطِنْيَةَ الْجَزَائِرِ، بَلْ وَأَكْثَرَ.. أَحْمَدِ باشا... سِيْحَكْمُ هَذَا الرَّجُلُ الْبَغِيْضِ عَامًا وَاحِدًا وَيَمُوتُ شَنَقاً أَوْ ذِبَحَاً، وَقَدْ يَحْكُمُ عَامًا وَنَصْفَ ثُمَّ يُقْتَلُ. يَتَلَمَّسُ الرَّفْعَةَ مِنَ الإِنْجِلِيزِ الَّذِينَ تَرَكُوا حَرَيْةَ الصَّيْدِ لِلْأُورُوبِيِّينَ مَا عَدَا الْفَرَنْسِيِّينَ! لَمْ أَبْتَسِ، مَثَلَهُمْ كَمَثَلِ الْكَلْبِ الَّذِي يَصِيبُ عَظِيمًا يَابِسًا فَيُفْرِحُ بِهِ. بُونَابِرْتُ لَا يُغْنِيهِ الْقَلِيلُ وَلَا يَرْضِي بِالْدُّونَ. سَنَسْمُو قَرِيبًا إِلَى مَا نَحْنُ أَهْلُ لَهُ. تَرَكْنَا صَنْدُوقَ الْمَرْجَانِ وَشَوَّالَ الْقَمْحِ وَنَطَلَبُ دَارَ السُّفَنِ الْكَبِيرَةِ، الْجَزَائِرَ.

عَدْتُ إِلَى دَارِيِّ، وَقَدْ خَسِرْنَا شَوْطَ شَطْرُونِجَ، لَزَمَتْهَا أَيَّامًا بَعْدَمَا وَصَلَنِي الْبَرِيدُ وَشَحْنَةً كَتِبَ جَدِيدَةً. أَخْذَتْ مِنْهَا كِتَابًا وَقَلَّبْتُهُ بَيْنَ يَدَيِّيِّ، كِتَابُ عَنِ الْمَغَناطِيسِ، تَسَاءَلْتُ هَلْ يَعْلَمُ هَذَا الْبَاشَا التَّعْسَ أَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي يَقْفِي عَلَيْهَا مَغَناطِيسَ ضَخْمٍ؟ هَلْ يَعْلَمُ رِئَاسَهُ ذَلِكَ؟ قَرَرْتُ تَرْكَ التَّفْكِيرِ فِيمَا حَدَثَ وَوَضَعَ مَا أَقْرَأَ مَوْضِعَ التَّجْرِيْبَةَ، حَتَّى أَتَيْنَ صَحَّةَ مَا تَحْمِلُهُ بَطْوَنَ هَذِهِ الْكِتَبِ. صَمَّمْتُ أَدْوَاتٍ أَسْتَعِنُ بِهَا فِي تِجَارَبِيِّ، قَلَّبْتُ أَكْثَرَ مِنْ كِتَابٍ بِاِنتَظَارِ عُودَةِ الرَّائِسِ وَتَنْفِيذِ مَهْمَتِيِّ. بَعْدَ أَسَابِيعٍ نَجَحْتُ فِي جَعْلِ تِيَّارٍ كَهْرَبَائِيٍّ يَسْرِي فِي سَلَكٍ طَوْلُهُ تَسْعُونَ مَتْرًا مَعْلَقٍ بِخِيطِ حَرِيرِيِّ. لَنْ يُصَدِّقَ غَاسْتُونَ آتَنِي نَجْحُوتُ فِي فَعْلِ هَذَا. قَمْتُ

بذلك كرّة نحاسية باليد مراتٍ، وصلتها بقضيب معدني إلى جسمي ثم إلى سيف أمسك به، تولدت قوةً انبعثت منها شرارةً من طرف السيف إلى سلك مثبت على الشمعدان فاتقدت الشمعة المُنطفئة، إنها شحنة، إنها شحنة! ماذا لو رأى أحدهم؟ قد يظنّني ساحراً أو ولّياً ذا كراماتٍ، أو رجلاً به مسٌّ من الشيطان. أخذت الدّواة أدون أسماء المواد التي وجدتها موصولة للكهرباء، مقابلها وضعت أسماء أخرى ردّيّة التّوصيل. في سوق النّحاسين بلغتني أنباءً جديدة. أرسل السير ألكسندر بالمندوبي إلى باي قسطنطينة لشراء القمح والمواشي لتمويل جيشه في مالطا وجبل طارق. يريد الإنجليز إنشاء حاميات لعساكرهم، لم يهتموا بالصيد قطّ وتركوا التجارة لعشرين تاجراً من مالطا، ساهم كلّ واحدٍ منهم بعشرة آلاف دولارٍ وكونوا شركة.

مضت أيامٌ وأقبلت أخرى. وهب الإنجليز إذن صيد المرجان للصقلّيين والسردينيين والإسبانيين. قسموه إلى صيد الصيف وبيداً من أول أبريل ويتهي في الثلاثين من شهر جانفي. في هذه الفترة يدفع كلّ صياد للإنجليز ألفاً وثمانين فرنكاً وكمية من المرجان قدرها ستة عشر كيلوغراماً. وصيد الشتاء يبدأ في أول أكتوبر ليتهي في الواحد والثلاثين من مارس ويدفع الصياد في هذه الفترة ما يقارب خمسين فرنك، وكمية من المرجان قدرها ثمانية كيلوغرامات.

أطلقت الشتائم واللعنات على الإنجليز وأيامهم. خرجت إلى الحانة، حيث علت أحاديث الغضب بين الطاولات والكؤوس. أما مي غلمانُ ومتّرجمون، تجارٌ وصياديون ساخطون.

- لا يرغب الإنجليز في التجارة ولا في الصيد.

- شياطين، يضعون لنا العصي في العجلات دائمًا، كيف نتخلص
عن أملاكنا هكذا دون قتال!

مما بلغني أنهم لم يقدّموا للصيادين ما يحتاجون إليه من مساعدة
للتغلب على أعطال المراكب، ولم يزوروا الملائكة بالمؤن. طلب
الباشا من البرتغاليين مليوني بياستر مقابل السلم، ولكنهم عرضوا دفع
خمسين ألف بياستر سنويًا طيلة إحدى عشرة سنة. دفع الإسبانيون
والأمريكيون والهولنديون وغيرهم، قبض الرجل ثم طلب مثابة جشع
دفع المزيد، رفضنا فسلم القالة إلى الإنجلiz مقابل خمسين ألف
بياستر سنويًا، ويقولون مقابل سبعين ألف، ومقابل ثمانين ألف.

امتنعْتُ صهوة حصاني وعدتُ، لحقت بي ماريتا أدخلتها إلى
مخبرِي السري، أخذت عمودين من الزنك والنحاس، فصلت بينهما
بقطعة من النسيج المبلل، ما لبثت حتى استغنت عنها. جعلت ماريتا
تغمس العمودين في محلول ملحي، وصلت بينهما بطرف سلك ثم
هافتُ عاليًا.

- نخبك ماريتا، نخبك سيد فولتا، لقد صنعنا مثلك بطَارِية
كهربائية أو... لِتَقْلُ كَادُهاهاها، كَادُ فقط هاهاها..

أخفيت بالجوارب أصابع أقدامي الستة، أطفأت جذوتي
وتخلّصت من ماريتا. مثل نابليون أفكّر دائمًا في زوجتي الصالحة،
وأنجذب إلى براعة أولئك الرجال. تخلّصت من الجثة ثم ثملت لا
شيء أثناء الصحو يصنع بهجتي عدا ما أحصل عليه من كتب. لم
أكن أتم كتابًا أو صحيفة حتى يستبد بي الذهول، قصص أخرى تظهر
على ألسن الأوروبيين هنا عن مُكتشف الهواء الثابت، جوزيف بلاك،

والهواء القابل للاشتعال!

في الميناء يحمل القادمون قصصاً عن لافوزيه المدهش. يُقال
أنه سكب الماء نقطةً نقطةً عبر ماسورة بندقية مائلة، كان قد سخّنها،
جمع الغاز الناتج عن ذلك في قنينة، سمّاه الهدروجين يا ماريتا،
أشعله بشرارة كهربائية ففتح سائلٍ، برهن أنه الماء، هل كانت روحك
الطيبة لتُصدق ذلك!

ضحكَتْ إعجاباً، تفَقدَتْ ما اشتريت من سوق سرية للأوروبين
غير بعيدة عن الوكالات والشركات، أعدت ترتيب الأشياء، مسدّسٌ
بسبطانة جيّدة، طلقات، كبريت، جير، صوداً، بوتاس، كربون،
كحول، وحامض الكبريتيك. ذاعت شهرة الكثير من الرجال، منذ
المحرّك البخاري للسيد واط تغيير الزمان. أضيأت القنديل، لا امرأة
لهذه الليلة، وقد تأتي متأخرة بكأس أو كأسين. لم أشرب ورحت
أبحث عن السبب الذي أدى إلى حموضة البيرة والنبيذ الذي أحافظ
به، هل حلّت بي لعنة ماريتا؟ استخدمت عدة قوارير أخرى، أحكمتُ
سدّ فوهات بعضها فمنعتْ تسرب الهواء، لم يفسد النبيذ فيها. إذن
الهواء ما يفسد النبيذ يا ماريتا، قلتُ وأنا أفتح الباب.

- اسمي أنطونيلا يا سيدي..

- هل أخبرتك أنني أملك أفلاماً بستة أصابع يا مونكا؟

- هاهاها كلاً يا سيدي، اسمي...

- لا يهم، تعالى ستحبّينها. ستة أصابع جميلة، الأول اسمه...

الضابط الجديد ومقتل الباشا

أسرعتُ الخطى، هرولتُ مبتعداً. أيقنتُ أنّ أحداً لم يتبعنِ، رغم ذلك لم أحدأ، أخذتُ أركض مجدداً. جلست مواجهة للبحر وحيداً، خلعتُ نعلي، حرّكت أصابع أقدامي الإثنى عشر وغرستها في الرمل. ملأت صفّارات السفن أذني.

آخر.. بالأمس سلّمتُ جميع ما كان في حوزتي من أوراق رسمية وأسلحة ومراكب ومفاتيح تماماً كما طلب مني في القنصلية، بينما تم إرسال رجال آخرين إلى وارسو وبولندا. ارتفع صخبُ في المرسى، أخذ الموج يعلو ثم يهبط. سأكمل مهمتي الأخيرة وأحصل على راتب تقاعد متواضع. فكرتُ وقلبت الأمور.

استقبل الباسا القنصل، ولم يجب على العروض التي كان مكلفاً بحملها. قالت الإشاعات أنّ قنصلنا تعرض للصفع. تزايدت الديون، هدأت الغارات على الحاميات بعد إعدام بعض المتمردين. سقط آخرون في معارك أخرى. رغم النوايب تضاعف السكان، زادت احتياجاتهم، إبادتهم ستتكلفنا الكثير.

ما عدت أطيل مسامرة أصدقائي القدامي ولا الجميلات. داخلتني الكآبة وأسئلة كبيرة. عدتُ أدراجي، بينما أتسلى، وضعت منشوراً زجاجياً مثلثاً أعرض به شعاعاً من نور الشمس، نفذ من ثقب صغير في ستارة النافذة، فإذا بالشعاع قد انحرف وانكسر إلى حزمه من ألوان الطيف، تبدأ بالبنفسجي وتنتهي بالأحمر. هل تصدق أنطونيلا أنّ هذه هي مكونات الضوء الذي نراه؟

- يا لها من كتب مجنونة تلك التي تصليني هذه الأيام يا أنطونيلا.

- بل اسمي روكسانا يا سيدي ..

تركتُ شؤون التجارة واحتفظت بمبلغ يكفي نفقاتي حتى الربيع القادم. في الساعة العاشرة بلغني خبر تكبّد نابليون هزيمةً نكراء في إسبانيا. جماهيرٌ ثائرةٌ تهاجم الفرنسيين وممتلكاتهم بعدما رجعوا بنا، يا للهول يا روكسانا. فشل المارشالات في إخضاع التمرد الذي بدأ منذ سنةٍ واشتَدَّ. هرعتُ إلى الدار الفرنسية أتبين ما حدث ثم انصرفت. أصبحتُ قبساً أستضيء به، سمعتُ لطماً وولولةً وصراخ أصواتٍ عالية: «قتل الباسا، قُتل الباسا!»

كان يوم إثنين متصلٌ رمضان حين وقعت الواقعة. سبق إلى مخزن العشور، قتلوه رمياً بالرصاص بينما هم بالهرب، قطعوا رأسه وسحبوه إلى السراجين قبل أن يدفنوه. ماذا قد يفعلون بي إن وقعت بين أيديهم؟

دلفتُ بباب داري مسرعاً وتواريت. ارتفع صوت البراح وهو يعلن مقتل الذي أَحْمَد خوجة باشا. ارتفع صوت فرق الخيالة والioladash الذين صاروا يملؤون الشوارع ذعراً. لقد أراق الإنكشارية الدماء في القصر مجدداً. أخذ الرجال يعتذرون بعضهم البعض، صاح بعضهم يُقبّحون رأي الباسا المقتول و فعله، بينما أخذ آخرون يلومون القتلة ويعظّمون جرمهم وغدرهم.

انطوت أيام الموعدة والألفة والسلام، وأقبلت أيام العداوة والفرقة والشحناء. صار الرجال مثلَ وَعْلَيْنِ يتناطحان فطال تناطحهما حتى سالت الدماء، فأرسل الإنجليز من يلغ فيها قبل أن تُرسل. اغتصبت الأبواب، حُطّمت الأقفال، انتشرت دوريات المراقبة،

وتمَّ تعينُ الباشا الجديد. لم يكن سوى علي الغسال وقد قيل أنه كان غسالاً للموتى هاهماها. أصدر عدداً من المراسيم أذيعت في الناس. أقبل الصباح فقذف البحر إلى الشاطئ ثلاثة سفنٍ مستأجرة تحمل ألف جنديٍّ جديدٍ تم تدوينهم في سجل الجناد. قبل أسبوعين تم تجنيدتهم من إسطنبول، أزمير، تونس، والقاهرة. خشية سوء العاقبة اجتنب نزول المدينة، فلست بأمنٍ على نفسي من غدرهم وشرّهم وبطشهم، وقد حملوا على القسوة وقتل البريء دون محاكمة. مررت الأيام وضجّت المدينة بعودة فرقاطة الرئيس حميده الذي غنم رفقة سُبُك حمدان رئيس سفينة محملة بالبوطاس. قدرتُ قيمتها بما يزيد عن ثمانية وعشرين ألف فرنك. قُيد ذلك في دفتر الغنائم بأمرٍ من الباشا.

وقد وقع من الأمر ما لا مرد له. بايع الإنكشارية علي الغسال وصار يُدعى علي باشا. تسائلتُ رفقة أصدقائي في الدار الفرنسية:
- كيف يصل رجلٌ وضيّع الرتبة والمعرفة إلى حكم الجزائر!
- يُقال أنه كان يغسل الموتى!
- لن يجد من يغسله، هاهماها، تلك نوعية.
- بعد ثلاثة أيام عزل من بايعه هاهماها.

في كتاب رحلتي كتبتُ أن العثمانيين جروا في أيام الغسال. أخذوا أغلب ديار أوقاف الحرمين، وما كادت تمرّ أيام أخرى حتى نفوا الرئيس حميده إلى الشام. لمع اسمه وذاعت شهرته فأثار مخاوفه وإن لم يكن منبني عثمان. تولّى علي باي حكم قسطنطينية. اطمأنّت النفوس للحراثة وأقبل الناس على أشغالهم وصاروا يُسمّون تلك

المجاعة بعام الخمسطاش، وقد كان الزّرع يباع بتلك القيمة المرتفعة. صرفت على عجل غانية مكثت في داري ليلةً، قضيت لياليٍ الأخرى رفقة صديقي القديم الضابط لُفيردو الذي وصل قبل أيامٍ على متن السفينة غريت.

- كيف حالك؟

- في صحة طيبة باستثناء دوار الإبحار.

رفع السّtar عن هدية أحضرها فقهه، لوحة مرسومةً بالوان جميلة، امرأة تشبه العذراء بيدها صولجان ذهبي. مدّها لي فسقطت اللوحة، قال: «يُحكى أنّ السير إسحاق نيوتن كان جالساً تحت شجرة تفاح فسقطت التفاحة فوق رأسه. لو وقعت فوق رأسك يا فيكتور لأكلتها وأنت تفرّك رأسك دون أن تفكّر في شيء آخر، هاهما. سقطت هذه اللوحة كما سقطت التفاحة نحو الأسفل بينما أحزم حقائب سفري فقررتُ أصطحبها لترافقني رحلتي. أنا لا أبحث مثله عن سبب سقوط الأشياء أو كيف، وحده سقوط المدن يعنيني... هاهما».

تسامرنا طويلاً، أطلقتنا الشّتائم على المفاوضين، راح ينقل لي أخباراً سريةً عن قُدوم ضابطٍ في مهمّة لتفقد أماكن الإنزال، ورغبة نابليون في تعويض خسائر حملة مصر والشّام وإسبانيا وإيطاليا بانتصارات حملة أخرى على الجزائر. صُعِقتُ، عبس وجهي، واعتصرت غصّةً حلقي. قال وبين شفتيه غليون:

- أمس بدا القنصل منشغلًا بحماية مئتين وأربعين ألف صاع من القمح والشعير ستنطلق بعد ثلاثة أيام من وهران.

- غريب، أقابلته أمس!

- أجل.

- لكن... طالبنا بمقابلته، سرنا إليه وفداً من التجار فقيل لنا أنَّ القنصل مريض وقد طلب منه الطبيب الانزعال لأيام.

لسداجتي العسكرية ما كنتُ أدرِي وقتها أتنى صرُّتْ ممنوعاً من مقابلته. تلوَّى لوفيردو من الضحك، فيا له من خزي.

- أنتم التجار لا توقفون عن رفع عرائض الشكوى مذ فقدنا الامتيازات، لا أحد يريد مقابلتكم يا رجل هاهاما.

لكتني لست تاجراً، والقنصل يدرك ذلك، كُلفت بمهماً، جالستُ أرفع الرجال. ارتعدت فرائصي، تداعت ساقاي لكن حافظتُ على رباطة جأشي.

- سأغادرك الآن، أعود قبل سفري يا فيكتور.

امتطى جواهه واختفى. تمددتُ لكنَّ النوم لم يجد إلى سبيلاً. حاصرتني المخاوف والظنون. اعتلج فؤادي الكثير من الأحساس السيئة، ترى هل سأرى جيزيلا وأطفالى مجدداً؟ أخذتُ أذرع غرفتي جيئة وذهاباً. لم تمض ثلاثة أيام بعدها حتى طوت الخيل الأرض تحتنا، وقد حملتني مع الضابط لوفيردو إلى الدار الفرنسية. أقيمتُ نظرة، أرهفت السمع، بينما نتناول الطعام. تحدثنا عن بيان بونابرت الأخير، عن حال جيوم والبارون رونولت والجزر الماكو، عن الكولونييل بيرج، الأميرال جورج، الضابط ريشيليو، والفارس دارفيو. حين فرغ أخذ يحدثني عن الآلة البخارية الجديدة التي ملأت المصانع. سأله:

- ولكن كيف؟ كيف تعمل؟

- يقولون كما تدور النّاعورة يا فيكتور، بقوّة الماء وكما تدور السفينة الشراعية أو الطاحونة بقدرة الرياح تعمل هذه الآلة بقدرة الحرارة!

- يُقال إنها أقوى من الحصان، لا تتعب ولا تنام.

- بل أقوى من عشرة أحصنة كحصان نابليون.

- عشرة أحصنة!

الضابط بوتان

بعد سنة من الشائعات، عدت لأسائل لوفيردو عن الضابط الجديد الذي تم ابعاؤه، عسانى أجدى جواباً كاشفاً عن نهايتي الوشيكة.

- أئمة أخبار أخرى عنه؟ ما اسمه؟

- يُقال إن والده كان مترجماً لقنصليتنا في القسطنطينية.

- أسبق وأن رأيته في حفل ما؟

- لا أظن، يدعى المهندس فنسان إيف بوتان، من ضواحي نونت. كان معى في مدرسة مزيار العسكرية برتبة ملازم أول ثم صار رقيباً. أبدى جداراً بعدها ترقى إلى رتبة رائد، كان قائداً لكتيبة قبل ستين. اختاره نابليون السنة الماضية ليقدم تقريراً قبل الحملة.

- وما كانت مهمته؟

- لا أحد يدري، تلقى القنصل أيامها كتاباً سرياً من الحكومة يطلبون منه تقديم كل المساعدات له.

- ومتى قدم بوتان هذا؟

- في أفريل أو ماي الماضي لا أدرى. يقولون إنه تنغر في زى

مدنيّ، وادعى أنّه قريب القنصل ديبوانتفيل. تنقل بين البرج البحري وسidi فرج. أثار الشّبهة بتحرّكاته فخاطبه الباشا أحمد خوجة وهدّد بأن يدفنهم أحياء إذا عادوا إلى هناك ثانية!

تخيلته أصغر سنا مني، مُشرئب العنق، ذكيا دون أن يكون نداً لي. لقد سبق السيف العذل ولم يعد أمامي خيارٌ سوى النّجاة بنفسي. قدمتُ قبله ولم أعامل بما يليق بمقامي، هل لأنّي فشلت مرّة في الوصول إلى قتلة مراسل عسكري؟ أم لأنّ الرئيس حسين أفلت مني كل هذه السنوات ولم يعد من سفره بعيد؟ سحب لوفيردو نفساً من غليونه وقال:

- انشغال البasha بعداوته لإيالة تونس سمح لبوتان بمواصلة رحلته وتجاوز الحدود المخصصة للأوروبيين بثلاث أو أربعة فراسيخ. قيل إنّه تردد على الحصون والقلاع، قام بقياس ارتفاعها وسمكها، عدّ فتحات رمي المدافع، رسم الأبراج ووصفها، تسلّق الجبال والتلال والروابي والغابات. أمتدّت رحلته شهراً ويقال شهرين.

- شهران!

- يقولون إنّه عاد على متن سفينة الروكين، وفي الطريق ألقى سفينه لافولاج الإنجليزية القبض عليها، قادوه إلى مالطا حيث هرب وعاد إلى فرنسا عن طريق أزمير هاهاما كفطّ بسبعين أرواح. ترددت إشاعات عن وقوعه في أيدي العثمانيين هنا. يُقال أنه لجأ إلى ضريح المرابط سidi عبد القادر، حيث نال حق اللّجوء والأمان والحضانة وتمكن من الاختفاء!

- مدھش ما تحمله الليلة من أخبار.

- أرسل لك الجرائد قريبا مع كروازيل صهري، فما تحمله من
أخبار لا تقل غرابة عما أحمله.

كنت أدرى أنه لا ينبغي للملوك والقادة استبقاء الخونة من أمم
أخرى وإن أبدوا الولاء، فهم أهل غدر وكيد، لا صلاح لهم إلا
الإفساد. يعامل بعض القادة الجواسيس كخونة أيضا، ذلك أن القائد
لا يأتمن في سره جاسوسا، فيذيع سره أو يغدر به وقد اطلع على
مكانته.

القائد يشك دوما في لا يُدري له الجاسوس ما كان يُخفي عنه،
فيظل وإن صدق يكتم أمرا وإن علن منه ما كان يُعطى، فتصبح الراحة
منه بقتله أو نفيه أو الكيد له. وقد بلغني الخبر اليقين عن وصول
الضابط بوتان أيقنت بالهلاك.

خُلِّي إلى أنني فشلت في مهمتي. بعد إرسالي أصبحت قطعا من
الجواسيس الذين انتفت الحاجة إليهم. كم تبدل الزمن، الرجال الذين
خبروا البحر لم يعودوا مناسبين لهذه المهام، المهندسون من يتم
تكليفهم هذه الأيام، يحظون بالتبجيل والاحترام والثقة. كنت أظن أنه
سيصعد نجمي كعسكري شجاع مخلص فأحصل على ترقية، لكن
ذلك لم يحدث.

سرعان ما غادرتني المرارة والخيبة، فأفعالي هي ما يزيدني
شرفا. لذا تركت الكتابة العسكرية، اليوم أكتب بلا رموز. لأول مرة
أترك الأوراق مبعثرة على مكتبي بلا رقيب، رغم أنه نص سري
أخطئه سطرا سطرا بالدم لا بالحبر لنفسي هذه المرة لا لنابليون، أو
ربما للأمة الفرنسية على تمنحي المجد الذي أخذه مني المسؤولون

ومؤمراً لهم، فما عاد نابليون يطّلع على كلّ التقارير التي نرفعها إليه. تذكّرتُ ما قيل لي منذ البدء ولعلّهم قالوا الكلام ذاته للضباب بوتان. (إذا وقعت بين أيديهم لن تحصل على مساعدة. أيّ مساعدة ستوجه الأنظار إلينا، إلى القنصل والحكومة وبونابرت فيتهي السلام وتعلن الحرب!)

حزناً شرعتُ أكتب وأكتب، وقد صارت الكتابة وحدها صاحب خلوتي وحديثي ولهوي. أثمنُ الورق وحدهُ على أسراري وحكايتي وقد بلغت الحياة مني كلّ مبلغ، فعجبتُ لعجز رأسي وصنيعي بحالٍ وإغفالِي نفع نفسي وقد وقع بي غدرٌ من غَدَر.

مقتل الغسال / الجزائر / ربيع 1809

تحت غيوم داكنة لا تحمل مطرًا وقفْتُ. مثل طيور البحر أذهب من مكان إلى مكان. خمنت في سري لا بدّ إذن من الرحيل قبل أن أقع في بران آل الأعداء. قام بوتان بتسليم تقريره، تمّ إيداعه في وزارة الحربية داخل ملفّ يتكون من ثلاثين أو أربعين ورقة مكتوبة بوضوح وخمسة عشر رسمًا تخطيطيًّا. تناستُ رغبة الانتقام وقد صرت ذليلاً أبحث عن أجوبة.

تمسح جسدي بجسد امرأة عابرة، أخذت تلمسُني وكأنها تنبش فيه بحثاً عن أوراق أخفيتها، أبعدتها، أخفيت عنها أصابع أقدامي الإثنين عشر ثم طرحتها، إنّها الوساوس مرة أخرى. لم أصل لأطلب النّجاّة، حملتُ الرّيشة والدوّاة لأعود طاهراً بالكتابة قبل أن أهلك. أقبلت الليلة الثانية سريعاً، وقع بين يديّ جنديّ حدّيث عهـد بالجندية،

لويت عنقه لأنختبر شدّتي، ما زلتُ ذلك الرجل القويّ. رسمتُ شارة الصليب، في حراسة الرب، وألقيت رُمته.

منعت الحكومة القنصل من محادثة البasha في شأن الدّيون، واختاروا المماطلة. في منامي رأيت وجهه متورماً ملثوماً يُلقى به عند قدمي البasha، فقامت فزعاً. غير بعيد دوّت الصيحة والمدافع وارتفعت الرّاية فوق القصر. نادى المُنادي: قُتل على الغسال، قُتل الغسال!

أكثر من مئتي فارس توزعوا في الشّوارع، أرخوا لجيادهم الأعنة. جرى العامة والبرانية والأجانب هلعاً في كل الأنحاء. عدتُ أدراجي واجف القلب، فلم يعد أحدٌ يصغي إلى أمير أو حكمة. قُتل البasha الجديد، وقبل سنة ثار الإنكشارية وقتلوا البasha أحمد خوجة. آه لو يأمر بونبارت بالغزو، فالوقت نصف الحرب. نظرتُ في المرأة وابتسمت نصف ابتسامة. هكذا انقضى حكم الغسال وجاء حكم حاج علي باشا الذي كان خوجة الخيل بعدما رفض عمر آغا كرسى الباشوية، يا لنظرته غير الثاقبة، ضحكتُ ضحكة الإعياء. تعجبتُ ما لهذه الصفوّف التي تنشق فجأة لترمي عند أقدام كرسى الباشوية رجالاً جديداً كل ليلة!

أهلًا، أهلًا حاج على باشا، اجتمع الدّيون رفقة أعيان البلد والعلماء، واستقرّ له الحكم. أعاد الرجل الرئيس حميدو من منفاه في بيروت ليقود فرقاطته مجدداً، عزل باي وهران وولى الباي محمد، من أولاد الباي الذي حرر وهران، وولى نعمان بايَا لقسطنطينة. مضت الأيام، أمر البasha بحرب على إيالة تونس، ثم البرتغال

واليونان، بعدها أمر ببناء باب الجهاد، وعدد من المخازن بين البلد وبرج الفنار، جدد قنطرة الحرّاش، وبنى قنطرة أخرى في وادي الشّلّف. قصّدت سوق الميناء، اشتريت القهوة والسكر والتّوابل والمعكرونة والبسكويت الجيد الذي لا تؤثّر فيه رطوبة البحر. ثم اقتنيت أحزمة ليفورنية وعطرًا باريسياً، وجوارب لأصابع أقدامي الستة. حصلت على جرائد الشهر الماضي ثم قصّدت الدار. في الطريق ألقى عليّ القبض بعدها عشر الأوجاق على صحف فرنسيّة في قفتّي وجرائد أمريكية جلبها صديقي القديم كروازيل صهر لوفيردو.

كروازيل

حين صادفته قلتُ متهكمًا:

- قد تقدّف بك هذه الجرائد التي تحملها إلى السجن هنا!
- فيكتور العزيز، أندري قبل عشر سنوات ونيف وقعت في الأسر، قادوني إلى هنا قاموا بتحميّلي ولقي في منشفة بيضاء داخل حمامٍ كبير. أحمر وجهي وتورّد جسدي، حلّقوا شعري، قصّوا أظافري ومنحوني ثياباً. قضيتُ بعدها سنة كاملة مجذفًا في سفن الرئيس حسين. حاولت الهرب ثلاث مراتٍ فأفلّوا بي في السجن، شعرتُ آنني ضعيفٌ مثل سفينيَّة صغيرة تأييدها الرياح من كل جهة. تم بيعي في السوق، اشتراكي رجلٌ يُدعى عبد الله، حاول دعوتي إلى دينه، رفضتُ أن أرتّد عن المسيحية، كتبتُ أكثر من عظةٍ عن قساوة الأسر والعبوديّة وواصلت التّدبير للهرب. ألقى بي في سجن جديد شبيه بالدار، عبرتُ البهو، أدخلني إلى غرفةٍ تضم خمسة عشر رجلاً،

جلستُ على حصيرة من الحلفاء والقصب، وحولي قساوسة، ضيّاط وجندو، بحارة وطبيب. كان حديثهم عن سجن الأسود، وسجن الديوان وسجن علي بتشين. نُقلت إلى سجن الباستارد حيث أسرى من كل الأمم المسيحية يا فيكتور. صقلّيون، رومانيون، برتغاليون، أيسلنديون، بولنديون، فرنسيون مثلّي وإنجليز... ومن سردينيا وكالابريا وبارما. تحدّث الهولندي عن مغامراته في جزر الهند الشرقية واليابان والصين. أخذ الدنماركيون والألمان يروون قصصاً عن غرينلاند، صيد الحيتان، الصقير، والجبال الجليدية. أما الإسباني إنريكو فشرع يتحدث من ملذات المكسيك، وثروات البيرو، أما أنا فرويت عن أيامي في مصر، وكندا، وفرجينيا. أحينا معًا صلوات وقداس يوم الأحد في كنيسة السجن. بعد أسبوع قابلت المبعوث الكنسي الذي أرسل ليتفقد حالنا. أيامها قضيت نهاري في الحقول وليلي في الحمام التركي. مرّة صنعت شاربًا من فسيل الذرة لأهرب لكنهم اكتشفوا أمري. بدأت الشقلبة إلى الأمام والخلف، تارة أقف وأتدحرج أخرى، أمشي على يدي مسافة ثم أقف لأحافظ على لياقة بدني. قابلت المبعوث الكنسي، تأملت عباءته البيضاء المذهبة وقلنسوته، حملته رسالة إلى عائلتي من أجل افتداي، طمأنني، وذكرني بوصايا المسيح لحماية الأسرى ثم عاد بصلّ حريتي.

يا لرداءة سرد كروازيل العزيز، بدأ قصته إنجليزية، إنجليزية جدًا، حتى شعرت أنني قد فرأتها من قبل. قد تكون تلك هي قصة أسره لكن قصة أسره الفرنسية حتماً ليست تلك.

- أخفِ جرائدك يا صديقي لأنها ستُدخلك أنت والمبعوث

الكنسي إلى السجن هذه الأيام، هاهاها.

السجن

دائماً تقع أمورٌ خلافاً لما توقعته. داهمني فرقه من اليولداش
وانزعوا مني الجرائد وما حملتُ من متع، وألقوا بي في السجن.
 حين قابلتُ المبعوث الكنسيّ، سألني:

- متى وقعت في الأسر؟

- قبل أربعة أيام.

- ما تهمتك؟

- أحمل جرائد فيها أخبار. إنها جرائد، جرائد اشتريتها من سوق

المرسى!

- ما هو موطنك؟

- ديسبوليتو، إيطاليا.

- اسمك؟

- جيوفاني ميتشي.

- لماذا يدعونك فيكتور؟

- للسخرية يا سيدي، يقولون إنني كنتُ تاجر مرجان مارسيللي
حتى يطلبوا الكثير من المال ثمناً لتحريري!

- ما صنعتك؟

- حامل بريد، بين أوروبا وإفريقية.

- مُتزوج؟ هل تملك أطفالاً؟

- مات أطفالي بالوباء الأسود، أما زوجتي فماتت قبل أشهر،

فاتها تعليمُ الجُدرِيَّ.

حاول طمأنتي وتذكري بالتزام المحسين بواجب تحرير إخوانهم المسيحيين... سألهني: أتحدث اللاتينية؟

- أجل، وأجيدُ الفرنسية والإسبانية والتركية والعربية أيضاً.

- كم طُولك؟

- خمسُ أقدام ونصف.

- أطلب فأجيِّب حاجتك.

- منعت من التدخين...

- لا تقلق سأرسل تقريراً إلى جمعية آباء الافتداء.

بصوٍتٍ خافتٍ درجتين واصل:

- أرسل لك غداً قفةً طعاماً تحمل تبغًا ودفترًا وحبرًا أيضاً.

في تلك الأيام عدت إلى الكتابة، ثم تخلصت من النص قبل خروجي، حتى لا تشبه كتاباتي كتابات الأسرى المسيحيين. لم أتخل عن مسيحيتي لأصبح مسلماً، حتى وإن منعوني مسيحيتي من أن أكون حراً طليقاً. أخذت السنة الأسرى تلهم بالحكايات، دفعوا لنا بالعصيدة والخبز. جلس الأسير جوان على ركبتيه قائلاً:

- كم فقدت المعلميات والبيز والتبع. أسدل رأسه إلى كفيه:

- وأفقد البُن الشوكولا والкроاسون والبسكويت أيضاً.

أخذ في اللعب بثلاث حصوات ثم أربع فستة، يقذفها عالياً بخفة كبهلوانٍ يتلاعب بها في الوقت ذاته بيدين متشققتين مليئتين بالدمامل والقروح. هجم الأسرى عليه وكادوا يقتلونه.

- أخفِ الحصى أيها الأحمق سيكتشفون أمر التّفق الذي نحفره

بأظافرنا!

غَنِي السُّجْناء اللَّيل بِأكمله وواصلوا الحفر. توقفت عن تناول الطعام فساعات حالي وصار عودي ناحلاً أكثر. قال جوانو وهو يضع عند رأسه صليباً خشياً:

- جيوفاني يُنَازِع، أحضروا القسّيس ليشهد مسحته الأخيرة،
أحضروا القسّيس!

أقبل الجندي ليتفقدني، فصاح به:

- اذهب وأحضر له الكثير من الملابس لتدفه، فيليار كل الرّب،
الكثير الكثير من الملابس، إن مات ستصبّ عليك القنصل بركان
غضبيه!

بعد يوم حضر طيب القنصل على متن عربة عسكرية لمعاينتي، بينما صنع جوانو بالملابس الكثيرة حبلاً متيناً ولاذ بالفرار من النافذة. قضيت بين جدران سجن البحر سنة كاملة، علمت فيها أنهم اعتادوا أن يعتقلوا هنا القناصل الذين تشنّ بلدانهم حملاتٍ أو غاراتٍ على البلاد، كما يحبس الباشا الذين تم عزلهم تمهيداً لقتلهم، كما يحبس البaiات الذين تم تحجيتهم. تم تشييد السجن على أسوار قلعة رومانية، أغلب سجناه لم يخرجُوا منه أحياءً لكن خرجتُ. لا أحد كان يزورني، ووصلت إلى أواخر أيامِي بعدما تعبت من إحصاء السنين وحيداً، يومها وقع سور السجن عندما تلقى قذيفةً من البحر. عاد المبعوث الكنسي لزيارتِي مراراً والاطمئنان علينا، ثم تم إطلاق سراحِي بعدما دفع القنصل ثمن حرّيتي وثمن حرّية ثلاثة من الرجال. وقف يقرأ أسماءنا وكانته يقف أمام شواهد القبور ويقرأها، ثم طرط

خفيفاً كفراشة.

عريضة احتجاج

أصبحت هزيل الوجه، زائف العينين، لقد شخت كجذع شجرة بعد خروجي من السجن. كتبت عريضة احتجاج رفعتها للقنصلية ضدّ عبودية الأسرى سحبها الحراس بزنق. ناشدت الأمم المسيحية بالتبّرع للأسرى المسيحيين في ساحل إفريقيا، فقد أخذت عهداً على نفسي أن لا أنسى الخوف والمهانة والقهرا. بلغت الدار الفرنسية، طلبت العون من أهالي طولون ومارسيليا، صرخت بهم، كيف يصير المسيحيون عيذاً لبني عثمان ولا يتحرّكون ساكناً! انقطعت عنّي أخبار الأصدقاء والأعداء بالتساوي، تحسرت على مآل حالي. تزوج نابليون من الأرشذوقة ماري لويس، ابنة إمبراطور النمسا لتنجب له وريثاً، ترى هل أنجبت جيزيلا الولد أم قضت؟ انقطعت خطابات غاستون ولم يُأذن لي بالعودة بعد، هل حكموا عليّ بالفنى؟

- سيدى هذه شدّة تلمسانية، جبهة نايلية، وهذه ملحفة، ألا تتبع شيئاً للصدق به هذه المرة؟

شعرت بالإحراج، تجاوزته، اشتريت حذاء جديداً، شربت من عين بير جباح، ليتهم يسمحون لي بالرحيل، شعرت بالإعياء، عدت إلى الدار وخلدت إلى الراحة. عصراً وقفت وحيداً أتأمل أحوال حصون للإسبان وحاميات ومدن اندرست درستها الرياح. حاولت الإصغاء مرّة إلى كلام العقل، فخطر لي أن ألوذ بالفرار. لقد ألزم الباشا القنصل بدفع ضريبة أعلى، ما يساوي قيمة ألف عبد وألفي جارية وثلاثة آلاف

من النّوّق والجمل والخرفان والأحصنة. اندلعت معارك صغيرة بين سفن فرنسية وجزائرية وإيطالية فهُدّد نابليون بتلقين الجزائر درساً، ها هو ذا الخروف المُسْمَنُ يطالب مجدداً بتسديد الديون، لسنة أخرى ماطل القنصل، هل ستعلن الحرب؟

فتحت صندوقاً ثياب وأخذت أرقع ثوبٍ. تحسرت، اشتري العثمانيون ولاء العساكر، ضمّوا إليهم حتى الهازدين والمرتدين والقتلة فزاد عددهم. مثلهم علينا أن نجمع صعاليك أوروبا، نهبهم الأرض والمال ونصنع منهم مُعمرِين صالحين. فلا يمكن أن نغامر بخيرة رجالنا، لا أحد عليه أن يكرث لنواب البرلمان وما قد يشيرونه من أخلاقيات واعتراض، إنّها إفريقيا!

تفقدت العليّة وما تختزنه للشتاء القادم. في أذني بدأ يطن أزيز غامض. استلقيت على ظهري، ابتهجت، بدؤوا يمدّون خطوط السكة الحديدية، سنوات قليلة ويصل أول قطار يحمل نابليون لأكثر من مدينة فرنسية. لن يركب الإمبراطور بعد عربة تجرّها الخيول. حاولت أن تخيل كل شيء تغيير، الطرق، الجسور، التّرُّق والقنوات، السدود والفنارات. ارتفعت معامل لصنع آلات الحصاد والبذر والدرس. أسس البارون معماً بينما حروب نابليون مستمرة بدأ يُهرب ماكينات النسيج من فرنسا وينصبها في الأراضي المنخفضة رغبة في الرّبح. الجميع في حاجة إلى الأقمصة الرّخيصة. آه لو أنجح في تهريب الماكينات إلى هنا بعد الغزو، ستنهال على الثروة. مضت سنوات من عمري وكأنّما انقضت بضع ثوان أو بضع ساعات. في المساء حملتني قدماي إلى المقهي اليوناني لأعرف الأخبار. ثارت

ثائرة الأهالي في سطيف والمدية وبوسادة والأغواط وقد كثُرتِ
المظالم. بدأتُ أرى الظللَ وأسمع منها صوت كلوزيل.

- يتظر الأميركيون نهاية الحرب الإنجليزية ليعلنوا الحرب،
يريدون رأس الرئيس حميدو.

- ماذا تحمل أيضًا؟

- إشاعاتٌ عن مؤامرة لقتل البasha.

- بل... قُتِلَ البasha يا كلوزيل، قُتِلَ البasha!

في الصباح وصلت باخرتان مشحونتان بالصواري والحبال
والبارود والمدافع الإنجليزية، بينما يتوسط قنصلهم لإبرام اتفاق بين
الجزائر والبرتغال. ازدادت حدة التأثيرين في سطيف والمدية وبوسادة
والأغواط، في بلاد ميزاب وتقرت وجبال عمور والجنوب. تأجّج
غضب الكرااغلة، ثورات القبائل مستمرة، معارك بين باي قسطنطينة وباي
تونس.

انتشرت إشاعات عن وكيل حرج مرتشٍ وحركة تمدد داخل
الجيش. انقضى الليل وانبلاج النهار. على طريق غرب المدينة ترفرف
أشرطة حمراء، يتعالى عزف الفرق العسكرية للبيات القادمين لتقديم
الدّنوش. آلات موسيقية مثبتة على صدور جنود يسيرون مثنى مثنى.

ارتفاع قرع الطبول واحتناق الأبواق، طنّ رنين صنبح النّحاس.
ما زال البيات يلبسون الملابس ذاتها طول العام. لم يتمدّن الناس
هنا بعد، الشرطة تخدم البasha، الغلمان فلاحون أو حمالون، لا توجد

بنوك أو مسارح، حتى الحصون توقفت عن الارتفاع.

قدّم القنصل هدايا الجمهورية، ساعة ذهبية وبنديقة وأربعة

مسدّسات وخمسة وأربعون قطعة قماش من الجوخ الأبيض الفاخر
وعشر قطع من الديباج القرمزي المطرز بالذهب الخالص وهدايا
أخرى للحاشية. مسحت غيش عيني بطرف الكم ثم انصرفت.

انتشرت أخبار عن عودة الرئيس بينما غابت أخبار الرئيس حسين
بعدما شاع أنه لزم قبر ولده فدنه. ترى هل مات الرئيس؟ أم عاد وتامر
علي وقدف بي إلى غياب السجن، ثم اختفى يتحمّن فرصة ليحرّز
عنقي ويحملها فوق حرية يستعرضها. نظرت في المرأة وما عدتُ
أرى بعين واحدة وكانتها كويت بالحديد المحمى، إن عاد الرئيس هل
سأتعرف عليه؟

هوية مسروقة

توقفت عن رسم الحصون، أحضرت ورقه وألواناً وأخذت أرسم
لوحة لموت هرقل لم تكن سوى لوحة لموتي. باكراً قصدت السوق،
شعرت أن الطريق غير آمنة فسلكت سكناً متعرجة. وقفت عند تاجر
خردوات، كان يبيع قطعاً من ماكينة الخياطة التي اختفت من دار
خداج الفرنساوية. اقتربت، عرض الخشب إلى الخشب وال الحديد
إلى الحديد. دنوت أكثر، هتفت في سري، إنها الخائطة، إنها المطرزة!
حملها اللصوص وباعوها لتجار الخردوات قطعاً، اعتقدت أن
ثمنها خمسون فرنكاً فطلب البائع مئة فرنك. بعد أخذ ورد دفعت، كان
بائعاً خبيثاً يربط السعر بقيمة المشتري لا بشمن الشيء ذاته. رفعها الحمال
على ظهر بغل حرون كاد يفلت مني. عدت بها، تأملتها بعين واحدة،
كانت إبرة التطريز على شكل صنارة، تفقدتها بيدي وإذ بها مكسورة، ما

عاد بإمكانها التحرّك عموديًّا من أعلى إلى أسفل. كما أتَلَفَ مسَارُ يرْتَبِ
الخيط وعلاه الصدأ. تأكل الخشب وقد نخرته حشرات المخازن.
تساءلتُ، كيف أصلحها؟ من أين أبتاع إبرة أخرى؟ هل أستطيع صناعة
مسارٍ جديدٍ للخيوط؟ مررتُ يدي على الطاولة الخشبية التي تحمل
القماش، كم صارت صغيرةً، هي بحاجة إلى تجديد، عليّ استبدلها
بخشبة أكبر. اجتاحتني رغبة إصلاح المخيط، أرجأتُ التجربة لحين
عودتي إلى مارسيليا حيث أجدُ حداً جيداً يساعدني.

كتبتُ خطاباً إلى غاستون، أسأله عن عائلتي بعدما اختفى أثري
وانقطعتُ أخباري ومنتَعِّتُ من السفر قبل الحصول على إذن رسمي.
وقفتُ وراء نافذتي أتأمل الرائع والغادي. مررتُ أسبوعاً ولم أتلقي ردًا،
لعله وقع بين يدي القراصةنة. كم أنا مشؤومٌ، على يدي المرتعشان
ازدادت الأعطال التي تعاني منها الخائطة. أدى البكرة بيدي فتنفلت
وتقفز بعيداً، أتأمل وألاحظ، لا مكان لبكرة الخيط الكبيرة، قد أحتج
إلى قضيب عموديٍّ صغيرٍ أو كبيرٍ لرفعها. كيف يسير الخيط في
مساره؟ وكيف تعود لإحداث القطبة تلوى القطبة؟ انقطع الخيط
وتمزق القماش. لم يُصادف ما بذلته من جهدٍ غير الخيّة. ما أتعسني
من صانع آلاتٍ، ما بسم لي الحظُ يوماً، وما أتعسني من عسكريٍّ. لن
أبلغ الهدف الذي رسّمته ولا المرتبة التي أتوخها.

في تلك الأيام بقيتُ أعيش بهويةٍ مُرِيفَةٍ، أتحلُّ اسم رجل آخر.
تذكّرتُ صديقي القديم فيكتور دي أوغو الذي أنهيَتْ حياته بيدي
 واستوليت على تصريح تجارته وجواز سفره. كان رجلاً حديث عهدٍ
 بالنّعمة بينما عُرِفَ عنّي السلوك الحسن والذكاء المتّقد، أنحدرُ من

عائلةٍ رفيعةٍ المنزلة، نبيلة الدم، انقطعتُ عنها من أجل الواجب.
نظرتُ إلى المرسى، لقد استعاد الجيش شركة النقل البحري
أيضاً وغير اسمها، مشهد الجثث المضروبة بالدماء على سفينتي لم
تعد تفارق عيني الوحيدة، الإحساس بالانهزام يُضني جسدي. وقفْتُ
شاحضاً كتمثال، لقد استحدث بونبارت ديواناً سرّياً تصله الأخبار
والوثائق عن الجزائر، كلّ معلومة هي ذخيرة قتالية هكذا كنتُ أقول.
تذكّرت الجنرال ماديلان الذي يُسمّم الرجال حين يكتشفُ تقاعسهم
أو فشلهم، هل سيتم تسميمي أنا أيضاً؟ لم يكن عدد الرجال المكلّفين
بجمع الأخبار كبيراً رغم ذلك رواتبنا ومكافآتنا مُتدنية، أنفق في كثير
من الأحيان على السفر والضيافة من مالي. بقيتُ وحيداً إذن عرضةً
لمخاطر ومؤامراتٍ حاكها ضدّي رؤساءً وأصدقاءً وأقرباءً، منهم ابنُ
عمي قرصانُ البحر فرنسيس لُويزاف. في جيلنا عندما كانت تُطلقُ
صفة الشجاعة على أحد غالباً ما كانت تُطلق بعد أن يَأسَ سفينةٍ
جزائرية، وكم من سفينة وقعت بين يدي فرنسيس!

عدتُ إلى داري، جمعتُ كلّ حاجياتي، وأحرقتُ أغلبها. نظرتُ
إلى أصصِ الزّهور، شجرة البرتقال والليمون، وضعفتُ حليناً للقطط
ورطلاً من السمك في أصحٍ نحاسية. صعدتُ إلى السطح، تأمّلتُ
المدينة كما لا آخر مرّة، رأيت دار السفن، الميناء، والسفينة التي سأبحرُ
على متنها بعد ساعات. مكثتُ ساهماً في مكانِي، رقّ قلبي وحزنتُ،
نزلتُ حاملاً حقيبتي الوحيدة وأغلقتُ الأبواب. أوهمتُ الجميع
بالمغادرة وتواريتُ عن الأنظار.

صديقٌ لا عهد له
مدينة الجزائر / ربيع 1811

- عاد الرّايس حسين، عاد الرّايس حسين!

توطّدت صداقتِي بهذا الرجل لسنواتِ، بقيتُ أقدّم له واجب التّهنة والعزاء. للّخلص من شوكوكِي وديوني كان عليّ التخلّص منه وللّحصول على جواز سفر وإذن رسميّ للمغادرة من القنصليّة أيضًا. حين زرتَه فوجئت بمرضه. تعرّفْتُ عليه رغم ما مضى من السنوات. حملته إلى سريره، خلعتُ نعله، انزلقتْ عمانته فظهرَ رأسُ أصلعٌ. قمتُ بيلٌ خرقَةً بماءِ بارِدٍ، وضعتها على جبينه.

بقيت عند طرف سريره، راقبت نبضه ووتيرة تنفسه. تفقدتُ قدميه حاولت جعله يتذوّق شيئاً من التفاح المطبوخ بالسّكر، سقيته شراباً مُهدّئاً وأوصيَت له بالطبيب. لم يصبح أمر التخلّص منه صعباً كما قبل سنوات تماماً كما لم يعد صعباً التخلّص من أيِّ رجل هنا. أعدَّ الحاج مصطفى باشا خنقاً، وخُنقَ محمد بكداش باشا من طرف الجيش بعده بخمس سنواتٍ فقط. قُتلَ دالي إبراهيم باشا في العام ذاته، وقتلَ محمد بن حسن باشا. سُمِّمَ إبراهيم كوتشكوك، وقد يُقتلُ الباشا الجديد أيضًا.

قضيتُ الليلة رفقة في دار الضيوف. حين غفوْت رأيتُ نفسي أطلق سهماً أصاب حصانه فوق أرضاً، هرع إليه الرّايس لكن سرعان ما فتر التّوتر في عرقُوبه ومات. قيّدته وأرغمته على تسليم سلاحه ومفتاح داره وما له، مع أول حَزَّة سكين صحوْتُ هلقاً. أخذتُ كوب ماءً لأشرب، سرعان ما تلوّن الماء بدمه، بقصته وقدفته من فتحة

منخريّ، فخرج الماء قرنفليّ اللّون. تقلّبتْ ساعة ثم غفت. في حلمي سدّدتُ إليه طعنة قوية طرحته أرضاً، فصار ممدداً على أديمها. شقت الصربة الثانية قصبةُ الهوائية، ملأتها بالقطع الذهبيّة، أدرتُ خجري مرّاتٍ في محجر عينيه واقتلعهما. خلعتُ أذنيه ولسانه وهشمت أسنانه وقطّعت أصابع يديه. قمتُ بشقّ صدره ليبدو الأمر كما لو كان انتقاماً بين الرّياض.

كان ذلك حلماً آخر أفقت منه فزعاً. فكّرتُ في جعله يتناول سُمّاً مميتاً بدل ذلك السمّ البطيء الذي عثر على ترياق له في بلاد الشام أو الحجاز أو مصر. للحظة أردت العدول عن قتله فلم يبدر منه ما ينفرّ أو يخيف، لكنّها الأوامر، ولقطع الشك باليقين وأتخلص من ديوني القديمة.

ثم... استدرجته، دعوته إلى رحلة صيد أوقعت به وقيدته. سلّمني ما حمل من سلاح ومال، لكنّه رفض الإفصاح عن أسرار صدّره. فاوضته طالباً منه بعض الأخبار مقابل أن ينجو ب حياته فرفض، وعدته بالمنصب مقابل الولاء، لم يُجب. انهدل ذراعاه وسقط ظهره جانبًا. ابتسם بمرارة، كنتُ أودّ لو أقول له:

- أضحك يا صديقي، وابلك...

رُفقة مبعوثين سريين من القنصلية ربطته إلى جذع النّخلة، قاوم، وقعت عمامته وسقط نعله.

بعد ساعة تهدل جسده، رفض الرّد على أسئلتي أو إعطائي أيّة معلومات عن الرجال الذين كلفهم بمراقبتي أو بقتل المراسل العسكري.

رفع الشرطي السري السوط وجلده، سقط، أمرت بفك وثاقه وأطلقته. غمدت الخنجر المسموم في ضلعه الأيسر، طعنة، طعنتين، الثالثة أسقطته أرضاً. أطلق مع الزفارة كلماتٍ أخيرة، التوى لسانه.

- أنت صديق لا عهد له... يا لويس!

رجفت، نهضت، سرت نصف خطوة، هَمَّ ووَقَعَ أرضاً. سُكِنْ جسدي وعَمَّ الصَّمْت بيننا. تَأْمَلْتُ كتفيه العريضين، صدره الممتليء، ساعديه القويين، ويديه المبسوطتين على راحتيهما مثل نهاية. رقّ قلبي للحظة، تركته بكمال ملابسه وأسلحته. قلبته على جنبه الآخر، حرّكت جسده الضخم بمشقة ولذنا بالقرار.

- قُتِلَ الرَّائِيس حُسْنِي، قُتِلَ الرَّائِيس حُسْنِي!

في يوم أحِدٍ قدم المُشيعون من كل حدٍب وصوب. أحاط الرجال بجثّته، نُودي على المزيد من الرجال لحمله. بعد تكفيفه وإقامة صلاة الجنازة عبر النعش ساحة الجامع الكبير، سار بمحاذة دار السفن ثم اتجهوا شرقاً حيث مقبرة الرئيس القديمة. استرقت النظر بين الأعناق، أخذ نعش الرئيس يهتزّ مع خطوات حامليه، يتقدّم خطوتين ثم يعود خطوة إلى الوراء متى اشتَدَ الزحام والتدافع بين المُشيعين. ظهراً دُفِنَ ثم تفرق الناس.

بعد أيام قيل أن روحه تحولت إلى حارس يطوف في دار السفن القديمة كل ليلة. غفوْت مطمئنَ النَّفْس ساخراً مما يقال، إلا أن صوته جاءني في المنام: أنت صديق لا عهد له! صحوْت مرتعداً لأرتشف الماء، فسمعتُ قرقعة خطوات تحت نافذتي، قمتُ سريعاً لأتبين من العابر وإذا به يركض ويغيب في الظلام.

من الجنرال ماديلان إلى ضابطنا المخلص في الجزائر وهران / شتاء 1812

شعرتُ أنَّ الجنرال يُعاملني مثل كلبٍ صغيرٍ مُخلصٍ، يُنكَّصُ
على أعقابه تارةً ليُداعبه، ويقذف لهُ العظام والجيف بعيداً تارةً
أخرى لألحقها وأعود بها. أنا كلبُ الذي يعيش هنا، أهيُمْ، أضيعُ،
أختفي لأيام وكأنني دون صاحبٍ، دون اسمٍ، رغم ذلك أعود دائمًا.
تبَدَّلَ الزَّمْنُ، غادر القنصل وجاء آخر دون أن يصلني جواز
سفرِي الذي وُعِدْتُ به، قال المراسل العسكريَّ آنه سيرافقني به بعد
أيام ثم اختفى. غيرتُ هويَّتي وشكلِي ومتزلي ولم أدع لكائِنَ كان أن
يلمحني وأنا أشد الرحال أو أحطّها. أصبحت لحيتي وشاربي يُغطيان
نصف وجهي. انسدل شعري فوق حاجبي وكأنني عثماني. ربطتُ
إلى ذراعي الأيسر شارة حمراء تحمل صليبًا، ثُبَّتْ مسيحيَّتي، حتَّى
إن قُضيتُ أُدفَنُ في مقابر النصارى لا المسلمين.

لم أعد إلى الجزائر منذ ذلك اليوم، مُفضلاً العمل في تجارة
الحلبي إلى أن يبلغني خطاب ما أو أجده طريقة للهرب. ظلت أخبارها
تلغوني.

غنم الرئيس حميدو أول أمس ثمانية سفن يونانية محملة بالقمح
والخمر وماء الحياة، ثم إحدى عشرة سفينة وست بوارج مدفعية
وقوارب صقلية وأمريكية تجاوزت قيمتها آلاف الفرنكَات، إلى
جانب سلع غالية كالبن وال الحديد والحرير وديدان القز والأقمشة. عند
مخرج المدينة رأيتني أتخبط بين يديه وأقسم بأنني لم أقتل الرئيس
حسين، كان كابوسًا آخر.

أعلنت الجزائر الحرب على الولايات المتحدة بعدما أخلّوا ببنود
المعاهدة وتوّقوها عن دفع القمرية السنوية فطرد قنصلهم. قد يُذبح
الداي حاج علي باشا هذه السنة وقد يصمد سنة أخرى أو سنتين لا
أكثر، يخلفه بعدها أحد الرجلين، إما عمر آغا العرب أو الحاج حمد.
ضجّت المجالس في كل بайлوك، وتأمّل الناس أن يعقد الأميركيون
مع الباشا الصلح ويرموّا معاهدة سلام.

انقطع خطابات غاستون وتأمر رجال القنصلية شجاعاني على
مغادرة الجزائر نحو وهران بعدما كان عليها أن تستيقني. وبعد وصول
الضابط بوتان صرّت غريبا بين الفرنسيين، وبلغ بي المطاف اللجوء
إلى دار صديقي القديم ديغور. حين عدت إلى المقهى الإسباني
القديم اقترب مني رجل قال اسمه مشفوعاً بكلمة السر: لاكال، ثم
مدّني برسالة من الجنرال ماديلان!

بدأت تهيّأت الموت تملأ رأسي، دلفت داري، فتحت باب
القبو، أخذت أهبط وأهبط، بلغت السرداد. كان خندقاً مطموراً
للنجاة أيام القصف وال الحرب يوجد في أغلب البيوت العتيقة. رفعت
عيني أشعّلت السراج وأطفأت الشعلة، تحسست طريقي وعدت إلى
مكاني. مُسرعاً فتحت البريد العسكري، كان رسالة من صفحتين،
قمت بفك رموزها يومين كاملين ليظهر النص، ثم قرأت:
من الجنرال (م / ف) إلى ضابطنا المخلص.

(يريد بونابرت التوغل شرقاً لذا عدل عن مخطط احتلال الجزائر
هذا الصيف. عمد إلى توجيه القوات لغزو الإمبراطورية الروسية وقد
زود الجنود بملابس الشتاء. لن يجد ما ينشده هناك، عرف الروس

أنه سيهاجم موسكو، ولم يبق الكثير من الأيام ليتتصر أو يُهزم شرّ هزيمة. دخلت قوّاتنا متناقلة إلى أراضيهم، بعدما انتهكنا المعاهدة، أكتوبر الماضي. أحرق الروس الأرض وبدأ الشتاء، لن يتمكن من إطالة الحصار، خطوط الإمداد طويلة وصعبة، الجنود يعانون الجوع والبؤس).

يا إلهي، حتماً سيعود إلى باريس في الأشهر القادمة مهزوماً بعدما زح بالفرق في موقع لم تكن المواقع الفعلية للمعركة. لقد أصيب نابليون بجنون العظمة وما عاد ثمة من رجاله من هو قادر على تحذيره، لذا استتكبد الكثير. قد يثور الفرنسيون في وجهه ويجبرونه على التنازل عن الكرسي، وقد يعلّقون رأسه في الساحة أو ينفونه. لقد أنهك الجيش، وزج به في معركة خاسرة. واصلت قراءة ما جاء في الخطاب: (أما وقد بلغني أنك مُلاحِق قبل مقتل الرئيس حسين على يديك وبعده أمرنا بمنع إعطائك جواز سفر أو إذنا بالإبحار والعودة خشية أن تكون مراقباً. ضابطنا المُخلص وقد حامت الشكوك حولك أهراب، لا تطلب الأمان، أحرق كل شيء وأهراب. لا تعد إلى فرنسا، قد تسترجع أسرة البوربون سلطتها بعد هذه الحرب الخاسرة ويعود ورثة الملك إلى عرشه فتبدا المحاكمات. أهراب بعيداً ولا تبئس، نابليون يتصرّ دوماً في معاركه، قادته من يخسرونها من بعده، إنه يدفع ثمن ترقيته للحمقى، وقد تكون مؤامرة للإيقاع به وبيننا جميعاً. وأنا أكتب إليك اليوم تضاعفت الإصابات، الجنود يموتون بسبب جروحهم ونقص الإمدادات والإنهاك والبرد والقذارة وغياب الأطباء... أهراب وصل حتى لا تقع فرنسا في يد الحلفاء).

سواء عاد بونبارت من هذه المعركة أم لم يعد سأظلّ كما فرنسا
أتذكّره كرجل عظيم، لم يعد ذلك الملائم المعمور بل الإمبراطور
الذي يُشبع حوله إحساساً بالمجده والسمو والرفعة. هزّ بمعاركه
العالم، مثل الإسكندر الأكبر، مثل يوليوس قيصر. لا أشعر بالحزن
على الجنود الذين لن يعودوا من ساحة الحرب لأنّهم سيعطون
أقرباءهم العزة والشرف. أما روسيا التي هُزمت في أوسترليتز،
وُدحرت في أيلول قبل ستة سنوات، وهُزمت مجدداً في فريديلاند، ما
زال محافظة على قوّتها. اعتدنا على الحملات الخاطفة، ستهزمنا
حتّماً الأراضي الروسيّة الواسعة القاحلة المتجمّدة.

الفرنسيّون الطيبون يعتقدون أنّ الهزيمة والوباء عقاب الرب، أمّا
نحن العسكريون فلا نؤمن إلّا بالقوة، ننسحب ونعود مع قائد أشد.
يبدو أنّ نابليون قد أصيّب كما الملوك الخالدين بلوثة الجنون مثل
الإسكندر الأوّل في روسيا، وفريدرريك وليام الرابع في بروسيا، ربما
صار الفرنسيون بحاجة أكثر إلى رجل مثل بنجامين فرانكلين، ذلك
الأمريكي الفذ العظيم، صاحبُ المطبعة، السياسي المُخترع، رجل
الأعمال الحاذق!

أقرأ.. وأعيّد. طويتُ الرسالة، وقعتُ في الحيرة والهلع وقد
صرت صعلوّكاً لا يدرى كيف يُغادر وإلى أين؟ توقفت ببرهة للتفكير،
فقد تعلّمت أن أقرأ دائمًا ما بين السطور، وألا أصدق دائمًا كلّ ما
يصلني. عمدت إلى الاختفاء أيامًا حتى أتبين ما الذي يحدث. أخذتُ
أضع كلّ الاحتمالات والتّهم التي قد توجّه إليّ ثم أفكّر في طريقةٍ
لتُبرّأني منها.

بلغت فرق الخيالة والإمدادات مشارف الجزائر. فشلت المفاوضات وأعلنت المدينة الحرب على الأميركيين. شعرتُ برأسى يتآرجح بين كتفي، غادرت المقهى الإسباني القديم وتعاظمت رغبتي في العودة إلى فرنسا. عند هبوط الليل تلقيت خطاباً من غاستون. هل ما زال مرتبطاً بالعهد الذي قطعه لجدى؟

نقل لي الأخبار. حاول النقيب إيفر -الذي كُلف بتقديم يد العون لي- الفرار ومعه كل المبالغ المُوَدعة في ثلاثة خزائن تُموّل المهمّات السرية. هاج وماج الجنرال ماديلان عندما بلغه الأمر. واتهمه بالنهب وإفشاء المعلومات العسكرية، الخيانة العظمى! بعدها عُثر في مكتبه على مراسلاتٍ متباذلة مع الإنجليز. وهو في طريقه إلى مدينة ميمينغين الألمانية اعتُقل. أصرّ على أنه كان يعمل بمفرده، في الحقيقة عمل لصالح الروس وقد نجح في تضليل الجميع، فصار الجنرال يضرب أخماساً في أسدايس.

يا للهول، لماذا قد يفعل رجل مثله ذلك؟ كان إيفر ينحدر من أسرة عريقة تدين بالولاء للملك، لمع نجمه، استعان الجمهوريون به بعد ما أظهره من ولاء للثورة ومبادئها، لكنه اختار الانتقام والتآمر على حكومتهم. كيف فاتني هذا، وقد أخبرني عن محاكمة والده الجائرة! لم أكن وحدي العاجز عن سبر أغوار نفسه. كان له إربٌ آخر وهو يخبرني قبل سنوات في القالة، واثقاً من أنني لن أرتّاب منه أو أشك فيه. إنه ليحتقرني، يستعبد الكيد لي، يضع الحقيقة كاملة بين يديّ، ثم يسخر من غفلتي وعجزي عن إدراكتها. هو رجلٌ يكره

الجمهوريين، يهُزأ بالمخاطر كما يهُزأ من الحياة والموت معاً. عثرت الشرطة السرية على أسماء لرجال يعملون تحت إمرته، متغلغلون في شوارع باريس ومجالسها.

أصدرت المحكمة العسكرية حُكْمًا بإعدامه بعدما فشلت مُحاولة مبادلته مع كومدان فرنسي ألقى عليه الرّوّس القبض. سُحب منه سلاحه ورتبته العسكرية، كتبَ رسالة مفتوحة إلى بونبارت ألقى في القمامنة. سارع الجنرال ماديلان إلى تغيير الخطط والأسرار التي كان إيفر على علم بها واستبدلها بأخرى، كما شرع في تضليل رجاله والتخلص منهم رجالاً رجلاً. تمت مُتابعة كل العمليات التي كُلِّف بها أو ساعد فيها، غيرها وغير خطط الإمدادات والتمويل.

خشية الفضائح العسكرية والسياسية تم تهريب السم إلى زنزانته ودفع للانتحار دفعاً. صدر قرارُ بالستر على حياته، فقاموا بتشييعه كما يليق ب العسكري مخلص. تم إخبار عائلته بأنه مات بسبب جاسوس إنجليري ألقى القبض عليه وبحوزته رسالة مسمومة، وهذا ما كتبته الجرائد.

أوقع الجنرال بخمسة رجال كانوا تحت إمرة إيفر، قد يكون بعضهم أبرياء، الجنرال لا يهتم، يريد تطهير الجيش من العيون، نحن في حرب. لم يهدأ، ما زال يبحث عن رجال متورطين، عن خونة لذا نصحني غاستون بعدم العودة حالياً إلى فرنسا، ووعدني بالاعتناء بعائلتي وابني رينو لأنهم يشتبهون بي !
أهكذا تطيش رماحي هباء في الأرض ؟

طيف الرئيس حسين

تضاءل احتمال وصولي إلى فيوري، سفينته تغادر ميناء وهران نحو كتالونيا. يوماً بعد يومٍ تضيق بي هذه المدينة التي جئت إليها هارباً فصرتُ منفياً. أطلقت اللعنات على الرّصيف الجديد بعدهما جعل قوائم الجواب جميل العُرْفِ تزلُّ، وقد كانت من قبل أكثر استواءً، تركض عليها المطية ركضاً. أتأمل المدافع التي تركها الإسبان وتركناها في أكثر من حملة بلغت نحو خمسة وثلاثين مدفعاً نحايسياً وأربعين حديدياً.

قبل نابليون عزم الملك لويس الرابع عشر غزوها، كلف الفارس دوشو رفيل، اختار يومها الإنزال في عناية أو في ميناء ستوره، وقد اخترنا سيدى فرج هل ستكون حملتنا القادمة مثل حملة الأميرال دوكين الذي قهر الإسبان والمهولنديين في صقلية وقهروه هنا، رغم ما حمله من بحارة وسفن ومدافع الهاون المدهشة التي ابتدعها رينو ديليكا غاري العظيم، كم أحب ذلك الرجل!

لقد عبث العمر بجسمي، أزاحتُ الخزانة الخشبية، لم تتحرك شيئاً، جعلتُ أوتادها تنزلق بالماء والصابون. فتحت القبو، أوقدت قنديلًا، نزلت الدرج، عبرت الدّهليز، فتحت باباً آخر. أفاق طيف الرئيس بعدما أمضى ليله في دار السفن يتقدّم عمل الصناع. قلتُ له:
- لا تنظر إليّ هكذا، طالما سرنا كتفاً إلى كتفٍ، لك عينان تلمعان لكنهما لا تُضيئان الطريق، أنت طيفُ الآن، أستطيع النظر إليك بينما لا يمكنك رؤيتي. هنا لا يوجد غيرنا أنا وأنت، أعرف بأنني خُضت حرّباً بلا راية، مارست الخديعة وأوقعت بك. كنت صديقي لأنك

مثلي عرفَ الكفاح والبذل، كما عرفَ الخسارة والانتصار، الحب والكره، القوة والضعف، الشك واليقين، لكن على أحدنا أن ينجو فقط. سأقتلك مرة أخرى لأنك تلاحقني، لم أنجح في الهرب منك أنا الذي أستطيع الهرب من فرنسا والجزائر، من أممٍ بأكملها آتى شئت! لا يمكن أن ننجو معًا، يجب أن أقتلك أو تقتلني، نحن نوجد هكذا داخل جماعاتِ منذ البدء، داخل أممٍ لا نختارها، نولد ونكبر فيها ثم نتعلم كيف ندافع عنها، يعلموتنا فنُ الحرب ولا يلقونونا فنُ السلم لكن لا تبتئس، اضحك، واستخر مثناً، عندما تسقط بيدينا مدینتك سُغلق أبوابها ونحرس أسوارها، ليت الفرنسيين الذين سيأتون بعدي يُقون الأبواب مشرعةً لأنهم هم الغُزاة هاهما، تماماً كما أبقي أبواب داري هذه مفتوحة أمامك لأنها دارك. لا تحزن هكذا، كما قتلتك أمس سيقتلوني غدًا، قد تسألني... وأنت كم عدد الذين قتلتهم هنا أيّها الفرنسي؟ الكثير أيّها الرئيس، الكثير. تعودتُ على الدم وحرارته ولُزوجتي وطريقة تنظيفه. أدركتُ أنّ أمتي ستبلغُ المجد بسفكها فصرتُ أحسب نفسي بطلاً لا قاتلاً. إنّ الأمم في جوهرها شيءٌ قاسٍ، قاسي جداً، لا تعبأ بنا كبشرٍ فرادى يا صديقي، فلماذا أقسسو على نفسي بسبب واجبٍ لم أختره ولم أذا تقسو أنت علىّ؟

نرفتُ، لُويتُ ذراعي، غرسُ خنجرًا في ساقي حتى أطيق الوجع، هكذا يجب أن تعتاد الموت، أن تمرّن عليه، حتى لا يُياugaتك، حتى لا يؤلمك. ولأنني قتلتُ الكثرين أكاد أجزمُ لك بأن الموت غير مؤلم، ما يؤذينا حقًا ما نشعرُ به ونحن أحياء، ذلك وحده ما يحفرُ في العظم حفراً، هنا وهنا.

لست شريراً يا صديقي القديم، الأمم من تمجّد الشّرور وتدفعنا إليها. كنتُ أودّ لو كنتُ عصفوراً، أو غصناً على شجرة، مُدّ لي يدك ولا تخفْ فأنت تدرِّي...

منذ الأزل هناك أممٌ طريدة، وأممٌ كالصَّيادين تبحث لها عن فرائس. بعْضُنا يتظاهر بالاعتراف، بالندم والصلة وبعضنا بالكتابة، لكنّها عكسنا تظلُّ بخطاياها إلى الأبد لأنّها لا تتظاهر، كلّ الأمم بما فيها أمتك التي تراها أمّة خيرٌ لها خطاياها أيّها الرئيس.

نحن نشتري السّلم بينما تشتري الأمم كلّ شيء لكنّها لا تستطيع شراء المصير، المصير يصنعه الرجال الفرادى، لا يصنعه رجالٌ مثلّي أو مثلّك وإنّما رجالٌ مثل الباشا والإمبراطور فلا تلاحقني بعد!

هل أخبركَ سراً وتكلّمه؟ أنا هنا ما يزيد عن عشرين سنة قضيتها في التجارة وتأجير السفن وجمع الأخبار. عمرٌ طويلُ أليس كذلك؟ رغم ذلك أخفقتُ في انتزاع مدفع برونزىٌ من أجل جدي، لكنّ صغيري رينو سيفعل هاهماها. أجل، أنا هنا من أجل رجلٍ واحدٍ أدين له بالولاء هو جدي.

أتدري؟ بعض أيام السّلم أثقل من أيام الحرب. قبل وقتٍ طويلاً كنتُ رجلاً جيداً يحول أصدقاءه إلى أطفال له، كما يحوّل الأطفال الدّمى إلى أبناء لهم، ثم أردتُ أن أكون رجلاً قوياً، في الحقيقة نحن مُتشابهان، بشرتي أكثر تورّداً بينما بشرتك أكثر اسمراراً، وإن كانت ملابسكَ أكثر اتساعاً وطولاً، تضع عمامة بدل القبعة. مثلّي أنتَ فارسٌ وإنْ مُتْ مُكَبّلاً دون مبارزة، نحن لا نموتُ أبداً أجسادنا فقط تموتُ أولاً.

يا صديقي القديم انطفأْت أنتَ وغادرتُ أنا، ها أنتَ ذا تبدو مثل
مدينة مهدمَة، مثل رجل بلا أرضٍ، لقد أرخيت جفنك، مُتْ أنتَ أمّا
أنا فلن أغمض عيني إلى الأبد!

صارت بعده مدن المرجان موحشة مثل البحر، في الحقيقة أنا
لا أحبه أخافه. كنتُ كاتب عظامٍ متميّز، أحلم بنشرِ رحلتي مثلاً
نشر ذلك الإنجليزي اللّعين موريسون فينيس عن رحلاته في إيرلندا،
أو كما كتب ويليام بيديلف عن حلب والشام وإسطنبول والقهوة.
قد أسمّي نصّي اليوميات، أو رحلة إلى مرسي الخرز القديم. بدأتُ
في تحريره باللاتينية منذ سنوات دون أن أطلع أحداً. أنتَ لا تقرأ
اللاتينية، لذا فكّرتُ في نقله إلى العربية، عندما يكتمل المخطوط،
أقصد الجزائر خفية، أفتح قبرك وأجعله قربك لتقرأ، لكن أخبرني
هل تُحسن قراءة الحرف أم أقرأ لك هاهاما؟ أمّا النسخة الأخرى فقد
تصدرُ بعد سنة أو أكثر، وقد تصدر بعد موتي كما قد تندثر، من يهتم.
هيا هياً عُد إلى نومك، لقد أيقظتك هذه المرة وقد أيقظتني مرازاً!

الجمجمة

غفوْتُ، صحوْتُ هلعاً. ملأت تهيّوات الموت رأسي. تخلّصت
من الراغبين في قتلي لكنّ أطيافهم بقيت تلازمني. دار البراحُ بشوارعِ
المدينة ونادي قبل الفجر وبعده معلناً تعرض المدينة لهجوم بحريّ.
نادي ظهراً وعصراً وليلًا سبعة أيام متالية. ضجّت الجزائر بالمدافعِ
وكادت تندثر. دار البراح أو هكذا ظنتُ فما عدتُ أسمعُ جيّداً، هل
خرفت أم فقدت رشدي؟

أغمضت عيني كي أنام فرأيت الرئيس يضحك بصخب تارة وتارة أخرى يستدرجي إلى رحلة صيد ويقع بي. فتحت عيني، اشتكت من آلام في القيام والقعود، تحسست طريقي إلى القنديل وأسرجته. فكرت، ماذا سأقول للرئيس غداً عندما أزوره؟ قد أقول... أنا هنا لأنشر كلمة الرب ولهدایة من يكفرون بالمسیح. هاء... خرج هواء الزفة من منحري تهكمًا، كيف ننشر الإيمان بالحرب؟ لا أدری هاهاها، إنه الذهب ما يُصيّب العقل بهذه اللوحة، صار فادحاً جداً قول ذلك!

وأنا هنا في منفاي علمت أنه قد تم تسريح الكثير من الجنوسيين، الوزير الجديد يعيد تنظيم الوزارة، يعيّن موظفين آخرين يحظون بثقة. في آية لحظة قد يحرق الأرشيف السري الذي كانت تُودع فيه تقاريري. عملت مخلصاً لمهمتي النبيلة، تحرير بلاد الجزائر، أظهرت العفة والاستقامة الثورية، حلمت بنقل حضارتنا ومبادئ الثورة الفرنسية العظيمة. سيأتي يوماً فرنسيون يحتفون بي، لذا قررت أن لا أكتب لنابليون، أريد أن أكتب للفرنسيين ولأصدقائنا من الجزائريين، ليحتفوا بي أيضاً وباركوني. لن يعرفوا الكثير، أزيّف الأسماء وأغيّب بالحقيقة، لكنهم حتماً سيعرفون بعضًا من أسمائي ومهماتي. لقد قدمت إليهم من أمّة صديقة لأخلّصهم مثلما قدم المسيح لتخلّصنا، أنا أاحترم دينهم وتقاليدهم وأملاكهم، لكن أودّ لو أحطّم الأغلال الموجودة في أيديهم وعقولهم، لا أحد بإمكانه فعل ذلك سوى جيشنا. أيها الجزائريون ثقوا في ثني مهمتي، فالجيش الفرنسي صديقكم، وإن خاض حرباً لن يخوضها إلا بشرف وضدّ أعداء الحضارة. العثمانيون، ينهبونكم ويستعبدونكم، تحت لوائهم

لا حياة كريمة لكم ولأبنائكم. يُقيمون ديواناً رثا ويحكمونه بقوانين قطاع الطرق. عملتُ لتحريركم منهم في المدن كما في القرى، لإقرار دستور فرنسيٍّ هنا بقوانين تحترم حقوق البشر وكرامتهم. كم أتمنى رؤية مؤسساتٍ فرنسيةٍ وبرلمانٍ وحكومةٍ تسيّرالجزائر. عرض الإنجليز على آلاف الجنيهات لأدين لهم بالولاء لكن رفضتُ. فليكن ولاؤكم مثل ولائي للجيش الفرنسيٍّ وحده.

أيها الجزائريون... لا تنصبوا للجنود الكمائين فهم أصدقاءكم، لا تقاوموا الإنزال لا تقاوموا الحضارة، احتفوا بها وضعوا أيديكم بيد الفرنسيين الفاتحين.

أضحيتُ واثقاً من أن حياتي باتت معرضاً لخطر جسيم، لذا سارعت في نقل ما تبقى منها إلى كتاب. سأحاول تزوير بعض الأوراق للمغادرة أو للفرار إلى إالية تونس ثم إيطاليا. لا شيء بعد، فقد أصبحتُ والموت مثل ضرير يطاردُ أعمى. قد أختفي من الحياة العامة وأصيرُ نسياً منسياً، قد أهربُ وقد أُقتلُ. مثلية ستلتقطون يوماً حولكم وستجدون أنَّ كل شيء قد تغير. سيهبُ الرب الغفران والبركة لكل مسيحيٍ يشارك في هذه الحملة المقدسة، كما سيهب بركته أيضاً لل المسلمين الذين يساعدون المسيحيين القادمين لفتح هذه الأرض الفرنسية منذ الأزل.

أخذتُ مخطوط الرحلة، وقد فرغت من الخطاب، تركت على صفحته الأولى أحد أسمائي، ثم وضعته داخل صندوق خشبي بلون القرفة. ظهراً قصدتُ مقبرة المرسى، نبشتُ قبر الرئيس حسين، وحفظته فيه كما وعدته. أعدتُ ترتيب عظامه الطولية عظمةً عظمةً،

عظام القدم والرّسغ والّحوض، مشطيات اليد وسلاميات الأصابع.
لاحظتُ أنَّ الرّايس لا يملّك قدماً مميزة بستة أصابع مثل قدمي التي
غرستها في التراب هاهماها. أهلتُ عليه التراب وكأنّني أهيله على
جسدي وأغلقت القبر. آه.. انتبهت، نسيتُ جمجمته خارجاً، خشية
قدوم الجبashi أقيت بها في قفتى، غطّيتها بعرجون تمر وأكياس
كعك جلبتها للصدقة. نفّضتُ الغبار عن يديّ، أغلقُ العایك جيداً،
رفعت العجار وانصرفتُ.

ليلاً وضعّت الجمجمة على مكتبي، ورحتُ أوacial الحديث
إليه وقد غاب طيفه ليلتين.

- ماذا سأفعل غداً إن تأخّرت الأوراق المزورة يوماً آخر؟ هل
سيطلب منّي ميغيل ذلك الوغد الإسباني دفع المزيد وييتّبني كما
ييتّبني الأسرى الهاريين؟ هل سيضع يده على بيتي الأخير هذا أيضاً؟
ما الذي سيفعله الفرنسيون العائدون من الإمبراطورية الروسية؟ ما
الذي سيفعله بونابرت بنا؟ هل سيقود حملته القادمة صيفاً إلى هنا أم
إلى بلادٍ أخرى؟ لا أحد يدرى أيها الرّايس، لكنّ قلّ لي لماذا نحل
 وجهك هكذا واختفت عيناك، لقد بربّ عظامك، عظامك كلّها
هاهماها.

رسالة عاجلة من غاستون ديرك

- رجال بونابرت لا يتوقفون عن السعي لصنع العربية عديمة
الجياد!

- ماذا تقول يا دِمْلُر؟ عربة عديمة الجياد؟!

وحيداً كنتُ أستعيدُ أحاديث آخر مرّة زرتُ فيها الميناء أستقبل صديقاًقادماً.تساءلتُ،ما الأخبار التي يحملها القادمون هذه الأيام؟
هل صنع الفرنسيون العربية عديمة الجياد أم ليس بعد؟
ملتُ بجذعي،أفرغتُ ما في جوفي للمرّة الثالثة. على اختفائى مرّت أشهرٌ. تهُّتْ، ما عدْتُ أعرف من أنا، جِيُوفَانِي مِيشِي أم ثيودوريك آلونزو؟ فيكتور دي أوغو أم لويس ديتريش؟ جُوانُو تِيسِياَنْتَرَا أم... سيمون الصغير؟

ما عدْتُ أستمتع بشيءٍ قطّ. فعقلِي يفسدُ عليَّ ملذاتِ جسدي وجسدي يفسدُ عليَّ ملذاتِ عقلي. حولِي صارت هذه الأرض الفرنسية موحشة. رغم أنني عرفتُ الرّائح والغادي. تذكرتُ أمي التّعيسة التي وضعت طفلاً بستة أصابع في قدميه كان أنا، وتذكرتُ معلمي الذي علمني اللاتينية، تذكرتُ الجوقة والأناشيد، صوت الأورغن، القدّاس، مقعدي الخشبي في الكنيسة...

وسط سحابة دخان تملأ السرير، شعرتُ بألم في الرّكبتين، وبغيشٍ في النّظر. ما عدْتُ قادرًا على الذهاب إلى طبيب الوكالة. أحدق في الظّلام، أسمع خطوات لصّ حيناً، ورنة صوت نابليون حيناً آخر. بصقتُ في الهواء. لعنتُ عزّلتني وواجيبي والأوراق المزورة التي تأخرت أسبوعاً. أشعّلتُ قنديلاً، رتّبتُ أوراقاً تسردُ قصة جدي. أعدت ترتيب المفروطة منها، شرعتُ في خياطة كعبها بالمحراز والخيوط القوية. صنعتُ لها غلافاً فرمزيًا من الجلد وأريتها لجمجمة الرئيس. نظرتُ في المرأة، يا.. أنا.. ستائفُ عينك الواحدة هذا الغيش الحالك كظلّام، ستعتاد ألا ترکض باحثاً عن أحد، وأن لا يرتاح رأسك

إلا على حجر. مساء قررت المغادرة لشراء حاجياتي مُرتدية الحايك والعجار. آخذ رطل التفاح أدفع ثمنه دون أن أنس بكلمة وهكذا. رجعت إلى البيت، عبرت إلى جانب المرأة. هل ستعرفني جيزيلا إن عثرت على قارب للهرب؟ هل ستعرفني ولا الوجه عاد وجهي؟ كم أريد رؤية صغيري رينو. أصبحت رجلاً نحيل العود، يرتدى ثياباً عثمانية أكبر مني بدرجة، خسرت عدداً من أسنانى، فصرت أشبه أسيراً أعجف. لهج بي الشّوق إلى باريس فشحب وجهي وغارت وجنتاي. تشققت قدماي لكثره ما قطعته من وديان وطرق. نظرت إلى شعري الذي صار بحاجة إلى حلاق جيد. لا فرنسي قد يترفق بك هنا، جميعهم يبحثون عن المال.

هربت إلى قسنطينة أياماً. حين جعت ذهبت إلى أحد الجوامع، أخبرت أحدهم أنني إيطالي مرتداً اعتنق الإسلام، قدموا لي التهنة. أطعموني، وهبوني المال والمأوى وعرضوا عليّ امرأة أتزوجها فتحنو عليّ. أضحك وأخبرهم بأن لي أقداماً بستة أصابع مخيفة، لن تحبها أيّ امرأة، فيضحكون!

أما حين التقى نصرياني فأتوذد إليه. أجمع منه أخبار أوروبا، وفتوات نابليون. يسألني لماذا صرت مرتداً؟ أخبره بأنها ملابسُ سرقتها من آخر رجل قتلته فنضحك.

لم أحب يوماً قسنطينة، لذا عدت إلى الجزائر حين مُنعت من العودة إلى القالة. أنتهَد متذمراً. أقوم، أنزع الشاش والقطن الملتصق بجرح طري، أرهف السمع. إنه لصوت جلة غامضة، أخفيتُ جمجمة الرّais. ناديتُ، من هناك؟ لا رد، قد يكون طيفه!

انتابني سعالٌ شديدٌ، بللتُ سروالي للمرة الثانية. في الماضي، كنتُ أريد العودة إلى فرنسا مع أول سفينة عائدة. اليوم لا أريد أن أموت هنا ولا سفينة قد تحملني، قبل أن ينال مني المرض فأقضي حاجتي في ثيابي !

ازداد شعوري بالخواء. بعد يومين بلغتني رسالةٌ سريةٌ من غاستون ابن عمّي أو ابن عمّتي ما عدتُ أذكر قرابتي به في نص رحلتي الطويلة. لكن في النص كما في الحقيقة كان الوحيد الذي بقيتُ أبادله الخطابات. هرولتُ حاملاً خطابه بعيداً. قذفتُ جمجمة الرئيس داخل الصندوق، حتى لا يسترق النظر إليّ. جلبتُ ماء وقررتُ أن أسارع بالقراءة. أوقدتُ قنديلاً، إثنين، ثم شرعتُ في فك رموزها. وجدتُ أنه قد كتب نصها باستبدال كلّ حرف من الحروف الثالث حرفٍ يليه في الأبجدية. بعد ساعات أعدتُ تدوين نص رسالته السري وقد كتب:

(عزيزي الأخطبوط هذه رسالة من ابن عمك المخلص (غ. د). إن الجنرال يشك في أمرك. ثلاثة أسماء ثقيلة لرجال يعملون في قطاع الصناعة الحربية سقطوا الشهر الماضي. سقوط التحبيب إيفر لم يجعل منك جاسوساً تم الاستغناء عنه كما تظن، بل مُتهماً أبقوه في إفريقيا ليُضللوا العدو، قبل أن يوقعوا به في النهاية ولذلك احتفظوا بك في السجن. حتى وأنت بريءٌ من التهم التي أدانوك بها، لن يعترفوا لك بوطنّتك.

لقد أرسلوا ضابطين مكلفين بمرافقتك ونقلك إلى فرنسا، برعاية من القنصل، في جناح خاص في سفينة الدوّكين. غير مكانك فوراً، لا

تقصد قسنطينة أو القالة أو متزل ديعو في وهران، توقف عن استلام المراسلات والرّد عليها. لا تدق في أي فرنسي. اشتريتُ عدداً من الْذِمم ودفعتُ الكثير لتبلغك هذه الرّسالة).

انقطعتُ عن القراءة، بعدما أخذتني رعدة شديدةٌ وعلق لساني في حلقي. بقيت عيناي تصعدان وتنزلان بين الأسطر. خفتْ جذوة القنديل، نخسته بأصابعي فأضاء مجدداً. ملأ برأسى على الجدار لأريحه قليلاً، أغمضتْ عيني، فتحتها بعد ما سمعتْ جلة خافته فوق، حبسْ أنفاسي، أرهفتْ السّمع، توقفتْ الجلة، قمتْ لأتبين الأمر، لم يكن ثمة أحدٌ، إنه الخوف والتهيّات. عدتْ، قرفصتْ، أسدلت ذقني إلى ركبتيّ، ارتعشتْ يدي فزعاً وانكمشتْ أصابع أقدامي الإثني عشر. كنتُ أعتبر الأصابع الزائدة علامـة للحظـ الجـيدـ، بينما اعتبرتها عائلـي نـذيرـاً للـشـؤـمـ، أمـاـ غـاستـونـ فقدـ كانـ يـلـقـبـنـيـ بـالـأـخـطـبـوـطــ، سـاخـرـاـ يـخـبـرـنـيـ آـنـهـمـ سـيـعـرـفـونـ عـلـىـ جـشـتـيـ يـوـمـاـ مـاـ عـنـ طـرـيقـ الأـصـابـعـ الزـائـدـةـ، وـهـذـهـ هـيـ فـائـدـتـهـ الـوـحـيدـ!

(هل تدرى؟ أنت... لم تكن تعمل تحت إمرة الجنرال ماديلان، فقط تمّ إيهامك بذلك. أنت تعمل تحت إمرة قيادة أخرى، أخفوا عنك اسمها الحقيقي حفاظاً على الأسرار العسكرية إن أنت وقعت في يد عدو. ولو آتني لم أر الجنرال ماديلان الحقيقي وجهاً لوجه صدفةً قبل سنواتٍ لراهنـتـ مـثـلـكـ عـلـىـ آـنـهـ هوـ بالـذـاتــ. مـادـيلـانـ الـحـقـيـقـيــ كانـ قـسـيسـاـ، اـرـتـقـىـ إـلـىـ رـتـبـةـ عـسـكـرـيـةـ، مـنـ أـسـرـةـ نـبـلـةـ غـربـ فـرـنـسـاــ. كـانـ ذـكـيـاـ تـرـكـ الـكـنـيـسـةـ وـاشـتـغـلـ فـيـ السـيـاسـةـ بـعـدـ الثـورـةـ، وـأـصـبـحـ يـنـادـيـ بـتأـمـيمـ مـمـتـلكـاتـ الـكـنـيـسـةـ وـبـدـسـتـورـ جـدـيدـ يـقـرـ المـساـواـةـ بـيـنـ الـمـوـاطـنـينـ، ثـمـ

صار عضواً في البرلمان. بعدها تولى مهامٍ رسمية أخرى. في فترة الإرهاب صار سمسار عقارات، ثم اختفى بعدها تولى مهامٍ سرية. غادر إلى البندقية حيث كاد يُكتشف أمره لو لا أنه نجح في الاختباء داخل مشاجب السلاح في قصر الدوق ثم لاذ بالفرار. صار مقرّباً إلى نابليون وشقيقه جوزيف ولويسين. تم التعرّف على جثته بعد حادث سياسيٍ غامض. كلّهم يدركون ذلك ما عداك أنت!

اليوم لا أحد يدري ما الذي يحدث. جهزوا ملفاً ملائقاً لك، وسيقدّم لمحاكمتك. سيتم حجبك عن الأنظار إنْ عُدت، وعن أي محامي قد نُكلّفه للدفاع عنك، ثم يُدينونك بالخيانة العظمى. إنّي آتهم القضاء نفسه بعرقلة سير العدالة ومنعنا من الوصول إلى الحقيقة. كُن يقطّاً، ليس ثمة أحكام مخففة، قانون المرافعات لن يفيدك في شيء، أحدهم يريد رأسك. أحياناً يلعب القضاء دوره المُمُزِي بيمنا، وأنت تدرّي. إنّي لأقول ذلك بمرارة، فأنت تدرّي أيضاً إنّي سليل أسرة مارست المحاماة أباً عن جدٍ. لا تضع قدميك في فرنسا ثانية إليها الأخطبوط الصغير. أُهرّب يا بولارد، لا تهرّب إلى ميلانو، أو بريشيا، أو فرونا. لا تطلب مساعدةً من سفن أجنبية فتتأكد التّهم. لا تهرّب مع قوارب الأسرى، كلّها مراقبة. بل أُهرّب إلى تونس، أو الشام. أُهرّب يا... (كتب سيمون ثم شطبه) بولارد... أُهرّب...!

تم الطبع من طرف متيجة للطباعة - الجزائر

رواية

مُدْنُ الْمُرْجَانَ

أيتها العظيم نابليون، أثراني هالكاليوم؟ هكذا سألت نفسي أواخر يوليو، حيث كنت أنا وزوجي جيزيلا وصديقي القديم ديبيغو مع زهاء ثلاثمائة فرنسي. تجاري، جنود، مشاة، خيالة، رهبان، مُترجمون، ملائكون، صيادو مرجان كورسيكيون ومارسيليون.

هرع الجنود الأشداء لإغلاق بوابات الحامية التي ستتحول إلى سجن كبير. دفعت المزاليل في الأبواب وأنزلت الألوية. مجدداً ارتفعت صيحات الصياديون العائدين بقواربهم الخاوية:

- الحرب، الحرب...
- ارتفاع صوت دوي قذائف بعيدة، تقيناً أحدهم من شدة الهلع، بينما ابتلع البحر قواربهم المنفلته.
- كيف ستخفي قنطازاً وستين رطلاً من المرجان؟
- سيحجزونها كما حجزوا البريدا



زهرة كشاووي

مكتبة نو ميديا

Mim Edition
ميم للنشر
www.mimedition.com
edition.mim2014@gmail.com
213656043784+



طبع هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والفنون

